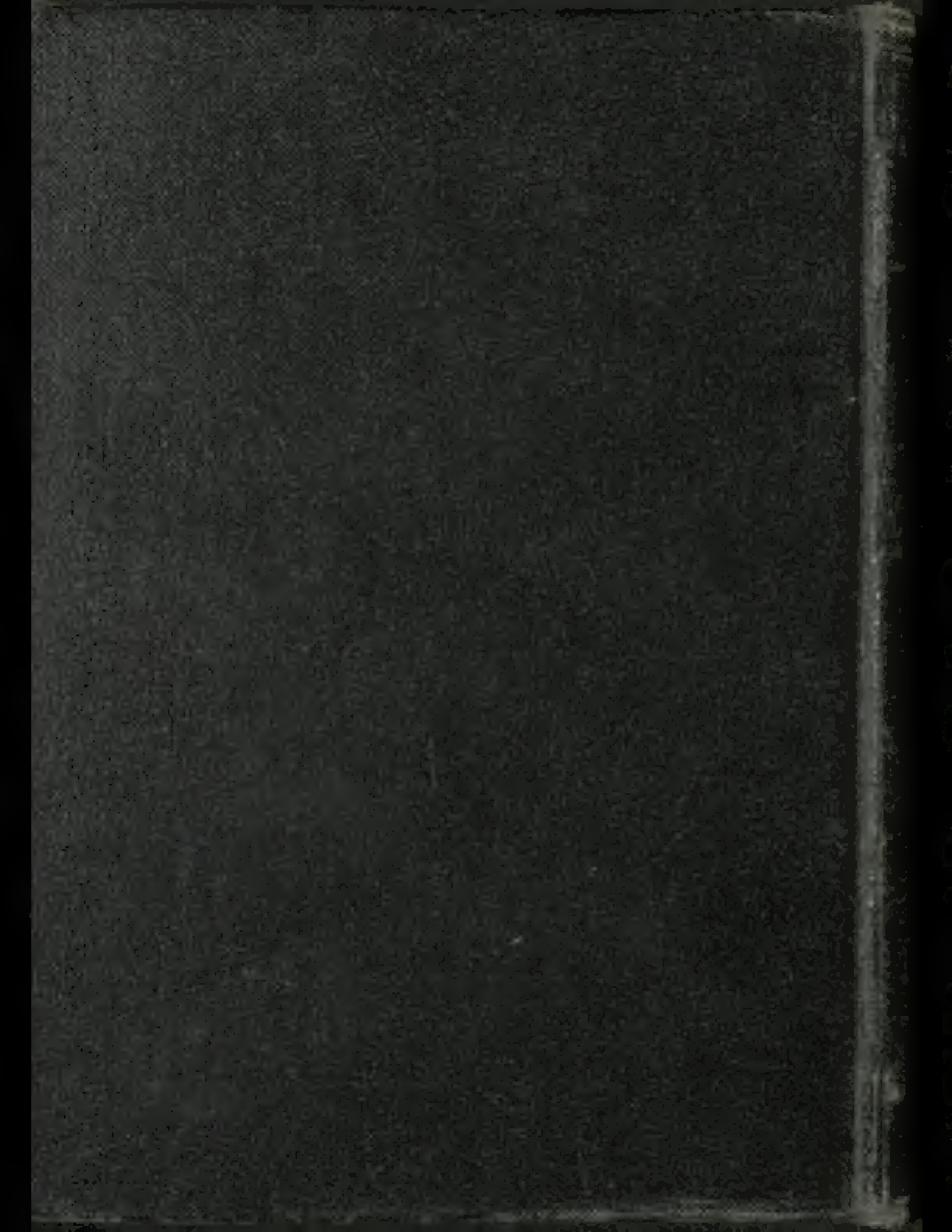
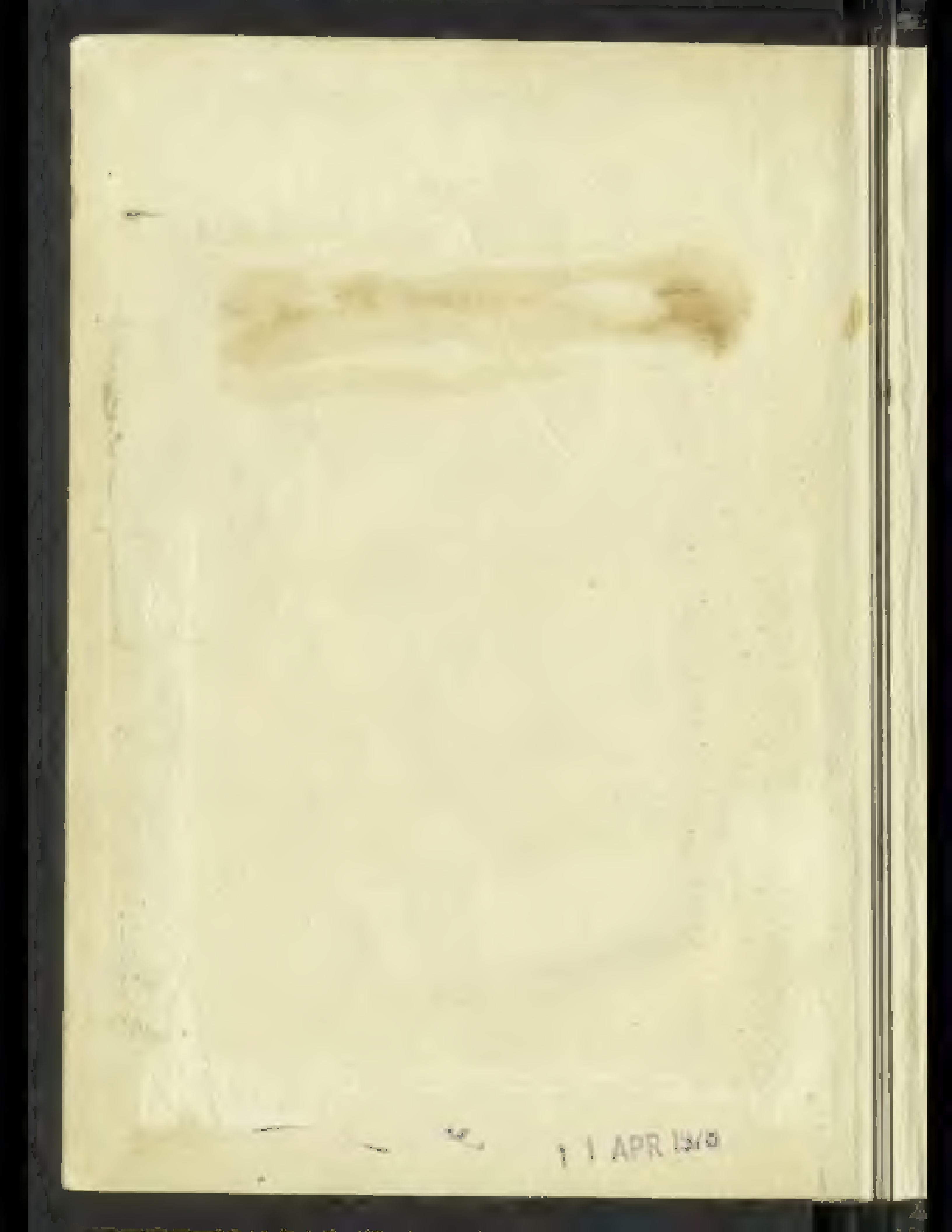








روايات تاريخ [illegible]سلام

[illegible]

مسلسلة [illegible]

١ ـ فتاة غسان

تشرح حال الاسلام من ظهوره الى فتوح العراق والشام مع بسط عادات العرب واخلاقهم فى آخر جاهليتهم واول اسلامهم

٢ ـ ارمانوسة المصرية

فيها تفصيل لفتح مصر على يد عمرو بن العاص مع بسط سائر احوال العرب والاقباط والرومان فى ذلك العصر

٣ ـ عذراء قريش

تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام على وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعتى الجمل وصفين

٤ ـ ١٧ رمضان

تتضمن مقتل الامام على وبسط حال الخوارج وقيام الفتنة واستئثار بنى امية بالخلافة وخروجها من اهل البيت

٥ ـ غادة كربلاء

تتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها من مقتل الامام الحسين واهل بيته فى كربلاء ، وواقعة الحرة وغيرها

٦ ـ الحجاج بن يوسف

تتناول حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان ، مع وصف مكة والمدينة

٧ ـ فتح الاندلس

تتضمن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الاسلامى ووصف احوالها وفتحها على يد طارق بن زياد ومقتل رودريك ملك القوط

٨ ـ شارل وعبد الرحمن

تشرح فتوح العرب فى بلاد فرنسا وما كان من تكاتف الافرنج بقيادة شارل مارتل واسباب فشل العرب فى اوربا

٩ - ابو مسلم الخراساني

تشتمل على سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية الى مقتل ابي مسلم [illegible] من [illegible] وصف عادات الخراسانيين

١٠ - العباسة اخت الرشيد

تشتمل على نكبة البرامكة وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء وملابسهم ومواكبهم ، وحضارة الدولة في عصر الرشيد

١١ - الامين والمامون

تفصل الخلاف بين الامين والمامون ، وقيام الفرس لنصرة المامون حتى فتحوا بغداد ، ودخائل السياسة بين العرب والفرس

١٢ - عروس فرغانة

تحوى وصف الدولة العباسية في عصر المعتصم بالله وقيام الفرس لارجاع دولتهم ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية

١٣ - احمد بن طولون

فيها وصف جامع لمصر وبلاد النوبة وعلاقاتهما السياسية في اواسط القرن الثالث للهجرة على زمن احمد بن طولون

١٤ - عبد الرحمن الناصر

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموى وخروج ابنه عبد الله عليه

١٥ - فتاة القيروان

تتضمن ظهور دولة العبيديين او الفاطميين في افريقية ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر، وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيدية

١٦ - صلاح الدين الايوبي

تتضمن انتقال مصر من الفاطميين الى الايوبيين على يد السلطان صلاح الدين ، مع وصف طائفة الاسماعيلية

١٧ - شجرة الدر

تتضمن مبايعة شجرة الدر ، وسيرة الامير ركن الدين بيبرس وحالة الخلافة العباسية وفتنة وانتقالها من بغداد الى مصر

١٨ - الانقلاب العثماني

تشرح احوال الاحرار العثمانيين وما قاسوه في طلب الدستور ووصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه

فتح الأندلس

أو

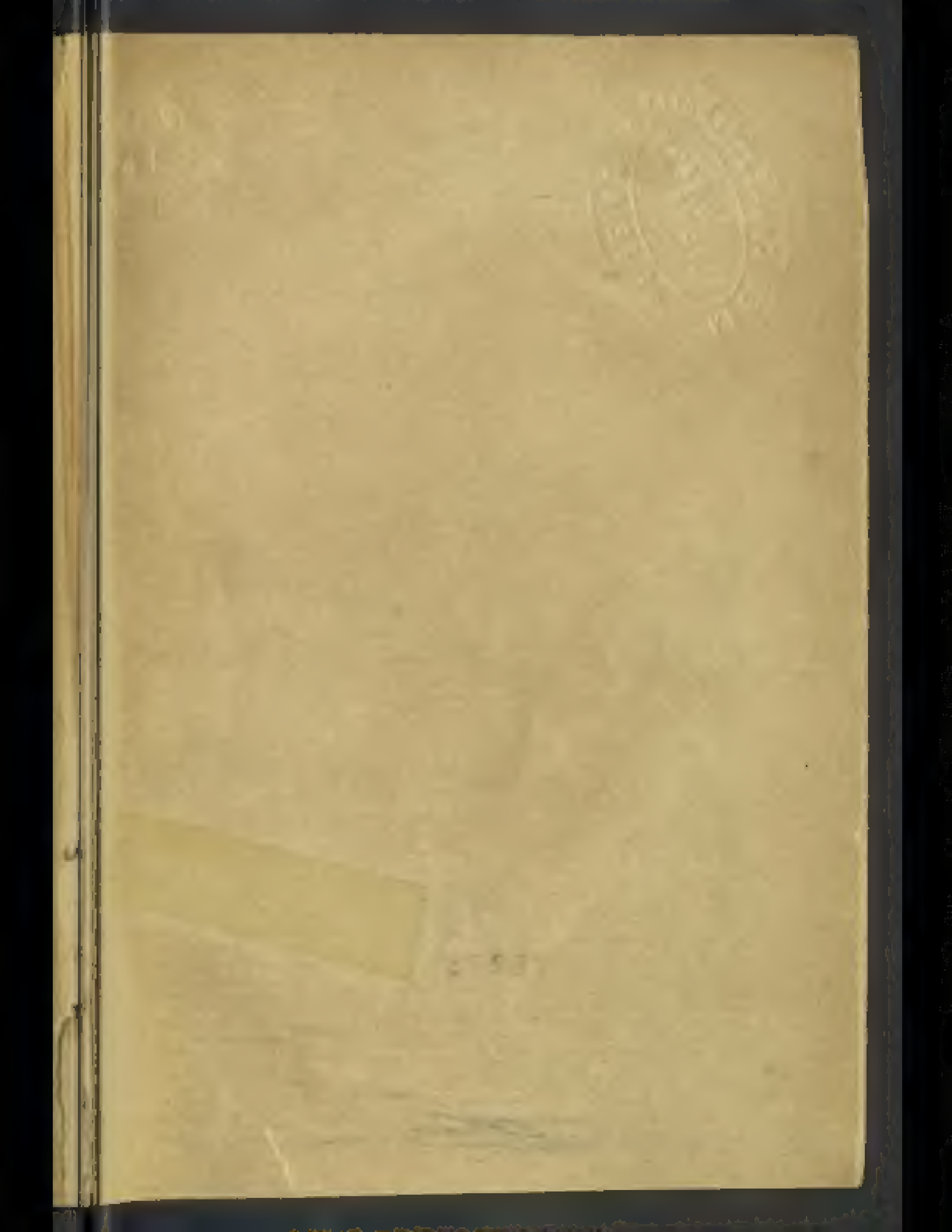
طارق بن زياد

تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامي ، ووصف احوالها ، وفتحها على يد طارق بن زياد ، ومقتل رودريك ملك القوط

تأليف

جرجي زيدان

دار الهلال بمصر



— ١ —

الاندلس احدى مقاطعات اسبانيا . واسمها فى الاصل «وندلوسيا» نسبة الى « الوندال » او « الفندال » وكانوا قد استوطنوها بعد الرومان ، فلما فتحها العرب سموها الاندلس ، ثم اطلقوا هذا الاسم على أسبانيا كلها

وكانت هذه البلاد جزءا من مملكة الرومان الغربية الى القرن الخامس للميلاد ؛ فسطا عليها « القوط » وهم من القبائل الجرمانية الذين رحلوا من اعالى الهند الى اوربا طلبا للعيش والمرعى ، واقاموا فى بواديها

وقد سيطر القوط على مملكة الرومان الغربية قبل سيطرة العرب على المملكة الشرقية ببضعة قرون ، وانشأوا الممالك فى فرنسا والمانيا وانجلترا وغيرها من دول أوربا الباقية الى الآن

وكان فى جملة تلك القبائل قبيلة القوط الغربيين « فيسيقوط » . فسطت على اسبانيا فى القرن الخامس وانتزعتها من الرومانيين ، وانشأت فيها دولة قوطية انتهت بالفتح الاسلامى سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) على يد طارق بن زياد القائد الشهير

وكانت عاصمة مملكة القوط فى اسبانيا مدينة « طليطلة » على ضفاف نهر التاج فى اواسط اسبانيا ، وكانت فى ذلك العهد مدينة عامرة ، فيها الحصون والقلاع والقصور والكنائس والاديار ، كما كانت مركز الدين والسياسة ، وفيها كان يجتمع مجمع الاساقفة كل عام ينظر فى الامور العامة

وكان ملك الاسبان عام الفتح الملك «رودريك» الذى يسميه العرب « لذريق » ، وهو الذى اغتصب الملك اغتصابا سنة ٧٠٩ م مع انه لم يكن من العائلة المالكة ، مما جعل ابناء الملك السابق ينقمون عليه. وكانت اسبانيا تنقسم يومئذ الى ولايات او « دوقيات » يتولى كل دوقية منها حاكم يسمى الدوق او الكونت ، ويرجعون فى احكامهم جميعا الى الملك المقيم فى طليطلة

وطليطلة واقعة على اكمة يحيط بها نهر التاج من الشرق والغرب والجنوب بما يشبه حدوة الفرس ، ووراءه جبال متسلسلة تحجب الافق عن اهل المدينة ، وفيها مغارس الزيتون وكروم العنب ، وغابات السنديان والصنوبر . وفى منتصف المدينة الكنيسة الكبرى التى جعلها المسلمون بعد الفتح مسجدا ، وهى من الفخامة والمناعة على جانب عظيم . وكان الناظر اذا القى نظرة على ابنية طليطلة من

شاهق تبين فيها من ضروب الابنية مزيجا من الطرز الرومانية والقوطية . وحول المدينة من الشمال ووراء النهر من الجهات الاخرى مغارس الفاكهة والاثمار وسائر اصناف الاشجار ، اذا اطل الواقف من احدى نوافذ منازلها اشرف عليها كلها

□

وكان فى جملة قصور الملك رودريك قصر شرقى المدينة فوق اكمة تشرف على ضفاف النهر ، تحيط به حدائق واسعة تحوى صنوف الاشجار والرياحين والازهار ، على مرتفعات تتخللها مجارى الماء على غير نظام مما يزيدها جمالا ، ويحدق بها كلها الا من جهة النهر سور حوله الحراس فى منازل بنوها لهم بجانب ابواب البستان

وكان بجانب قصر الملك قصر صغير متصل به يستطرق الى البستان من جهة وله باب مستقل من جهة اخرى ، وعدة قصور متفرقة فى جوانب ذلك البستان ، بعضها للحاشية وبعضها للامراء ، ومن بينها قصر كبير كان يقيم فيه اولاد الدوقات والكونتات حكام الولايات ، جريا على العادة المتبعة عند ملوك القوط فى ذلك الزمان . فقد كان من عاداتهم ان يجتمع فى بلاطهم فى طليطلة ابناء ولاتهم هؤلاء وبناتهم يقيمون هناك ويربون فى البلاط الملكى معا ، يتعارفون ويتعاشرون فينشئون على ما يرضاه الملك ويتأدبون فى خدمته ثم يتزوجون

ففى صباح الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧١١ للميلاد كان اهل طليطلة مشتغلين بالاحتفال بعيد الميلاد ، والناس يتقاطرون الى الكنائس والاديار يهنىء بعضهم بعضا ، واكثر الكنائس ازدحاما فى ذلك اليوم الكنيسة الكبرى لان اكبر اساقفة طليطلة يصلى فيها ولان الملك رودريك كان سيحضر القداس بنفسه ومعه حاشيته وكبار رجال دولته ، ولذا غصت الكنيسة على سعتها وامتلأ فناؤها وما جاورها من الشوارع والاسطح بالناس ، على اختلاف الاعمار والاجناس ، تطلعا الى رؤية الملك ومشاهدة موكبه الحافل ، اذ كان لايزال قريب العهد بالملك وقلما رآه اهل طليطلة من قبل فكيف بأهل المجاورة ؟ فاغتنموا جميعا فرصة ذلك العيد لمشاهدة الرجل الذى اختلس الملك من « غيطشة » Witiza ملكهم السابق

وقد خرجت النساء من بيوتهن لمشاهدة موكب الملك رودريك ، الا فتاة من اهل البلاط الملكى اغتنمت اشتغال الملك ورعيته بذلك



خريطة بلاد المغرب والأندلس في عهد الفتوحات الإسلامية

العبد لتخلو الى نفسها وتفكر فى امرها . وكانت هذه الفتاة من بنات الكونتات حكام الولايات ، وتقيم فى القصر الذى يجمعهن جميعا بجوار قصر الملك . فنقلها الملك منذ بضعة ايام الى القصر الصغير المتميز بقصره . وهو اكرام حسدها عليه كل رفاقها ورفيقاتها . ولكنه كان سببا كبيرا فى تعاستها وانشغال بالها . فلما خرج الملك ورجال دولته وسائر اهل البلاط للاحتفال بالعيد اعتذرت هى بانحراف صحتها

وكان ذلك اليوم صاحيا زاهيا . يندر مثاله فى فصل الشتاء . وقد اطلت الشمس من وراء الآكام وارسلت اشعتها على نهر التاج وما على ضفافه من الحدائق وفى جملتها حديقة قصر الملك ، فبخرت ما كان على الاوراق والازهار من الطل . وكان يوما يحلو للناس الخروج فيه من المنازل الى البساتين لاستقبال اشعة الشمس والتمتع بمناظر الطبيعة . ولذا اغتنمت الفتاة غياب الملك وحاشيته ونزلت تتمشى فى طرق تلك الحديقة وقد تدثرت برداء من الحرير الاحمر مبطن بالفرو اتقاء البرد . غطى اكتافها ومعظم جسمها الا ذيل ثوبها ، القفطان ، الارجوانى المزركش بالقصب فانه ما زال يتلألأ وراءها فى اشعة الشمس ، واما راسها فقد كان مكشوفا وعليه شبكة من الحرير الابيض تضم شعرها الذهبى ضمة واحدة وترسله الى ظهرها مستعرضا كانها خارجة من الحمام على عادة الرومان التى اقتبسها عنهم القوط فى تلك العصور . وكان ذلك الشعر الذهبى يتلألأ من خلال تلك الشبكة خصوصا اذا وقعت عليه اشعة الشمس فى اثناء مرور الفتاة بين الاشجار . على ان اكتساءها بذلك الرداء لم يخف جمال قامتها ورشاقة مشيتها . واما وجهها فقد كان ممتلئا ناصع البياض ، مشربا بحمرة ، يكاد يشف عما تحته . وقد زاده الانحراف والذبول هيبة وجمالا . وفيه عينان تجمعان الى الصفاء والزرقة شيئا لا يعبر عنه بغير السحر ، وفم مع صغره لا يبدو الا مبتسما ابتسام الجلال والحشمة

سارت الفتاة فى الحديقة ومعظم اشجارها عار من الورق . واكثر رياحينها خال من الازهار . كأنها تشارك فتاتنا الذبول والانكسار . بينما كانت الارض وكأنها بساط من العشب الاخضر ، مرصعة ببعض الازهار التى تتفتح فى الشتاء . فمشت الفتاة وهى لا تبالى بما قد يعترضها فى طريقها من الاغصان المدلاة . هذا يلطم كتفها وذاك صدرها او راسها ؛ وبين يديها امراة عجوز تحوم حولها وتراعى حركاتها وتزيل العقبات من سبيلها ، وهى ليست اقل منها قلقا ولكن الايمان حنكها ؛

ومرور الحدثان علمها ان الاحوال لاتدوم على حال !

وكانت الفتاة تمشي وتلتفت نحو القصر ، ثم ترسل نظرها من خلال الاشجار الى ما يطل عليه ذلك البستان من الحدائق البعيدة وفوقها جبال شامخة يعلو بعض قممها ثلج تنعكس عنه الاشعة كأنها جبال من الفضة ، والفتاة تارة تنزل في واد وطورا تصعد على تل ، والعجوز تقطف لها زهرة من هنا وثمرة من هناك فتتناولها ولا تتكلم كأنما حكم عليها بالسكوت !

وبعد برهة انتهت الى اكمة منبسطة تطل على النهر ، يكسوها عشب قصير كأنه بساط من الديباج وقد تطاير عنه الندى بوقوع الاشعة عليه . فراق لفتاتنا الجلوس عليه والتعرض لأشعة الشمس التماسا للدفء ، وللتمتع بمنظر السماء الازرق الصافي . فالتفتت الى العجوز وقالت بصوت مختنق لطول السكوت : « ماقولك ياخالة ؟ الا نقعد على هذه الاكمة نتمتع بهذا الطقس الجميل .. ؟ »

فهرعت العجوز وهي تصلح نقابا كانت قد لفت به راسها وحول اذنيها تجنبا للبرد وقالت : « اقعدي حيثما تشائين يا حبيبتي » . قالت ذلك واسرعت الى كرسي من خشب كان في بعض طرق الحديقة وجاءتها به فابت القعود عليه وقالت : « افضل هذا العشب فان القعود عليه حسن في مثل هذا اليوم ! » فقعدت العجوز بين يديها وهي لاتزال تراقب حركاتها ، وقلبها يحوم حولها ، وقدسرها ارتياحها الى مناظر الطبيعة ، فجعلت ترغبها في تسريح نظرها فيما تشرفان عليه من مجرى النهر وما وراءه من التلال التي تكسوها غابات الصنوبر والزيتون والسنديان . وما يتخلل الغابات من بيوت متفرقة هنا وهناك وهي تقول : « تاملي يا فلورندا هذه المناظر الجميلة فينشرح صدرك واتركي عنك الاوهام »

وكانت تلك التعزية سببا في هياج شجون فلورندا فقالت : « لقد اذكرتني يا خالة بأمر أحاول تناسيه .. كيف ينشرح صدري وانا فيما تعلمين من انشغال زاده انتقالي الى هذا القصر .. ! »

قالت : « وما يخيفك من ذلك الانتقال وقد اصبحت اقرب الى قصر الملك واعز جانبا .. ! ؟ »

فقالت وهي تنظر الى آخر مايقع نظرها عليه من مجرى النهر كأنها ترى قاربا بعيدا : « ان ذلك الانتقال هو الذي اخافني .. وياليته نقلني الى اطراف المدينة ، بل ياليته ارجعني الى والدي ! » . قالت ذلك وشرقت بدموعها فاشتغلت عن النظر الى ذلك القارب بما حال

فى خاطرها من امر والدها وبعدها عنه ووقوعها فى ذلك الخطر

وكانت العجوزخالة ام فلوروندا ، وقد احتضنتها من طفولتها وربتها فى بيت والدها . حتى اذا آن مجيئها الى بلاط الملك على عادتهم الجارية كلفها ابوها ان تكون معها ، فقضت فى عشرتها بضعة عشر عاما : لم تكن تزداد خلالها الا حبا لها وانعطافا نحوها لما فطرت عليه من الجمال واللطف . فلما رأتها تبكي انفطر قلبها وقالت : « اما الرجوع الى والدك فانه ميسور ، ولكن بقاءك هنا لا ارى فيه باسا خصوصا لاجل الفونس » .

فلما ذكرت العجوز اسم الفونس ظهرت البغتة على وجه الفتاة وكانها كانت فى غفلة وافاقت . فدق قلبها وصعد الدم الى وجهها فزال ذبول لونها ، ثم تنهدت والتفتت الى العجوز وقالت : « دعيني من الفونس .. حتى الفونس نفسه من اسباب شقائي وقد كنت كما تعلمين احسبه سبب سعادتي . دعيني ابكي » .

فقالت العجوز : « مالي اراك تحسبين الشقاء محدقا بك من كل ناحية وانت من اسعد خلق الله ؟ كيف تقولين ان الفونس من اسباب شقائك وهو خطيبك ويتفانى فى سبيل مرضاتك ؟ » .

قالت : « اعلم ذلك وهو الذي يزيد بلبالي ! احبه ويحبني ، ولكن ما الفائدة من هذه المحبة ؟ ! ان الذنب ذنبك ياخالة .. انت علقت قلبي به ، وكنت خالية لا اعرف القلق . سامحك الله ! » .

قالت : « لم اندم على ما بذلته من الجهد فى تقريب قلبيكما لانكما متناسبان خلقا وخلقا . وانتما من عائلة واحدة . ولما سعيت فى تقريبكما كان هو ولي عهد هذه المملكة الواسعة . ولما توفقت الى ارتباطكما برباط الخطبة حسبت اني اوصلتك الى اوج السعادة ، لان الفونس كان لا يلبث ان يصبح ملكا على اسبانيا كلها فتكونين انت ملكة القوط ، ولم يخطر لي ان يحصل ما حصل من الانقلاب فى اهل المطامع والاغراض فى اهلاك ابيه واخراج الملك الى احد قواده » . ولما بلغت الى هنا خفضت صوتها والتفتت الى ما حولها مخافة ان يسمعها احد ثم عادت الى اتمام حديثها فقالت : « فاذا كنت تعدين خروج الملك من يديه شقاء فلا الومك ! » .

فقطعت فلوروندا كلام خالتها وقالت : « لا لا . ليس ذلك سبب شقائي وانما هو انقطاع الفونس عن المجيء الى .. ها قد مضت اشهر

ولم اشاهده ، واظنني لن اشاهده بعد اعوام خصوصا بعد انتقالي الى هذا القصر ، اعوذ بالله من هذا الانتقال ، ان قلبي يحدثني بسوء سيصيبني منه ، ولذا تريني منذ انتقلت اليه وانا منحرفة الصحة لا يهنا لي عيش »

قالت : « اراك واهمة ياحبيبتي فما في هذا القصر الا ما يدعو الى انشراح صدرك . واما سبب انقباضك فانما هو شوقك لالفونس ، وهذا مالا الومك فيه وان يكن معذورا في تغيبه ؛ لان الملك يراقب حركاته وسكناته خوفا منه ، لعلمه بما اختلسه من قبضة يده ! »

وكان القارب الذي وقع نظر فلوروندا عليه في اعلى النهر قد توارى بين بعض الصخور ثم عاد فظهر من بينهـا على مقربة من حديقة القصر . وحالمـا وقع نظر فلوروندا عليه خفق قلبها لانها رات فيه الفونس واثنين من رجاله ، فلم تعد تعلم ماذا تقول ، واكتفت بالاشارة اليه فاقترب القارب من الضفة ونزل الفونس الى البر ، واشار الى الرجلين فنزل احدهما ومشى في جهة اخرى وظل الثاني في القارب . وكان الفونس حالما وقع نظره على فلوروندا قد سار اليها وعليه لباس القواد الرسمي ، المؤلف من سروال منتفخ قصير مبطن بالفرو الى الركبة ، وحول صدره دراعة مقفلة من الامام ، وفوقها قبـاء قصير ارجواني اللون وحول خصره منطقة من جلد عريضة . وعلى راسه قبعة صغيرة لها جناحان من ريش الطير ومن تحتها شعره الاسود يسترسل الى كتفيه

وكان الفونس في العشرين من عمره ؛ ولم يستطل شعر عارضيه وشاربيه بعد . وكان ابيض الوجه اسود العينين ، اذا نظرت في عينيه تبينت فيهما الحب والوداعة مع النباهة ولم تر فيهما شيئا من المكر . وكان قد علق بحب فلوروندا مذ كان ابوه على عرش اسبانيا وهو يومئذ ولي عهد المملكة لانه اكبر اخوته . وكانت فلوروندا تستبعد حصولها عليه يومئذ ، ولكن خالتها العجوز سعت لدى الملكة والدة الفونس قبل وفاتها بما لها من الدالة عليها بسبب القرابة التي بينهما ، فنجحت وتعلق الفونس بفلوروندا تعلقا شديدا ، وكان يتردد عليها كثيرا ، ويجالسها كل يوم تقريبا ، ثم انشغل عنها بعد وفاة والده بما انتابه من ضياع الآمال ؛ فضلا عن ان رودريك الملك الجديد وضع عليه العيون والارصاد ، فخاف المجيء اليها ، ولكنه كان يترقب الفرص لرؤيتها كما كان يسال عن احوالها حتى سمع بانتقالها من القصر القديم الى القصر الملاصق لقصر الملك وانها تقيم فيه وحدها ،

فهاجت فيه عوامل الغيرة ولم يعد يستطيع صبرا عن مقابلتها للتمتع برؤيتها واستطلاع فكرها ، فاذا رآها لا تزال على عهدها اسرع فى عقد قرانه بها ، لانه كان يظنها زهدت فيه بعد خروج الملك من يده .
واتفق احتفال اهل طليطلة بعيد الميلاد فى تلك الفترة ، وخرج الملك فى موكبه الى الكنيسة الكبرى والفونس فى جملة البطانة ، فخطر له وهو فى اثناء الطريق ان يتخلف عن الموكب خلسة ويمضي الى فلورندا ، اذ كان قد بلغه انحراف صحتها فرجح انها لا تخرج الى الصلاة فى ذلك اليوم ، فاختار المجيء فى القارب لئلا يراه احد فى اسواق المدينة .
وجاء معه فى القارب اثنان من خاصته ، فلما نزل الى البر ارسل احدهما لاستقدام فرسه حتى يعود عليه راكبا الى الموكب قبل خروج الملك من الصلاة ، واستبقى الآخر فى القارب لعله يحتاج اليه .
ولما وقع بصره على فلورندا لم يتمالك ان اسرع نحوها وهو يثب وثبا !

▭

اما هى فلما راته قادما بغتت وظهرت البغتة فى عينيها ، واسرعت دقات قلبها وارتعدت ركبتاها . وارادت ان تقف لملاقاته فلم تستطع من شدة التأثر ، واممتقع لونها وشخصت ببصرها اليه وهى لا تصدق انها تراه !. واما هو فلما دنا منها ولم تقف له ولا رحبت به تحقق عنده ما كان يظنه من زهدها فيه . وبعد ان كان مسرعا بلهفة المشتاق تباطأ ، وندم على مجيئه وتطفله . لكنه ما لبث ان راى العجوز تهرول اليه وهى تتعثر بطرف ثوبها حتى كادت تقع وهى تقول : « اهلا وسهلا بحبيب القلب الفونس » فاطمأن قلبه ، فمشى حتى اقترب من فلورندا فاذا هى لا تزال جالسة وقد التفت بالرداء ويداها مختبئتان فيه ، حتى اذا وقف بين يديها رفعت بصرها اليه بنظرة خرقت احشاءه ، وقرا فيها ما لو كتب على القرطاس لملأ عدة صفحات ! قرا فيها العتب والتعنيف ، وقرا الشوق والوجد . وقرا فيها الحب والغرام والاستعطاف والاستفهام . فلم يستطع جوابا على تلك المعانى الا بالجثو على ذلك البساط الاخضر وهو يقول بنغمة المحب الولهان : « السلام يافلورندا السلام ! » . ومد يده وأحنى راسه كانه يسالها احسانا فظلت هى شاخصة اليه ، ويداها لا تزالان مختبئتين فى ذلك الرداء ، ولبث الاثنان برهة وعيونهما تتخاطب وتتفاهم حتى غلب الدمع على فلورندا فغشي عينيها ، فحجب عنهما وجه الفونس فاخرجت يدها من الرداء لتمسح عينيها ، فسبقها الفونس الى استخراج منديله ومسحهما به ثم مسح به وجهه وتنشق

رائحته وتنهد تنهدا شديدا ؛ واعاد بعد فمدها الى فلوروندا فلم تمد يدها اليه ؛ ففهم انها تتعمد ذلك دلالا وعتبا فلم ينتظرها ، بل مد يده وقبض على يدها قبضة ارتعدت لها فرائص الاثنين كانما مسهما كهرباء قوية !

مضت فترة وهما يتخاطبان بالالحاظ ، ولهما من قراءة الافكار ما يغنيهما عن الالفاظ . وكانت العجوز تتشاغل عنهما بقطف بعض الازهار والاستتار بين الاغصان رفقا بعواطفهما واغضاء عما قد يبدو منهما في مثل هذه الحال . وظل الفونس ساكتا وقد عول على الصبر حتى تكون فلوروندا البادئة بالكلام ؛ فقضيا برهة واليد في اليد ؛ والعين على العين ، والقلبان يتسارعان كانهما يتفاهمان بالخفقان ، وقد غشى الاعين ماء لامع هو من اكبر دلائل الهيام !

ثم فتحت فلوروندا الحديث بنغمة الدلال والعتاب قالت : « ما الذي جاء بك يا الفونس ؟ »

قال : « لا ادري ما الذي جاء بي ياحبيبتي . فهل تعلمين انت ؟ اما الذي اعلمه فهو اني اسير هواك ، واني حي برضاك ميت بجفاك . حبيبتي فلوروندا : هل عندك مثل ما عندي ؟ نعم اعلم انك كنت تحبينني ، ولكن هل انت باقية على ذلك او على بعضه ، ام غيرك ما غير احوالنا واضاع آمالنا ؟ »

فادركت انه يشير الى خروج الملك من يده ، فسحبت انامله من بين انامله بلطف ، واظهرت انها تحول وجهها عنه ، ونظرها لا يزال ثابتا في نظره كانها تقول له : « اهذا هو مبلغ علمك بالحب وعواطف المحبين؟ » . ففهم الفونس مغزى تلك الاشارة فقال لها : « لم اكن اشك في صدق مودتك وقد امتزج قلبانا — ولكنني حسبت سوء حظي غيرك ، واني بعد ان خسرت أبي وملكي جرني سوء الطالع الى خسارة ماهوالثمن من ملك العالم كله ! » . قال ذلك وقد ابرقت عيناه وانبسطت اساريره ، وهو لايزال ينظر اليها ويتوقع ان يسمع قولها فعادت الى السكوت ، والتفت بردائها وحولت نظرها الى مجرى النهر واصغت الى صوت هديره ، فاستولى على الحديقة سكون لم يكن يتخلله الا خرير الماء وزقزقة العصافير ، فلما طال سكوتها بحث الفونس عن العجوز فاذا هي قادمة وفي يدها بعض الازهار فناداها وهو يقول : « تعالى ياخالة كلمي فلوروندا ، عساها ان تتعطف علي بكلمة ابرد بها لظى وجدي ! »

وكانت العجوز قد وصلت اليهما فقدمت الزهور الى فلورندا واجابت الفونس قائلة : « اذا كنت لا تفهم بلا كلام فما انت من أهل الغرام ! اتحتاج مع ما تراه في فلورندا الى ايضاح ؟ وهل تظن ما يليق بالنساء من التصريح يليق بالفتيات ايضا ؟ » . ثم التفتت الى فلورندا وقالت : « هذا هو الفونس : كلميه واسأليه . وقد سمعت منك شكا في محبته فهل رأيت صدق قولي في ثباته ؟ »

فرفعت فلورندا بصرها اليه وقد اخذ الهيام منها مأخذا عظيما حتى ظهر ذلك جليا فيما اعترى عينيها من الذبول واللمعان ، فشخصت ببصرها اليه برهة وهو يكاد يخطفها ببصره وقد نسي مصيبته في الملك وضياع حقه فيه . وهان عليه ان ترضى عنه فلورندا ولو خسر العالم بأسره ! وفيما هو غارق في تلك الهواجس سمعها تقول : « هل شككت في حبي يا الفونس ؟ »

قال : « نعم يا منيتي . والحب كثير الشكوك ! »

فاطرقت وهي تقول : « صدقت ان الحب كثير الشكوك . فقد خامرني مثل ما خامرك كما قالت خالتي . ولكن . . »

فقطع الفونس كلامها وقال : « لا أرى مسوغا لشكك في ، وانت تعلمين اني متفان في هواك . . واما انا فيحق لي ان ارتاب في بقائك على عهدي لما اصابني من نوائب الزمان . فقد كنت ولي عهد هذه المملكة فاصبحت مثل سائر رجالها »

فلما سمعت ذلك ابتدرته بالجواب قبل استيفاء كلامه قائلة : « لما احببتك يامنيتي احببت الفونس ولم احب ولي عهد مملكة القوط . ان الحب لايعتبر الرتب ولا المناصب ، والقلوب يا الفونس تتعاقد وتتحد ، وهي لاتبصر ولا تقيس ، ولا تكيل ولا تزن . وهي لاتتعارف بالتوصيات ولا تعرف المجاملات ، ولاتفرق بين الحقوق والواجبات . . القلب يا الفونس لايرى علامات الشرف ، ولايهوى التيجان ولا يخاف الصولجان . . القلب ياحبيبي لايهوى الا القلب ! »

قالت ذلك وقد توردت وجنتاها وبان الاهتمام في محياها ، ولطرقت وسكتت وفي ملامح فمها انها لم تستتم الكلام بعد . فلم يشأ الفونس ان يقطع سلسلة أفكارها فظل صامتا وهو ينظر اليها نظر المستزيد فلما رأته يتوقع كلامها قالت : « على اني آسفة لخروج هذا الامر من يدك . لا لأني أحب ان اكون ملكة ، ولكني . . » . قالت ذلك وغلب عليها الحياء والغضب معا ، فتزايد احمرار وجهها وقطبت اساريرها والتفتت نحو القصر كأنها تخاف رقيبا ، وسكتت . فاشتغل خاطر

الفونس ذلك السكوت وادرك بعض مرادها ، ولكنه تجاهل وقال لها : « ولكن ماذا يا فلورندا ياحبيبتي ؟ قولي ، افصحي ! »

قالت وهي تخفض صوتها : « ولكنني لولا هذا التبديل لم اكن اقاسي هذه المتاعب ! لم اكن لاجد نفسي بين انياب الاسد ، وملاكي الحارس بعيد عني ! » وخنقتها العبرات ولكنها استمرت في الكلام فقالت : « ولم يكن لهذا المختلس سبيل الى اقلاق راحتي ! »

فقطع الفونس كلامها وقد ظهرت عليه البغتة واتقدت الغيرة في قلبه وقال : « بماذا اقلق راحتك ؟ هل حاضك في شيء ؟ هل بدا لك منه سوء ؟ اخبريني ، قولي . . . »

قالت : « كلا لم يبد منه شيء ، ولكنني لا احسب نفسي في مأمن خصوصا بعد ان نقلني الى هذا القصر ولم افهم لهذا النقل معنى . ومن هنا كان بقاء الملك في بلدك ادعى الى سروري وسعادتي »

فادرك الفونس الامر الذي تعرض هي به مع ماتوخته من المبالغة في تلطيف العبارة ، وعلم انها تقرعه لتقاعده عن المطالبة بحقوقه . وكان لايزال الى تلك الساعة جاثيا بين يديها فلما سمع قولها احس كأنها صبت ماء غاليا على بدنه ، فوقف وقد غلب عليه الهيام وهان عليه كل شيء في سبيل ارضائها وقال : « يحق لك ان تعيريني يا فلورندا اذا كنت متقاعدا عن هذا الامر ، ولكن لكل اجل كتاب . وقد كنت امسكت عن زيارتك على الا ازورك الا بعد ان احقق رغائبك ، فطال سعيي ولم اصل الى المرغوب فلم اعد اطيق الصبر على بعدك . وقد كنت خائفا من فتورك ولكني رأيت فيك من الثبات في الحب ما زادني ثباتا في مسعاي . فاعلمي يا فلورندا ان ما ينوكأ عليه هذا المختلس من احزاب الروم عصابة ضعيفة ، وانما مكن الاساقفة من تنصيبه رغبة في خدمة رومية ، ثم ان احزاب المملكة ضده ، وفيهم القوط واليهود وكل من يكره الظلم . وليس هذا محل الافاضة في هذا الشأن ، ولكنني اقسم لك براس ابي وان كان مائتا . . ان رودريك هذا لا يلبث ان ينزل ويعود الملك الى اصحابه »

وكانت فلورندا تسمع كلامه وهي تنظر في وردة من ورود الشتاء كانت خالتها قد جاءتها بها ، فتشاغلت بنثر اوراقها وهي تصغى لما يقول الفونس . فلما بلغ الى قوله « ويعود الملك الى اصحابه » رمت ما بقي بين انامله من تلك الوردة ، ورفعت بصرها اليه كأنها تتثبت من قوله او تتفهم حقيقة مايريد ، ففهم مرادها فازداد تهورا في تصورد ، واوهمه غرامه انه قادر على كل شيء فمد يده ومس اطراف شعره

مسترسل على كتفيه وقال : « واذا كنت لاتثقين بقولي فاني اشهدك على نفسي واشهد هذه الحالة ايضا ان بقاء هذا الشعر حرام على ان لم اف بقولي »

فتحققت فلورندا انه يقسم صادقا ، ولكنها لم تكن تجهل ما يحول بينه وبين تلك الأمنية من العقبات ، فارادت ان تخفف من عهده فقالت : « لاحاجة بنا الى هذه الاقسام . لاتعرض نفسك للخطر من اجل الملك فانه مجد باطل . وانما المراد ان نكون معا في مأمن من اهل الاعتداء ، ولو في كوخ من اكواخ هؤلاء العبيد الذين يشتغلون في الحرث والزرع ! »

فاراد الفونس ان يجيبها فسمع صفيرا فبغت . والتفت فسمع قرع الطبول وقرقعة اللجم فعلم ان موكب الملك راجع من الكنيسة . وقد وصل الموكب الى القصر وهو لا يزال مستغرقا في حديثه مع فلورندا ، فندم وتحقق انه اخطأ ولابد من ان يسيء رودريك الظن به . ورأته فلورندا قد بغت وسمعت هي مثل ما سمع فادركت انه ابطأ عن الاحتفال فقالت له : « اذهب الآن بسلام وليكن الله معك . . » . فامسك يدها وودعها وهو يقول لها : « ادعي لي فانك من الملائكة ودعاؤك مستجاب واذكريني في صلاتك عساي ان اوفق لمرضاتك » . فاجابته باشارة من اهدابها وحاجبيها : فتحول نزولا نحو القارب ليبعد به عن الحديقة ثم يركب فرسه الى القصر من طريق آخر ، وظلت فلورندا واقفة وهي تشيعه ببصرها حتى توارى فعادت الى وصيفتها والعجوز بين يديها ، فرجعتا نحو القصر وفلورندا لا تتكلم لعظم ما قام في نفسها بعد ذلك الحديث ، وقد ندمت لتعريضها بامر الملك وخافت ان يجر ذلك الى حبيبها الاذى

اما رودريك فقد سار بموكبه الى الكنيسة في ذلك الصباح وفي نفسه شاغل من امر الفونس لانه كان يتوقع ان يراه في الموكب بين الحاشية ، وكانوا قد زينوا الكنيسة للملك زينة باهرة بالرياحين واضاءوا الشموع واوقدوا البخور حتى انتشرت رائحته فيما جاور الكنيسة . وكانت اصوات المرتلين والمصلين تسمع لمسافة بعيدة ، والناس يتزاحمون لمشاهدة موكبة الملك حتى كادوا يدوسون بعضهم بعضا ، والمطلون من الاسطح والنوافذ اكثر من المارين في الاسواق

ولما اقبل الملك بموكبه خرج الاساقفة لاستقباله وورائهم وبين ايديهم الشمامسة والرهبان يحملون المشاعل من الشمع ، وبعضهم يحمل الصليب او الكاس . وما الى ذلك من شارات النصرانية . فترجل

الملك عن بعد وترجل من كان معه . فكان اول من استقبل الملك رئيس الاساقفة محييا ، فانحنى الملك على يده وقبلها وقبل صليبا مرصعا كان فيها . ومشوا جميعا في فناء الكنيسة الخارجي والاساقفة ورجال الكهنوت امامهم حتى اقبلوا على واجهة الكنيسة من الغرب فاجتازوا مدخلها ، وهو بثالف من ثلاثة ابواب اوسطها اعظمها . عتبته العليا بشكل قنطرة مثلثة عليها نقوش محفورة تمثل الملائكة وبعض القديسين والانبياء . فمشى الملك وعلى راسه تاج من الذهب يشبه تاج الرومان وشعره مسترسل على كتفيه وظهره ، وشعر لحيته وشاربيه مسترسل الى صدره ، وكل اشراف المملكة بين يديه بالشعور المسترسلة والقبعات المتشابهة . والكل مبتهجون بما يشاهدونه من الزهو في ذلك العيد . وساروا في صحن الكنيسة بين اعمدة فخمة من الرخام النقي او المرمر . منصوبة في ثلاثة صفوف من الغرب الى الشرق يزيد عددها جميعا على ثمانين عمودا ، وعلو الكنيسة من صحنها الى اعلى قبتها ٤٦ مترا ، وطولها يزيد على مائة متر . وقد زادها فخامة في ذلك اليوم ما علقوه فيها من الثريات المضيئة بالشموع الملونة والقناديل المنارة بالزيت امام الصور ، وقد تصاعد البخور وعلت اصوات المرتلين يتخللها غوغاء الناس بالرغم عن سعي الكهنة في اسكاتهم

ما زال الملك ماشيا حتى استقر على كرسي خاص به بجانب الهيكل ، واستقر سائر حاشيته في مجالسهم وهم يرسمون علامة الصليب . اما الملك فكان يفعل مثل فعلهم وعيناه شائعتان في حاشيته من الجماهير كانه يفتش عن ضائع . وكان في كرسي عن يمينه قسيس كان يلازمه دائما فيقيم معه في قصره ، ويصلي له صلاة النوم وصلاة الصبح ، وهو الذي يعرفه ويرشده ويعزيه . وكان الملك لا يذهب في احتفال الا اصطحبه ، ولا يبرم امرا الا بمشورته . اسمه الاب « مرتين » ، وقد طعن في السن وشاب شعره ، ودق عظمه ، وتجعد جلد وجهه ، واستطالت اسرة جبهته ، وغارت عيناه وزادهما ارسال شعر حاجبيه فوقهما غورا واختفاء . وقد تساقطت اسنانه وانخفضت شفتاه حتى اصبح فمه واديا بين جبلين . وكان في شبابه وكهولته سريع الكلام فلما سار اهتم خالط كلامه غمغمة تتعب السامع في تفهم ما يقول ، ثم هو قصير القامة منحنيها مثل قامة الشبان . شديد التعلق بكرسي رومية لانه ربي فيها فشب روماني المبدأ والغرض ، ولم يكن يحب جنس القوط على الاطلاق . وكان يحقد على « غيطشة » واولاده

بنوع خاص ، لان غيطشة كان يكرهه لشدة تعصبه لرومية . فكان لذلك من اكبر المساعدين على تحبيب رودريك ، وكان رودريك لا يقطع امرا الا بمشورته . وكان في جملة مشوراته ان يضيق على الفونس ولا يسمح بغيابه عن القصر ، وان يكون دائما بين يديه خوفا من ان ينشىء الاحزاب المطالبة بالملك

فلما وصل الملك الى الكنيسة في ذلك اليوم كان اول شيء تنبه اليه « مرتين » ان الفونس لم يكن في جملة فرسان الموكب . فتفرس الملك فيمن حوله فلم يجده بينهم فانشغل خاطره . ولكنه ما لبث ان شغل عن ذلك برسوم الصلاة وما تقتضيه من الانتباه لحركات الكهنة في اثناء القداس ، على انه كان يعود برهة بعد اخرى الى البحث عن الفونس خلسة

— ٢ —

انقضت الصلاة وخرج الملك الى موكبه ، وعاد الى البحث عن الفونس فلم يجده . فركب ودعا الاب مرتين للركوب معه فقضيا مسافة الطريق يتساءلان في سبب تغيب الفونس ذلك اليوم . فلما دنا الموكب من القصر راى الاب مرتين الفونس مقبلا من ناحيته ، مسرعا على جواده ، وكان عالما بعلاقته بفلورندا فادرك انها هي سبب تغيبه . ولكنه اقتصر على تنبيه الملك الى قدومه

ولما وصل الملك الى قصره ترجل عند الباب الكبير وصعد بضع درجات عريضة من الرخام تؤدي الى فناء القصر ، ثم الى باحة قائمة على اساطين تستطرق الى بهو متفرع يؤدي الى اجزاء القصر المختلفة وفي جملتها قاعة المجلس . فدخل الملك وحبيبه من طريق خاص يؤدي الى تلك القاعة . ودخل رجال الدولة وبهم وفود المهنئين من الطريق العام ، فجلس الملك على عرش مرتفع من الفضة قوائمه شكل قوائم الاسد والملك في الملابس الرسمية وعلى كتفه بردة من الديباج موشاة بالذهب ، وعلى راسه تاج من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة وفي يده صولجان من الذهب ايضا ينتهي بصليب مرصع

وكان رودريك في نحو الاربعين من العمر ، ممتلىء الجسم ، بارز الصدر والبطن ، قوي البدن ، تلوح في وجهه امارات البسالة ، عيناه جاحظتان كبيرتان ، وحاجباه غليظان وشعر شاربيه طويل يزيد على طول شعر لحيته وراسه ، فجلس على عرشه وفوق العرش صورة كبيرة

تمثل السيد المسيح مصلوبا . وعلى جدران القاعة صور دينية عديدة وجلس بجانبه الاب مرتين ، وبين يديه رجال خاصته ؛ ثم توافد الناس لتقديم التهاني وفي جملتهم الفونس الذي دخل وحيى الملك وهناه كما فعل الآخرون ، وجلس في جملة الجالسين ، فلما هموا بالانصراف اراد ان ينصرف مثلهم فاشار اليه رودريك ان يبقى . فاوجس خيفة من ذلك الاستبقاء ولكنه صبر ، حتى اذا خلا المجلس ولم يبق في القاعة غير الملك والقسيس ناداه الملك فوقف بين يديه فقال له : « ما الذي اخرك عن مرافقة الموكب في هذا الصباح يا الفونس ؟ »

فبغت الفونس ولم يكن مستعدا للجواب . لانه لم يكن يظن الملك يهتم لغيابه هذا الاهتمام ولكنه تجلد واجاب : « كنت في شاغل عاقني عن القيام بفروض الصلاة بين يدي جلالة الملك »

قال الملك : « من الغريب ان يعوقك هذا الشاغل في تذكار عيد الميلاد ، وفي ساعة خروج الموكب . . ! » . قال ذلك ، وحول نظره الى صورة في الحائط تمثل مريم العذراء تحمل طفلها وتشاغل بتمسيط طرف لحيته بانامله ، فقال الفونس : « نعم انه اتفاق غريب ، ولكنه وقع ولا حيلة في وقوعه ، واني اتأسف لذلك »

وكان الاب مرتين في اثناء ذلك مشتغلا بتلاوة بعض الصلوات امام صورة مريم العذراء بصوت منخفض لايسمعه أحد ، ولما فرغ من صلاته عاد وزمل برادئه واصلح قلنسوته ، وجلس بجانب الملك واصغى لما يدور بينهما . فلما رآه الفونس مهتما بالامر اختلج قلبه لعلمه بما يحمله له من ضغينه . اما الملك فلما سمع الاعتذار لم يقبله ، ولكنه رأى من الحكمة ان يؤجل مناقشته الى ان يقف على رأي القسيس فاراد ان يصرفه ، ولكنه سمع القسيس يقول له : - يظهر ان اشتغالك كان في قصر جلالة الملك ، او بجوار قصره » . قال ذلك وتنحنح وتشاغل بمسح فمه بمنديله . فراد استياء الفونس منه ولكنه خاف اذا اجابه ان يصرح بشيء آخر

واما الملك فانه توسم في عبارة القسيس شيئا كان يتردد في ذهنه فاراد ان يقف عليه منه على حدة . فلم يصبر على الفونس حتى يجيبه بل التفت اليه لفتة الاستخفاف والتهديد والاغضاء معا وقال : « انصرف الآن يا بني ، واحترس ان تفعل ذلك مرة اخرى »

فاحس الفونس عند ذلك بفرح سكن له جأشه ، وكان ثقلا كبيرا زال عن صدره فتحول نحو الباب ، وخرج وهو لا يكاد يرى شيئا

امامه لعظم ما قام فى نفسه من اسباب القلق . ولم يكد يخرج من باب القصر حتى انتبه لنفسه ؛ وتمثل له مركزه وما آل اليه أمره بعد خروج الملك من يده . فقد كان على عهد ابيه اذا مر من هناك تسابق الناس الى تحيته . ولا يبقى احد لا يقف له . وها هو ذا اليوم يمر والناس يتزاحمون فى فناء القصر فلا ينتبه له احد الا الاصدقاء .. حتى هؤلاء اصبحوا يحاذرون الجهر بصداقته خوفا من ان يسيء الملك ظنه بهم !

خرج الفونس وقد هبت فى نفسه عوامل الغيرة ، وكانت الفاظ فلورندا لا تزال ترن فى اذنيه فتذكر وعده اياها باستعادة الملك فزاده غيظه منه تمسكا بوعده . فركب جواده وسار توا الى منزله وهو غارق فى بحار الهواجس ،قد هان عليه ركوب المخاطر فى سبيل الانتقام لوالده.واسترضاء فلورندا

▭

اما رودريك فلما خرج الفونس من مجلسه تظاهر برغبته فى الاستراحة ، فدخل غرفته الخاصة حيث جاء بعض رجال القصر فنزعوا لباسه الرسمي والبسوه ثيابه الاعتيادية . وهو لا يخاطب احدا منهم فى شيء لاشتغال خاطره بالعبارة التى سمعها من الاب مرتين عن الفونس والقصر ! فلما فرغ من لبس الثياب دعا الأب للغداء معه فجاء ، وبينما هما على المائدة لم يخاطبه الملك فى شيء لوجود الملكة معهما وهو يحب ان يبعد امثال هذه الامور عن ذهنها حتى لا تنتابها الغيرة ، فلما فرغوا من الطعام قال الملك : « يا أبتاه اطلب اليك بعد ختام المائدة بالصلاة ان ترافقنى الى غرفتى ... » ولم تكن هذه الدعوة غريبة على الملكة لان زوجها كثيرا ما كان يخلو بالاب مرتين مثل هذه الخلوة ، للمخابرة أو المشاورة او الاعتراف او غير ذلك . فلما خلوا فى الغرفة قال رودريك : « ما قولك فى صاحبنا اليوم ..؟ »

قال : « اذا كنت تعنى الفونس فأرى ان جلالة الملك قد بالغ فى الحلم والرأفة فى معاملته .. كيف يتغيب عن موكب جلالتك لأعذار ما انزل الله بها من سلطان؟ » . قال ذلك فى عجلة ، وبنغمة الاستغراب ، بغية التأثير فى الملك . ولو لم يكن رودريك قد الف لهجته وتمتمته لما فهم منها شيئا !

قال الملك : « ولكني سمعتك تشير الى عذره اشارة لم افهمها جيدا ! »

فادرك الاب ان الملك يحتال في استطلاع ما بين الفونس وفلورندا وهو يتجاهل ويتظاهر بانه يسأل سؤالا بسيطا . فساير الاب على فكره واجابه بنغمة البساطة قائلا : « لم اقل شيئا ، وانما قلت انه تأخر في القصر . . »

قال : « واي قصر ؟ ! »

قال : « واي قصر ! . . قصر جلالة الملك . . كأن مولاي لا يعلم علاقته بذلك القصر . . ! »

قال وهو يبالغ في التجاهل : « لا اعلم ان له علاقة بهذا القصر بعد ان خرج الملك من ايديهم الى يدي . . ! »

قال : « لا اعني علاقته بالملك . . بل اعني علاقته بفلورندا ابنة الكونت جوليان ، التي امر جلالة الملك بنقلها الى القصر الصغير منذ بضعة ايام . . . »

فلما ذكر اسم فلورندا زفر الملك وخفق قلبه حبا وغيرة . ولكن انفة الملك ثبتت عزيمته فتجلد كأن الامر لا يهمه ، وقال : « اهي علاقة قرابة ؟ . . ام ماذا ؟ . . »

قال : « لا يخفى على جلالة الملك ان بين الكونت جوليان والد فلورندا وبين غيطشه قرابة اظنها نسائية . ولكني اعني قرابة الفونس من فلورندا بنوع خاص . . . »

قال : « اي قرابة ! . . »

فضحك مرتين وقال : « كنت احسب الملك عارفا بذلك . لان خطبتهما مشهورة من قبل تولي جلالتكم عرش اسبانيا . . »

فلما سمع رودريك ذلك عظم عليه الامر . لانه كان يحب فلورندا كثيرا ولم يكن يعلم بهذه الخطبة . . ولكنه لم يكن يخاف خروجها من يده اعتمادا على ما له من السيطرة عليها وعلى خطيبها . وعول على أن يطمعها بالمال والسلطان ، او يتهددها حتى تترك الفونس وتعيش معه . ولم يشأ ان يطلع القسيس على ما يجول بفكره . فتظاهر باقتناعه بهذا الجواب ووقف . فادرك القسيس ان الملك يريد الانصراف فوقف هو ايضا وانسحب . . .

وكان بين غرفة الملك والقصر الذي تقيم فيه فلورندا ممر ليس من سبيل اليه سواه . فقد بني على هذه الكيفية لمثل هذه الغاية ، فعول رودريك على مكاشفتها بحبه لعلها تقلع عن محبة الفونس ؛ ولم

ير ان يستقدمها الى غرفته لئلا تشعر الملكة بذلك وهو انما ينوى معاشرتها خفية عنها ، فاغلق الباب المستطرق الى قصره وفتح الباب المؤدى الى قصر فلوروندا . . .

وكانت فلوروندا بعد ذهاب حبيبها قد انتقلت هي والعجوز من الحديقة الى القصر واخذ الهيام منها ماخذا عظيما . ولكنها لم تلبث ان انشغلت بمراجعة ما دار بينهما وبين الفونس فى ذلك الاجتماع فندمت لما فرط من اقوالها المهيجة له على طلب الملك . وعمدت الى الخلوة بنفسها لعلها تهتدى الى ما يخفف هواجسها ، فدخلت غرفتها وكانت تلك الغرفة تطل على الحديقة من جهة نهر التاج وتحجبها عنه شجرة من شجر اللوز قد تعاظمت اغصانها وتشابكت ، حتى اصبحت فلوروندا اذا جلست الى نافذتها لا ترى النهر الا من خلال الاغصان التى كانت قد تجردت فى ذلك الفصل من اوراقها . فما كادت ترسل نظرها خلالها الى النهر وما وراءه حتى رات القارب قد بعد عن المكان فأرسلت افكارها فى فضاء الهواجس

اما العجوز فانها تحولت الى ايقونة بجانب سرير فلوروندا فيها صورة المسيح مصلوبا فجثت امامها وقبلتها وجعلت تقرع صدرها وتطلب الى المسيح أن يحفظ الفونس ويوفقه ، ويتم له الزواج بفلوروندا . ولما فرغت من صلاتها قبلت الصورة وخرجت ، تاركة فلوروندا فى هواجسها . واغلقت الباب وراءها ، واوصت الخدم الا يقربوا الغرفة لئلا يزعجوها . على ان الخدم لم يكن يؤذن لهم بالصعود الى الطبقة العليا من ذلك القصر ، بل كانوا يقيمون فى الطبقة السفلى ، فاذا ارادت فلوروندا حاجة بعثت اليهم مع العجوز

واستغرقت فلوروندا فى هواجسها امام النافذة حتى نسيت نفسها وتعبت من التفكير ، ثم احست بالنعاس فاتكأت على سريرها وهى لا تزال فى الحالة التى قابلت بها الفونس . فرأته فى منامها قادما نحوها ووجهه يطفح نورا واحبت ان تقبله فلم تستطع . فانزعجت ، وافاقت وهى منقبضة النفس . وبينما هى تمسح عينيها لتتحقق انها فى المنام سمعت وقع خطوات ، فنظرت فاذا بالعجوز داخلة من الباب وفى وجهها علائم الخوف . فجلست فلوروندا وقد بغتت وقالت : « ما بالك ياخالة ! ما وراءك ؟ »

قالت : « ما ورائى الا الخير . . لاتضطربى ! » وسكتت

فازداد قلق فلورندا وصاحت بها : « ماذا جرى هل اصاب الفونس سوء ؟ ! »

قالت : « معاذ الله . . ولكن الملك يدعوك اليه »

فلما سمعت ذلك ،اضطربت جوارحها ، ونسيت هواجسها ، وتشاءمت من تلك الدعوة وقالت : « اين هو ؟ وما الذي يبغيه مني؟ »

قالت : « لا ادرى يا سيدتي . ولكني كنت في غرفتي اصلح بعض شاني فرايت الملك بنفسه داخلا دخول السارق فهمت لرؤيته ، فسألني عنك وطلب الى ان ادعوك الى الغرفة الشمالية من هذا القصر ، على ان تأتي حالا بالحالة التي تكونين فيها ! »

فوثبت فلورندا من فراشها وقد تحققت وقوع الخطر الذي كانت تخافه . ولكنها اعتمدت على الله ونبست جالسها ودنت من الايقونة فقبلتها ، وصلت الى الله ان يشجعها وينقذها من مخالب الشرير ، وطلبت الى خالتها ان تصلي عنها ايضا ، ثم التفت بالرداء كما كانت ومشت وهي تتوسل الى الله من اعماق قلبها ان ينجيها من هذه التجربة - ولا يرتاح المرء في مثل هذه الحالة الا بالتوسل الى القوى العلوية غير المنظورة !

مشت فلورندا كالذاهب الى القتل ! فلا عرو اذا اصطكت ركبتاها وارتعدت مفاصلها وودت ان تكون تلك الغرفة على مسافة أميال منها . . على انها تشجعت باتكالها على الله حتى اذا دنت من الغرفة سمعت وقع خطوات ، واذا بالملك قد خرج لاستقبالها الى الباب وهو يبتسم لها ويرحب بها . وقد خيل له ان ابتسامته ستجعلها طوع ارادته ، وانه يكفي ان يظهر ارتياحه لمجالستها لتتفانى هي في ارضائه !

اما هي فدخلت الغرفة بخطوات ثابتة - والانفة والعفة يتسابقان الى قلبها ، والغضب والخوف يتجلبان في وجهها - وهو يسير بين يديها حتى جلس على المقعد ودعاها للجلوس الى جانبه ، فقالت وامارات الحشمة والرزانة بادية في محياها : « لا يليق بي ان اجلس في حضرة الملك »

فقال وهو يضحك : « اجلسي يا فلورندا ، فاني لم ادعك الى لاحملك مشاق التجمل ولكني اردت ان الاقيك وانت في راحة وسعادة . اجلسي »

قالت : « العفو يا مولاي . . . »

فقطع كلامها وامسك بيدها واجلسها ، فاحست لما لمست يدها يده كان شيطانا يلمسها ، فاجفلت ، وجذبت يدها من يده ، وجلست

وهي تحاذر أن يلمس ثوبها ثوبه . فأخبر رودريك بأجفان يده
وكان قد شعر بلمس تلك اليد عكس ما شعرت هي به . فشق عليه
صدها عن معرفتها ولكنه حسبه منها محض الحياء، فابتسم وقال : « لا ألومك
يا فلوريندا لما يبدو في وجهك من الدهشة اذ تقفين لأول مرة بين يدي
ملك الإسبان . ولكن اعلمي يا مليكة الحسن اني لم آت اليك بنفسي إلا
لأدعوك إلى السعادة . ولا أريد أن تخاطبيني كما تخاطبين الملك . بل
خاطبيني كما تخاطبين رجلا يحبك ويهواك . ويريد أن يجعلك أسعد
امرأة في هذا العالم ! »

فلما سمعت فلوريندا قوله تحققت قصده . ولكنها أحبت التخلص
منه بالحسنى فوقفت وهي تقول : « حاشا لمثلي أن تكون غير خادمة
حقيرة بين يدي ملك الإسبان الذي يحسن الناس سعادة بعطفه . . ! »

فقطع كلامها وقال : « وما تنفع أن تكوني خادمتي أيضا ؟ بل أن
تكوني مولاتي ومالكة زمامي وزمام مملكتي ! » . قال ذلك وقد ثارت
عواطفه واحمرت شفتاه ورجفت شفتاه وهو يحاول التلطف بالكلام
والاشارات . ولكن الخشونة ما زالت غالبة على لفظه وخلقه !

فقالت : « كلا يا مولاي لا تنكر أن أكون كذلك . وأرى جلالة الملك
قد فرط فيما وضع الله في رتبته فإن هذا الموقف لا يليق علي ! »

فعلم أنها لا تصدق عطفه ومحبته لها . وأنها تخاف أن يكون عاملا على
خداعها . فوقف هو أيضا وقال : « يظهر لي أنك لا تصدقين قولي .
ويحق لك أن تستغربي ما يبدو من تعرضي . . ولكني أعترف لك
يا فلوريندا أنك قد ملكت نفسي وروحي . وتسلطت على كل جوارحي .
فمصيري [illegible] بالموت »

قال ذلك وهو ينظر إليها وقد انحنى نحوها انحناء المتدلل
المستعطف وشفتاه ترتجفان من شدة الهياج . . أما هي
فلم تعبأ بهذه الظواهر الخادعة فتمالكت هدوءها وثبات جأشها وقالت
بصوت عادي : « أتعني ماذا ؟! »

فدنا منها من سؤالها وقرب فمها فقال : « أن تكوني شريكة حياتي
تعيشين معي عيش السعادة والرغد . وتكونين أنت الأميرة الناهية »

فنظرت إليه نظر التوبيخ والاحتقار وقالت : « وجلالة الملكة ؟! »

وكانت تلك العبارة أشد وقعا من الصاعقة على رأسه ولم يكن
يتوقع تلك الأنفة من فلوريندا . لأنه لم يكن يعرف قيمة العفة ولا يدرك
قيمة الحرية الشخصية . ولذلك كان يظن نفسه اذا ابتسم لفلوريندا
ابتسامة ترامت عند قدميه وسلمت نفسها له . وقد فاته أن أمثاله

اثمن مما في خزائن الملوك ، واسمى مما على عروشهم ، وارقى مما تبلغ اليه مدنيتهم . بل هي سيف قاطع تقف به الفتاة امام الملوك وتحسب انها أقوى منهم سلطانا واعز شأنا ! ولذلك كان موقف فلوروندا بين يدي رودريك موقف الملك امام الملك . ولم يكن تواضعها في أول الامر الا رغبة في التخلص بالحسنى . فلما رأت استرساله في القول اجابته بكلمة اضطربت لها كل جوارحه . كلمة ذكرته ارتباطه بزوجه الرباط المقدس الذي لا يجيز له مخاصمة سواها عند ذلك ...

فساءه أن تخجله بتلك العبارة لما تتضمنه من التوبيخ والتعنيف ، ولكنه تجاهل مرادها وظل على اسلوبه بالملاطفة فقال : « يا للعجب من جهالتك وغرورك .. ! ادعوك الى السعادة والشرف ، وامهد لك الطريق اليهما وانت تقيمين العقبات !! الا تعلمين يا فلوروندا ان الامر الذي ادعوك اليه ليس في هذه المملكة ولا في غيرها فتاة الا وتنفق النذور للحصول عليه !! تعقلي ، وارجعي الى رشدك ، واعلمي انك ترفضين سعادة لاينالها الا القليلات ، وشرفا تتطاول اليه اعناق ربات الجمال ! وهل تجهلين انك اذا اطعتني نالني عز لم يحلم به احد من اهلك . وانك اذا ظللت على عنادك اسأت الى ابيك . لانني اذا رأيت منك الرضاء بما عرضته عليك جعلته واهلك من اقرب المقربين من البلاط !! »

فلما سمعت قوله لم تصبر عن الغضب واحست بسلطان لها يفوق سلطانه فخاطبته بما لايخاطب به الملوك وقالت وهي تشير باصبعها الى نفسها : « ترعم يا رودريك انك تدعوني الى السعادة والشرف ، وانك انما تدعوني الى الشقاء والدناءة ! انك بمخاطبتك اياي بهذا القول ولو تلميحا قد اهنتني واحتقرتني . بل انك بوعدك بولي ما تعرضه جعلتني ادنى خلق الله ! .. فاقلع عن ذلك ودعني وشأني ، فانك صاحب عز وسلطان ، ولك الرقاب والاموال . واما انا فليس لي الا هذه الجوهرة .. افتسلبني اياها .. ؟ وهل تظن انك اذا اردت ذلك تستطيعه ؟! » . وارتعشت يدها وارتجفت شفتاها وابيضتا من شدة التأثر فاستطردت قائلة : « كلا لايستطيع احد ان يسلبني هذه الجوهرة . فانها اثمن من خزائن العالم بأسره .. وهي سلاحي وترسي ودرعي . وهي سبيلي الى السعادة الابدية ! »

عظم على الملك ما سمعه من توبيخها حتى وقفت لجته في صدره ، ولكن هيبة الحق وسلطان العقل غلبا على غضبه فلم يجسر على اهانتها .

على انه لم يقطع الامل في قبولها فاراد مطاولتها بان يخلط الجد بالهزل فقال : « وهل ذلك الغلام أحق بك مني ؟ »

فلم يزدها قوله الا عزيمة وثباتا . وقد ادركت أنه يريد الحط من قدر الفونس فقالت : « مهما يكن من أمره فانه نصيبي في هذا العالم ، وهو خطيبي بشرع الله »

فازداد استغرابا لجسارتها وحدثته نفسه ان يجافيها ويستخدم القسوة في معاملتها . ولكنه اجل ذلك الى فراغ جعبة حيله من اقناعها بالملاطفة فقال لها : « يظهر يا فلورندا ان صغر سنك لا يزال غالبا على عقلك . ولولا ذلك لم تفضلي غلاما لاشأن له ولا مقام على ملك ملوك الاسبان ! ولكنني اعذرك على طيشك . وابيح لك التفكير في أمرك حتى ترجعي الى صوابك . ولا ترفضي النعمة التي ابذلها لك . . فلا يصبحي هذه الفرصة بما تتمسكين به من الاوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة . . وهذا آخر ما أبذله لك من النصيحة . . فتدبري امرك »

فلما رات ان التوبيخ لم يجد معه نفعا عمدت الى اقناعه بنفس برهانه فسكنت اضطرابها وقالت بنغمة التعقل والرزانة : « يقول جلالة الملك اني اتمسك بالاوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة : فما قوله اذا علم ان جلالة الملكة تراود شابا عن نفسه ، وتطلب اليه ان يعيش معها ويكون شريك حياتها . . ! ؟ »

فلما سمع رودريك قوة حجتها مع ما في ذلك البرهان من التحقير له هاج غضبه . ولاح له أن يستخدم العنف في اقناعها ، وهم أن يأمر بالقبض عليها وتعذيبها لعلها ترعوى عن تمسكها بالفونس : لانه ظنها لم ترفض الا لاغترارها به وتوهمها فيه القوة او الثروة ، وما زال يعتقد انها اذا تحققت فقر الفونس وضعفه تتركه وتطلب الكفة الراجحة . فلا ترى أفضل لها من ملك الاسبان . . وانما توهم رودريك ذلك لانه لا يفهم معنى الحب الطاهر ولا يدرك منزلة العفة الحقيقية . وما درى أن القلبين اذا تعاقدا كانت السعادة كلها في تعاقدهما دون أن يكون للغني او الشرف دخل في ذلك ، وتوهم ايضا انه اذا حقر الفونس في عيني فلورندا يزهدها فيه فجاءها من هذا الباب وسكت عما سأله عنه من حيث امرأته فقال : « الا تعلمين يا فلورندا ان الفونس من بعض اتباعي ، وان زمامه في يدي افعل به ما شئت ؟ ! يظهر انك لا تعلمين ذلك . . ولعلك لا تزالين على ما كنت تعلمينه قبل خروج الملك من بلده . . . !

لم يكن ذلك الطعن في الفونس الا ليزيدها تمسكا به وتعلقا في محبته . ولكنها خافت اذا اجابته جوابا عنيفا ان يغضب عليه ويعمل على ايذائه . فاحبت ان تقنعه باللطف لعلها تخفف من غضبه ، ريثما يفتح الله عليها بالفرج فقالت : « اذا صح ان الانسان لا يجب ان يحب غير الذي يكسبه مالا او شرفا ، فما الذي حبب جلالة الملك في هذه الفتاة الحقيرة حتى اراد ان يجعلها سيدة اهل عصرها كافة ؟ واذا كانت القاعدة ان نهمل الفقراء والا نحبهم فما اجدر مولاي الملك بان يرذلني ويطردني من حضرته لاني لا اعد شيئا بجانب سلطانه ورفعة مقامه !.. فارجو مولاي ان يفعل ذلك فانه اولى بمنصبه واحفظ لكرامته .. » قالت ذلك وقد توردت وجنتاها من عظم تأثرها وهياج عواطفها واصطكت ركبتاها حتى لم تعد تستطيع الوقوف ، ولكنها تجلدت وتشاغلت بملاعبة اطراف جدائلها بين اناملها ولبثت تنتظر جواب رودريك الذي تبين رباطة جأشها وقوة حجتها فرأى ان يأتيها بالحيلة ويترك العنف الى ما بعد فراغه من الحيل .. ذلك انه لما آنس تمسكها بالفونس وتعلقها به تبادر الى ذهنه ان ابعاده عنها يغيرها ويحملها على قبول سواه . فتظاهر بامر طرأ على خاطره بغتة فقال : « لا ازال اعتقد اغترارك بالوهم ، وقد طرأ على امر يستعجلني الى القصر الآن وما ذاك الا من حسن حظك ، لاني اترك لك بذلك فرصة تعملين الفكرة فيها لعلك ترجعين الى رشدك . فاذا لم ترجعي بعد هذه الفرصة فلا تلومي الا نفسك ! » . قال ذلك بلهجة شديدة ومشى حتى خرج من الغرفة وترك فلورندا وحدها

اما هي فقد سرها هذا التأجيل لعلها تجد سبيلا للنجاة . فمشت نحو غرفتها وقد فاضت اشجانها وعاد اليها الخوف وتزايد اضطرابها ، فلقيتها العجوز بباب الغرفة فابتدرتها بالسؤال عما جرى فلم تجبها ولكنها ظلت سائرة حتى اقبلت على ايقونة المسيح فجثت امامها ورفعت صدرها وقد خنقتها العبرات ، وتحول تجلدها ورباطة جأشها بين يدي رودريك الى الحزن والكآبة ولم تر لها فرجا بغير البكاء فجعلت تتضرع الى صاحب تلك الايقونة بدموع حارة ، وبعبارات صادرة عن قلب طاهر يتدفق محبة وتقوى

فلما رأتها العجوز جاثية جثت الى جانبها وصلت معها وكلما قالت فلورندا عبارة امنت العجوز لها . وكان في جملة صلاتها قولها : « ابعد عني ايها المخلص هذه التجربة ، وغير قلب هذا الملك ليرجع الى طاعتك ويشعر بفظاعة الامر الذي هو عازم على ارتكابه .. ارشدني يارب الى

سبيل انجو به من هذه الاشراك .. واحفظ عبدك القونس من كل شر ، واحرسه ، وكن معه .. واجمعنا ايها المخلص لنعيش معاً بتقوى الله ومرضاته .. تحنن على هذه المسكينة الغريبة .. هذه الفتاة التعسة التي ليس لها ملجأ سواك .. انت ملجأ البائسين والضعفاء .. لا تسمح يارب بوقوع هذا الشر في تذكار ميلادك المجيد .. »

وكانت كلما قالت عبارة تفرغ صدرها وحالتها تقول : « آمين » وهما تذرفان الدموع السخينة . فلما فرغتا من الصلاة نهضتا ، واحست فلورندا بانبساط نفسها وارتياح ضميرها ، وشعرت كأن الاخطار قد زالت عنها وقد القت متاعبها عند الله .. ومثل هذه الراحة لا يشعر بها غير اهل الايمان الوطيد . فان احدهم اذا احدقت به مصائب العالم تحملها بالصبر ، واذهب آثارها بالصلاة ، والبكاء من اقوى مذهبات الانقباض . فكثيرا ما يشعر الانسان بضيق فاذا بكى زال ذلك الضيق . ويغلب هذا الشعور في النساء اكثر مما في الرجال

فلما زال اضطراب فلورندا جلست تفكر في سبيل نجاتها واستغرقت في الافكار والمحور حالة القرفصاء تنظر ما يبدو منها

- ٣ -

فلنترك فلورندا وتأملاتها ولنرجع الى القونس ، لنرى ماكان من امره بعد ذهابه الى منزله ، ولم يكن منزله بعيدا عن قصر الملك . فلما وصل اليه ترجل وسلم الجواد الى بعض اتباعه وهم بالدخول ، فأحس بمن استوقفه فوقف خطة ثم رجع حتى اتى غرفته ، فرأى خادمه الخاص واقفا ببابها ينتظر قدومه ليسمع اوامره الى من يريد

وكان ذلك الخادم كهلا قصير القامة ، جاحظ العينين ، اعقف الانف ، بارز الذقن ، ذا لحية قصيرة منفصلة الى قسمين مخروطي الشكل ، بارزتين نحو الامام ، دب الشيب في طرفيهما ولا يزال اسفل اللحية عند الذقن اسود او هو كستنائي اللون .. وكان اسمه يعقوب . ولم يكن له عناية بتسريح شعره فكان الاهمال ظاهرا في لحيته حتى لقد تحسبها جذاذة صوف تلبد صوفها وتشبك ثم نبشت اطرافها ! على ان وجه الرجل كان على الاجمال مضحكا لبروز الانف وجحوظ العينين وبروز اللحية على تلك الصورة . وكان مع ذلك كثير الحركة خفيف الروح لا ينفك وجهه ضاحكا . وكان قد ربي في بيت غيطشة قبل تملكه ، فلما ملك قربه منه وكان يثق به ويعهد اليه بأموره ويسر

اليه كثيرا من آرائه ، واهل القصر يحسدونه على ذلك القرب خصوصا لانه غير قوطى ، لم يكونوا يعرفون اصله ولا كيفية وصوله الى ذلك المنصب ! حتى اذا ما دنا اجل غيطشة اوصى اولاده به واوصاه بهم ، خصوصا الفونس ، فقد اوصاه بالاعتماد على يعقوب فى كل مهماته . وكان الفونس قد تعود احترامه والوثوق به من عهد والده ويعقوب يتفانى فى خدمته . وقد لايظهر لمن يراه لاول وهلة انه ذو رأى او همة لما يبدو فى وجهه من ملامح المجون مع خفة الروح ، ولكنه كان فى مقام الجد من اكثر الناس جدا وهمة !

فلما وصل الفونس الى غرفته استقبله يعقوب ضاحكا وفتح له الباب فدخل دون ان يكلمه على خلاف عادته من ممازحته ومداعبته ، فادرك يعقوب انه فى شاغل مهم موقف لا يخاطبه فى شيء لئلا يعترض مجارى افكاره او يثقل كلامه عليه .. اما الفونس فاول شيء فعله عند دخوله الغرفة ان خلع قبعته عن راسه ، ونزع سيفه وعلقه على الحائط ، وجلس على كرسي من الخشب بجانب نافذة تطل على مغارس طليطلة عن بعد ، وارسل بصره فى ذلك الفضاء وما زال النهار صاحيا والجو صافيا .. لبث برهة لايتكلم ثم التفت بغتة وصاح : « يعقوب ! » فاذا هو بين يديه . فقال له : « هل جاء عمى الى هنا فى اثناء غيابى .. ؟ »

قال : « كلا يا مولاى انه لم يأت .. الم تجده فى الكنيسة .. ؟ »

فتذكر الفونس الصلاة فتبادر الى ذهنه ان عمه كان فى جملة المصلين لانه مطران (متروبوليت) ولكنه عاد فتذكر انه بالنظر لما بين عائلته وبين عائلة الملك من التباعد سار للصلاة فى كنيسة اخرى . فقال ليعقوب : « أتظنه سار الى الكنيسة ؟ ولماذا لم تذهب انت للصلاة ايضا .. ؟ »

قال : « كنت مشتغلا بامور البيت .. وقدصليت هنا .. الا يكفى ذلك ؟ .. »

قال الفونس وكانه تذكر امرا كان قد ذهب عن خاطره : « سامحنى فانى نسيت وصية والدى الا اسالك عن الصلاة .. ما رأيك فى عمى المطران ؟ انى فى حاجة اليه » . قال : « مر ، وانا استقدمه على عجل ولو كان فى رومية ! » . قال ذلك وتبسم فأدرك الفونس انه يلمح الى ما بينهم وبين رومية من التنافر . فاستحسن منه هذا المجون وقال له : « لا اظنه بعيدا بهذا المقدار .. ائتنى به »

فخرج يعقوب الى غرفة الخدم فبعث خادما يفتش عن المطران فى الكنيسة وآخر يفتش عنه فى بيته ، وثالثا فى مكان آخر من مظانه ،

ورجع وهو فى شاغل من امر الفونس ولكنه لم يتجاسر على استطلاع امره . فلما وصل الى الغرفة اخبر الفونس بما فعله وظل واقفا وهو يلاعب اطراف لحيته بين اصابعه وينتظر امره . فلم ينتبه الفونس له لاستغراقه فى هواجسه ، وقد تزاحمت الافكار فى مخيلته واكثرها بروزا امر الملك وكيف استبد رودريك فيه واستخف به . وكيف انه بعد ان كان مطمح انظار وجهاء المملكة اصبح مثل احقرهم .. وفكر فى وسيلة لانتزاع الملك منه فاذا هو قاصر من كل وجه . لا مال عنده ولا رجال ، ولا شيء يقاوم به . ثم تذكر فلورندا وانه عاهدها على اخراج الملك من يد رودريك ، فكيف يرجع عن عهده عاجزا مقهورا ! ! فتجسم لديه المصاب وثقل عليه الفشل ، وندم على ما فرط منه بين يدى حبيبته من القسم ، فضاق صدره ، وصغرت نفسه ، وغلب عليه اليأس ، فتناثرت الدموع من عينيه بالرغم منه ــ والدمع يفرج الكرب حيث لايرى المرء مخرجا من ضيقه !

وكان يعقوب مايزال واقفا فسمع تنهد الفونس، ثم لحظ من بعض الحركات انه يبكى ، فادرك انه يفعل ذلك وهو يحسب نفسه فى خلوة فانسل دون أن يشعر به الفونس حتى جلس على كرسيه بجانب الباب ، وقد اشتغل خاطره بالفونس فعزم على استطلاع امره من المطران بعد مجيئه وقد كانت له عليه دالة كبرى

ومضت برهة ثم عاد أحد الرسل وانبأ يعقوب بقدوم المطران ، فتذرع بذلك لمخاطبة الفونس فدخل عليه واخبره بقدوم عمه . وكان الفونس قد فرغ من بكائه وذهب بعض انقباضه ، فلما علم بقدوم عمه لم يسعه الا الابتسام لشدة ما كان له من الثقة فيه لاشتهاره بسداد الرأى والتعقل ، مع محبته لالفونس

وكان اسمه اوباس (عباس) وهو طبعا مثل الفونس يعتبر رودريك مختلسا ، وكان قد بذل جهده فى عدم انتخابه فلم يفلح . لان حزب الاساقفة الرومانيين غلب على رأيه ، ولانه المطران الوحيد من امة القوط ، بينما سائر اساقفة طليطلة من الرومان او الذين ينتمون لرومية ، ولذلك غلب رأيهم .. وكان أوباس منذ تولى رودريك معتزلا الاعمال الا عند الضرورة . وكان فى ذلك اليوم قد صلى صلاة العيد فى منزله ، ثم خرج بعد الصلاة للجلوس فى حديقة المنزل لانه لم يكن يطيق ان يرى رودريك فى ذلك الموكب بدلا من ابن اخيه ، فلما جاءه الرسول يدعوه الى الفونس لبس رداءه وقلنسوته وجاء مسرعا

وكان اوباس حيوى المزاج ، طويل القامة طويل الاطراف ، عريض

المنكبين والجبهة بارز الوجنتين والفكين ؛ واسع الصدر ؛ اسمر اللون ؛ غزير الشعر ، خصوصا شعر لحيته فقد كان مرسلا على صدره الى أسفل منطقته . واصحاب هذا المزاج فى الغالب أقوياء الارادة مع علو الهمة وقوة البدن وعظم الهيبة . وهم كبار فى كل شيء مارسوه من الحرب أو التجارة أو السياسة، لأنهم يمتازون غالبا عن أصحاب الامزجة الاخرى ويفوقونهم فى كل شيء . وكان أوباس مع ذلك بطيء الخطوات كثير التفكير . قليل الكلام جهورى الصوت ؛ وكان قوله سديدا ورأيه صائبا

وبعد قليل سمع الفونس خطوات عمه وكان يعرفها ببطئها وثباتها وشدة وقعها فوقف لاستقباله ، فلما دنا من باب الغرفة تقدم اليه وقبل يده فباركه . وتقدم يعقوب فقبل يده فباركه وهو يبتسم له مع أنه كان قلما يبتسم لأحد ، ثم دخل الغرفة مع الفونس الذى اسرع باغلاق الباب التماسا للخلوة . فنزع المطران قلنسوته فاسترسل شعر رأسه الى كتفه وكان غزيرا جدا ولم يوخطه الشيب مع أنه فى نحو الخمسين من عمره

ونظر أوباس فى وجه الفونس فرآه يبتسم ؛ ولكنه تبين الدمع فى عينيه وأثر الانقباض فى أسرته فأثر منظره فى نفسه فقال له : « مالى أراك كاسف البال يا بنى ..؟! »

فلم يتمالك الفونس من ارسال دمعتين احرين وهو لا يزال مبتسما ولكنه تجلد وقد ارتاح لرؤية عمه فقال : « لا أظننى أشكو اليك أمرا لا تعرفه .. بل أظنك تشكو مثل شكواى أيضا ... »

فقال : « فهمت مرادك يا ولدى ... ولكن هذا الامر الذى تشكو منه قد أصبح قديما فلا بد من أمر حدث لك وجدد أحزانك »

قال : « صدقت يا عماه .. وأما ما جدد أحزانى فوقوفى بين يدى ذلك الوحش الكاسر فى هذا الصباح وقفة خادم بين يدى سيده .. وقفت وقد استصغرت نفسى حتى حسبتنى ذبت حياء ، ولا أدرى ماذا كان يصيبنى لو طال وقوفى .. ولما خرجت من القصر رأيت رجال الحاشية لا يعبأون بمرورى بعد أن كانوا اذا مررت يتسابقون الى تقبيل يدى ..؟! »

فقال أوباس : « وما الذى دعا الى وقوفك هذا الموقف وعهدى برودريك قلما يدعوك اليه ؟! »

فقال : « لأنى تأخرت عن موكبه فى هذا الصباح . فلم أدركه الا وهو راجع من الكنيسة .

قال : « ما كان اغناك عن هذا التأخير فلم تكن تسمع تعنيفا ولا تحمل ملاما حتى يقضى الله امرا كان مفعولا ... وما الذى اخرك عن الاحتفال ؟ »

فلم يخجل الفونس ان يقص على عمه سبب تأخره لان عمه مطلع على ما بينه وبين فلورندا من المحبة المتبادلة ، وهو الذى وضع عربون الخطبة بينهما فقال له : « سبب تاخرى انى زرت فلورندا فى هذا الصباح بعد ان طال غيابى عنها . وانت تعلم انقطاعى عن ذلك القصر وضواحيه منذ ابتليت عصبة الملك بى . وكنت احسب فلورندا تغيرت فزرتها لاتحقق امرها فطال الحديث حتى نسيت الموكب . فلم انتبه الا وهم عائدون من الكنيسة ، فاسرعت للانضمام اليهم ولم اكن اظن الملك يرتب حركاتى الى هذا الحد . فلما دخلت عليه استبقانى الى ما بعد خروج المهنئين وعنفنى تعنيفا لم يكن شديدا فى ذاته . ولكنه وقع على رأسى وقوع الصاعقة ... »

قال ذلك وكاد يشرق بدموعه . فلم يبال اوباس بهذه الدموع لاستصغاره مثل تلك الظواهر — ظواهر الضعف البشرى — بل ظل ساكتا فى انتظار بقية الحديث . اما الفونس فلما رأى عمه لا يزال مصغيا له استطرد الكلام فقال « ومما زادنى قهرا ان ذلك الهرم كان يحاول ايقاعى فى الشرك حتى يسبب رودريك الى علاقتى بفلورندا ... وكنت اقرأ سوء القصد خلال عينيه الغائرتين ومن وراء العدسات المختلطة ... »

قال : « اراك يا الفونس متهيج العواطف كثيرا ولا فائدة من ذلك .. ولا عبرة بلفظ تسمعه او اشارة تراها . فانها حركات طائرة فى الهواء ، وما هى من الحقيقة فى شىء ... خفف عنك وارجع الى صوابك . وابحث فى الامر بحثا معقولا »

فعجب الفونس لقول عمه ، وشعر بحصر نفسه وضعفه . ولم يستطع امتلاك عواطفه فقال : « وكيف لا نعبأ بالاقوال ... وكيف استطيع الصبر على الاهانة والاحتقار ؟ ! اترضى يا عماه ان تكون ارقاء لذلك المختلس ؟ ! » قال ذلك والحدة بادية فى صوته . فاجابه اوباس بصوت هادىء : « لا »

قال : « فكيف نقبل هذه المعاملة ونقول انها حركات طائرة فى الهواء . انى لا استطيع الصبر على ذلك .. ان الموت خير من الحياة مع هذه الاهانة ! »

فقال اوباس : « لا اقول ان الاهانة حركات فى الهواء ، ولكنى ارى

الكلام الصادر عن الحدة والغضب بلا روية ، أشبه بحركات طائرة في الهواء لا فائدة منها .. »

فخجل الفونس من ذلك التوبيخ اللطيف ولكنه ظل مندفعا في تيار العواطف فقال : « أتلومني يا عماه على غضبي وقد قتلوا ابي واختلسوا ملكي ، ثم تبعوا على في ذهابي ومجيئي كأني بعض عبيدهم !؟ ماذا تريد أن أفعل بعد ذلك .. ! »

قال وصوته لم يرتفع : « أريد أن تنظر في الامر بعين العقل والروية ، لأن الحدة تذهب الرشد وتسوق الى الخطأ . وربما يخيل لك اذا رأيت هدوئي وصبري اني اقل منك استنكافا من احوال هؤلاء . ولكنني افكر كثيرا واقول قليلا .. وسترى مني سكون جأشك ودار الحديث بيننا اني قضيت العامين الماضيين وانا اسعى في الامر الذي لم يخطر ببالك الا اليوم .. وانت انما ذكرته على اثر انفعالك وغضبك ، بعد أن لاقيت خطيئتك وعنفتك على ضعفك . واما انا فاني لا اندفع بالغضب ، ولا اغضب للكلام الفارغ ، ولكني انظر بعين الحقيقة .. فقد كنت اتوقع منك هذه الحمية في اول يوم خرج فيه الملك من يدك ، بقطع النظر عما يلحق بك من الاهانة ، او ما قد تسمعه من التعريض او التوبيخ .. ! »

فلما سمع الفونس كلام عمه نهب وانعظ لما آنسه فيه من الرزانة والجد وقوة العزيمة ، وشعر بصغر نفسه لما تحمله من الضغط في السنتين الماضيتين دون أن يشكو فأراد أن يصلح ما بدر منه من دلائل الضعف فتحمس وقال :

« لقد اصبت يا عماه .. اني تهاونت في هذا الامر ولم اكن احسبك على هذا العزم . اما الآن فاشر علي . اشر علي بالذي افعله لاسترجاع ما اختلسه هذا الرجل منا »

وكان اوباس منذ شرع في هذا الحديث قد اخذت علامات الانقباض تبدو في محياه فازداد هيبة وجلالا ، واستغرق في الافكار وقد ارسل بصره من النافذة الى الفضاء ، فكان الناظر في وجهه يتبين استغراقه في الهواجس من ثبات بصره على لا شيء ، كأنه ينظر الى صور تمثلت في مخيلته منها المخيف المعصب ، والمفرح المنشط .. وكانت ظلال تلك العواطف تتجلى في عينيه البراقتين ، ولو احسن الفونس الفراسة لقرأ افكار عمه في عينيه واسرته ، وكفى نفسه مؤونة الاستشارة والمداولة . ولكنه لم يكن على شيء من ذلك فلما فرغ من كلامه صبر لسماع ما يقوله عمه ، فاذا هو ما زال غارقا في الهواجس وهو يلاعب

اطراف جدائل شعره بأنامله كأنه لم يسمع شيئا من ابن اخيه .
فتهيب الفونس منظره ، ولم يجسر على ان يشوش عليه افكاره فظل صامتا
مضت لحظات قليلة وكلاهما صامتان ثم فتح اوباس الحديث فقال :
« هل ادركت يا الفونس المشروع العظيم الذي تعرض نفسك له وما هو الامر الذي تطمح انظارك اليه ..؟ »
قال : « كيف لا ..؟ انى التمس امرا هو حق لى لا ينازعنى فيه احد »
قال : « فهمت ذلك ... ولكن هل دبرت الطريقة التي تستطيع التغلب بها للقبض على ازمة الاحكام ..؟ »
قال : « اعرض لديك رأيى وانت صاحب الرأى »
قال : « قل »
قال : « لا يخفى على عمى العزيز ان القوة التي ساعدت رودريك على تسنم ذروة الملك انما هى قوة الرومان خصوصا الاساقفة . واما رجال القوط اهلنا وعشيرتنا فانهم لا يريدونه ، وهؤلاء جماعة كبيرة اذا اتحدوا هم ورجالهم واتباعهم تألف منهم جند كبير يغلب جند رودريك ؛ فلا يصعب علينا اذ ذاك اخراج الحكم من يده ، اما بالتنازل واما بالقتال »
فابتسم اوباس ابتسامة مقتضبة دلت على استخفافه برأى ذلك الشاب قليل الاختبار ثم قال : « صدقت يا ولدى ان القوط اكثرهم على دعوتنا ، ولكن هل تظنهم اذا دعوتهم الى الحرب ينهضون ؟ لا اظن شكواهم من هذا الملك تخرج عن حدود الكلام . ولا لوم عليهم ، فهم يخافون على ارواحهم واموالهم ؛ على ان اكثرهم لا يرون بأسا من بقاء رودريك وغيره من صنائع الرومان لاشتراكهم معهم فى المذهب ، فانهم جميعا تابعون لكنيسة رومية . وقد تغلب الاساقفة الرومان على آرائهم وعلى قلوبهم كما تغلبوا على حكومتهم ، حتى نسوا جنسيتهم »
وكان اوباس يتكلم بصوت هادىء وتأن ولم يبد الهياج فى عينيه الا لما وصل الى هذا القول ، على ان الرزانة ظلت غالبة على حركاته .
ولكنه سكت هنيهة والفونس ينظر اليه ويتوقع اتمام الحديث ، فقال اوباس وهو يجدل شعر لحيته بين انامله على سبيل التشاغل : « سامح الله ريكارد ، فانه هو الذى جر علينا هذا البلاء ! »
فلم يفهم الفونس معنى هذا الكلام ؛ اى ان ريكارد احد ملوك القوط وكان من رجال الحرب والسياسة ، حكم اسبانيا زمنا طويلا فى اواخر القرن السادس للميلاد

فقال : « ما الذى ارتكبه ريكارد يا عماه حتى استوجب هذا الملام ، والذى أعلمه انه هو الذى حفظ لنا مملكة الاسبان ودفع الافرنج (الفرنك ، عنها ؟ »

قال : « صدقت يا ولدى انه نجانا من الفرنك . ولكنه القانا فيما هو اعظم خطرا منهم »

قال : « وما هو ذاك ؟ »

قال : « الا تعرفه ؟ الا تعرف ان ريكارد هو الذى اضاع جنسيتنا ، وحل جامعتنا ؟ ! »

ولم يفهم الفونس مراده فقال : « لا يا مولاى . فكيف كان ذلك ؟ »

قال : «الا تدرى يا الفونس ان ريكارد هو الذى جعل مذهب كنيسة رومية (الكاثوليكية) مذهب حكومة اسبانيا ؟ »

قال : « نعم . الا تظنه فعل حسنا ؟ »

قال : « نحن الآن على مذهب هذه الكنيسة ايضا ، وقد ربينا فى حبها ولا بأس منها . ولكننى انظر فى الامر من وجهه السياسى . انظر فيه من حيث جامعتنا القومية . فقد جاء أسلافنا القوط منذ بضعة قرون ، وكانت هذه البلاد فى حوزة الرومان فانتزعوها من ايديهم بالقوة وتسلطوا عليها . ولا يخفى عليك ان مذهب أسلافنا الذى جاءوا به الى البلاد ليس الكاثوليكية مذهب كنيسة رومية . بل هو المذهب الاريوسى نسبة الى اريوس الشهير . وكان ذلك مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية . ففتحنا هذه البلاد وقضينا فيها نحو مائتى سنة ونحن على مذهب آريوس . واهل البلاد على مذهب كنيسة رومية

« ولا اخفى عليك ان ملوكنا الاقدمين لم يهتموا بنشر مذهبهم ولم يفقهوا علاقة الدين بالسياسة . ولكن الرومان لم يغفلوا عن اغتنام الفرص لاسترجاع سلطانهم بطريق الدين . فجعلوا يتدخلون فى مصالح الدولة رويدا رويدا . ويبثون مذهبهم فى الرعايا بوسائل مختلفة حتى تولى ريكارد المذكور منذ قرن وبعض القرن . فاستولوا على عقله حتى نبذ ديانة اجداده واعتنق المذهب الكاثوليكى وجعله مذهب الحكومة الاسبانية ، فاقتدى به رجال دولته وسائر اشراف المملكة . فتم النفوذ لرومية حتى اصبح مجمع الاساقفة الذى يجتمع فى هذه المدينة يدير دفة الملك كما يشاء ، وربما أتوا بالاوامر من رومية نفسها . وما زالت الكاثوليكية ديانة هذه المملكه الى اليوم . ولم يبق للاريوسية الا نفر قليل جدا . ولا ريب عندى ان الذين استبدلوا الكاثوليكية بمذهبهم

في اول الامر انما صنعوا ذلك مسايرة لريكارد لا عن اقتناع بالبرهان . لان مذهب آريوس اقرب الى احكام العقل من سائر مذاهب النصرانية»

فلما وصل اوباس الى هنا أحس بانه افرط في الكلام بين يدي ذلك الغلام . وقد تحقق تفريطه مما بدا في وجه الفونس من دلائل الاستغراب لما غرس في ذهنه منذ طفولته من تقبيح الاريوسية . حتى انه كثيرا ما سمع تقبيحها من عمه نفسه . وادرك اوباس ما جال في خاطر ابن اخيه فاستدرك قائلا :

« لا يغرب عن ذهنك يا ولدي اني لا احبب اليك الاريوسية دون سواها . فانا لا نفضل مذهبا على مذهبنا الحالي . ولكنني اخاطبك بلسان السياسة لا الدين . لأبين لك نتائج الخطأ الذي ارتكبه ريكارد سامحه الله . لانه باعتناقه المذهب الكاثوليكي اضاع الجنسية القوطية — لان الدين يا عزيزي ابت الجامعات واشملها . اذ قد يجتمع القوطي والفندالي والروماني واليوناني والسكسوني والعربي وغيرهم في بلد وهم اخلاط . فاذا تمذهبوا بمذهب واحد ضاعت جنسياتهم الاصلية بتوالي الازمان وصاروا امة واحدة !

« وهناك جامعة أخرى ربما كانت مثل جامعة المذهب . اعني بها جامعة اللغة . فهذه ايضا شاملة ولكنها في الغالب تابعة للدين . الا نرى انا بعد ان اعتنقنا المذهب الكاثوليكي اصبحت اللغة اللاتينية هي المتفشية في كنائسنا ومجالسنا ؛ لانها لغة ذلك المذهب . واخذت لغتنا القوطية في الانقراض او الضياع . أفلو ظللنا على الاريوسية واستبقينا لغتنا وعممناها في الشعب وحولنا أهل هذه البلاد عن مذهبهم الكاثوليكي الى مذهبنا الاريوسي . لكانت لغتهم لغتنا ، ومذهبهم مذهبنا ، وصاروا من انصارنا . ولكننا نقلنا عن ذلك فانعكس الامر ؛ واصبح اولئك الرومان بعد ان اخرجونا من مذهبنا ولغتنا يحاولون اخراجنا من سلطتنا بما اكتسبه الاساقفة الرومانيون من النفوذ في امور الدولة . حتى لا نرى في اوربا كلها مجمعا دينيا له على حكومة البلاد من النفوذ مثل ما لمجمع طليطلة على حكومة اسبانيا !

« واول من احس بهذا الخطر من ملوك القوط والدك طيب الله ثراه . فانه سعى في انقاذ حكومته من نفوذ رومية حتى لقد سمعته يصرح برغبته في الخروج من مذهبها او سلطانها الكنائسي . وكان معظم اساقفة اسبانيا ممن تثقف في رومية واشرب حبها وحب اسقفها الاكبر ؛ فاكبروا غرض والدك وما لبثوا ان انفذوا اغراضهم التي اتحاشى التصريح بها لانها تؤلمني كما تؤلمك . ونصبوا رودريك هذا وهو روماني

العرش وان ادعى انه قوطي الاصل . وكان ذلك امتدادا لما كان المرحوم والدك قد اسسه »

□

وكان الفونس يسمع هذا الكلام باصغاء، وقد التذ سماعه لذة عظيمة لما آنسه فيه من الفلسفة والحكمة مما لم يكن يخطر له من قبل. فلما بلغ الى خروج الملك من ابيه لم يتمالك ان سأل قائلا : « كيف استطاع هؤلاء تولية رودريك وابناء غيطشة احياء . . ؟ »

قال : « حجتهم في ذلك ان حق الملك عندنا انتخابي وليس وراثيا . اذ لو كان وراثيا لكنت انت اولى الناس بهذا الامر. على ان كونه انتخابيا لا يقضي بحرمانك منه . وكان يجب ان ينتخبوك لانك ابن الملك . وقد فعلوا ذلك غير مرة . ثم لولا ما ظهر خلال انتخابهم رودريك هذا من الاغراض القومية التي مرجعها ضياع جنس القوط قاطبة لما شق ذلك علينا »

ثم استأنف اوباس الحديث كأنه افاق من غفلة وقال : « اراني خرجت من دائرة الموضوع الاصلي . وخلاصة ما قدمته لك ان الذين تعدهم قوطا وترجو ان ينصروك في قيامك ضد هذا الرجل ؛ قد ضاعت جامعتهم الجنسية في الجامعة الدينية واللغوية ؛ فربما كانوا اقرب الى نصرته منهم الى نصرتنا . فمثل هؤلاء لايعتد باقوالهم ولا يعتمد على احزابهم »

فلما سمع الفونس نتيجة البحث خاب امله . لانه انما كان يتوقع شد ازره باهل عترته . فلما تحقق ضياع امله احس بضعف عزيمته . وظل مطرقا لا يبدي حراكا ولسان حاله يقول : « عجزت عن الحيلة ! »

فلما رآه اوباس مطرقا ادرك ضعف عزيمته فاراد ان يسبر غوره فقال له : « كأنك يئست من النجاح ؟ »

قال . « كيف لا ايأس وقد فرغت يدي من الرجال فضلا عن فراغها من المال . ولم يكتف هؤلاء باختلاس الملك ولكنهم اخرجوني منه صفر اليدين . فهل تعلم الى اين ذهبوا باموال والدي ؟ ! »

قال : « ان اموال والدك قد اخذت بحق، لان الملك رسيسويت الذي تولى هذا العرش منذ نحو ستين سنة سن قانونا يقضي برجوع اموال الملك وكل ما يقتنيه الى خزانة المملكة ؛ فلا ينبغي لنا ان نبالغ في القاء التبعة على عدونا بالباطل . اما السبيل الى بلوغ مأربنا . فاذا شئت قد فرغت يدك من الحيل فاخبرني لابدي رايي ؛ وارجو ان يكون سديدا

فاستغرب الفونس تنازل عمه بهذه العبارة ، واشار بيديه وعينيه معبرا عما عجز عنه لسانه من تفويض كل الأمر الى عمه . لانه اكبر عقلا واوسع اختبارا . فاصلح اوباس مجلسه استعدادا لحديث طويل، والتفت الى ماحوله كأنه يحاذر ان يسمعه احد وان كان على ثقة من انفرادهما هناك . ثم وجه كلامه الى الفونس قائلا :

« اعلم يا بني ان الانسان اذا عزم على امر فلا بد له من النظر في عواقبه قبل الاقدام عليه ، والا كانت العاقبة وخيمة . انت تعلم ان الناس في اسبانيا طبقات منها : طبقة الاشراف ، وهم ارباب الاموال والمناصب ، ومنهم حكام الولايات وحكام المدن واصحاب العقارات وغيرهم . ومنها رجال الاكليروس ، ومنها طبقة المستخدمين وهم رجال البلاط وخدمة الحكومة . ومنها اهل الحرف وهم من اواسط الناس وسكان المدن . وهناك الخدم والعبيد وهم كل ما بقي من اهل المملكة . ولا يخفى عليك ان هؤلاء هم القسم الاكبر ومنهم حراث الحقول وخدمة المنازل ومعظم رجال الحرب . فاذا شئنا ان ننهض لانتزاع الحكم من هذا الرجل فلا بد لنا من الاستعانة ببعض هذه الطبقات . فلنبحث في ايها اقرب الينا

« ان الاشراف اما رومانيو الاصل ، او قوطيون . فالرومان طبعا ضدنا . وقد بينت لك حال القوط فهم قد اضاعوا قوتهم في مذهبهم الجديد . فالاشراف لا فائدة لنا منهم ، وكذلك أهل البلاط . اما الاكليروس فانت تعلم انهم علة هذا التغيير . واهل الحرف بالنظر الى اقامتهم المستطيلة في المدن قد اضاعوا الحماسة اللازمة في مثل هذه النهضة ، زد على ذلك ان كلا منهم مشتغل بعمله وتجارته ويخاف ضياع امواله القليلة ، اذ لا يخفى عليك ان بلاد اوربا كلها تقريبا مؤلفة من المدن والحقول . فاهل المدن لايكادون يهتمون بما هو خارج مدنهم ، وكل مدينة تهتم بنفسها ، ونحن لايكفينا القيام باهل مدينة واحدة لان رودريك صاحب جنود واعوان ، وسيستنجد بحكامه في الولايات ، فنذهب ضياعا

« بقي علينا النظر في الطبقة الاخيرة من هذا الشعب وهي طبقة الخدم والعبيد . فهؤلاء هم الجانب الاكبر ولا تستغني عنهم سائر الطبقات ، ومع ذلك فانهم مستبدون فيهم استبدادا عظيما . ولا يخفى عليك ان معظم هؤلاء العبيد انما دخلوا في الرق على اثر الحروب ، وهم رجال اشداء خصوصا بعد ان تعودوا العمل وعانوا الشقاء لاشتغالهم في الحقول . فان عقارات الاشراف وبيوتهم واموالهم كلها

في قبضة هؤلاء العبيد ، ومع ذلك فانهم مظلومون يقاسون من اسيادهم عذاب الذل ـ وناهيك بعذاب الرق ـ وانت تعلم ان هؤلاء الارقاء لاينقصون عن اسيادهم شيئا من المواهب الطبيعية ولكنهم تعودوا الخضـوع لهم والخوف من اصواتهم . حتى اصبحوا اطوع لهم من ايديهم . فكل ما للعبد فهو لسيده . لايقدر ان يعمل عملا الا بأمره حتى الزواج ! . وكل ما اكتسبه العبد بالقصد او بالابعاق او بالتجارة او بالحرب ـ حتى اولادهم ـ فانها كلها لسيده الذي له ان يبيع العبد او امتعته او اولاده بدون معارض !

« على ان أولئك الاسياد قد يمنون على بعض عبيدهم بالحرية مكافأة على عمل عظيم صدر منهم . غير ان هذه الحرية قلما تمتاز من الاستعباد فان المعتق لايزال تحت امر سيده . فان عمل عملا فلسيده نصف ما يكسبه من ذلك العمل . وان اراد ان يستقل من خدمته وجب عليه أن يرد له كل ما معه من الاسلحة او الاثاث . ولا يعد ذلك المعتق من زمرة الاحرار الاصليين الا في الجيل الرابع من أولاده . . ولست اطيل الكلام عليك لأنك تعلم كثيرا من احوال هؤلاء الارقاء ، ولكنك قلما فكرت فيما يقاسونه من الخسف والظلم . وربما لم يخطر لك انهم من جبلة مثل جبلتنا . ولا لوم عليك لأنك نشأت وأنت تراهم على هذه الحال »

▭

فلما بلغ اوباس الى هنا وقف وتنحنح . وتفرس في الفونس ليرى اثر اقواله فيه فرآه منصتا بكل جوارحه لسماع ما يقوله عمه . فعاد اوباس الى حديثه فقال : « فالامر الذي اوجه التفاتك اليه ياولدي ان اقوى طبقات الشعب هم اولئك الارقاء المظلومون . وهم اكثر عددا واقوى ابدانا واصبر على الشقاء . فاذا اتخذناهم اعوانا لنا في هذه النهضة قلبوا المملكة رأسا على عقب . وقد لا نحتاج الا الى تظاهرهم بالقيام . واذا اتحدوا ارعبوا الملك وحكامه واشراف مملكته فننال المراد بلا حرب ولا سفك دماء . ولكن ما الذي يجمعهم ، او كيف يمكننا أن نجعلهم حزبا لنا ؟ »

وكان الفونس يتطاول بعنقه لسماع حديث عمه وقد رأى الصواب باديا في كل كلمة من كلماته ، لكنه لم يكن يتوقع منه هذا الاستفهام ، ولذلك ارتبك في الجواب ! . اما عمه فانه لم يطرح السؤال عليه لاستماع الجواب ، ولذلك عاد يقول : « اعلم يا بني أن الوسيلة التي يجب أن نتخذها لجمع كلمة هؤلاء الآدميين المظلومين تحت لوائنا انما

هي من افضل الوسائل واشرفها - بل هي فضيلة تبقى لنا ذكرا مدى الدهور ويحسدنا عليها كل من ملك هذه البلاد قبلنا . وننال عليها الجزاء الحميد من الله سبحانه وتعالى . اتعلم ما هي ؟

فلم يهتد الفونس بالجواب هذه المرة . لأن ملامح عمه كانت تشير الى ان الجواب ات . ثم قال اوباس : « ان الوسيلة يا بني لجمع كلمة هؤلاء انما هي ان نهبهم الحرية ونجعل لكل من ينضم الينا منهم حقا في نيل حريته بعد اجل معين . واذا نال تلك الحرية كان كسائر الاحرار مرة واحدة لايقاسمه احد في اتعابه او مكاسبه . على ان يكون ذلك مرتهنا برجوع الملك الملك . وانك متى توليت عرش اسبانيا هونت الاعناق . وسهلت الطريق اليه على كيفية ترغب اولئك المظلومين في نصرتك »

فسر الفونس مما سمعه من عمه . واحس بما بينهما من التفاوت في المدارك والقوى . وخيل له ان الامر قد تم له ما يروم حتى اصبح كأنه يرى رجال الملك وبهم بالقبض عليه ! . ولم يكن الفونس بليد العقل الا بين يدي عمه . وذلك لما له من السلطان على عقله ورأيه . فلم يتمالك ان سالت من عينيه دمعتان من دموع الفرح وانحنى على يد عمه ليقبلها . فاجتذب اوباس يده وهو لاتبهره عاطفة فرح ولاغضب . ولكنه اطلق ضحكة اصطنعها . ثم القى يده على كتف الفونس وقبض عليها بقوة . فاحس هذا شدة تلك القبضة . وتوقع ان يسمع شيئا بعدها . فاذا باوباس يقول : « رأيتك اقتنعت بما سمعته ولم تعمل فكرتك للبحث فيما يحول دون عملنا هذا من الحواجز ! »

▭

فاحفل الفونس وخاف ضياع آماله بعد ان اوشك ان يعتقد نيل بغيته . وفكر فيما عسى ان تكون تلك الحواجز التي قد تقف في سبيل ذلك المشروع . ولكنه قبل ان يهتم بالجواب سمع عمه يقول : « لا اظنك تجهل ما يحتاج اليه مشروعنا هذا من الاموال للانفاق على الجند . واستمالة الاحزاب . واستحداث المعاقل واغراء الاعداء »

فلما سمع الفونس ذلك عاد الى اليأس لعلمه بخلو يديه ويدي عمه وسائر اهله من مال يكفي لهذا العمل . واستغرب اغتراره برأي عمه الاول وتخيله وصوله الى الغرض المقصود مع ان مسألة المال لم تكن لتخفى عليه . وقد كان قبل هنيهة يشكو الى عمه خروجه بعد موت ابيه صفر اليدين ! على انه انما اغتر بذلك لشدة اعتقاده — منذ طفولته — سداد رأي اوباس . لانه ما برح منذ كان يدب ويحبو يرى عمه يأتي

لى ابيه بلباس الكهنة . والـكل يحترمون رايه ويهابونه فنسب على لاستسلام له . فاذا قال اوباس قولا سلم هو به واعتقد صوابه بلا روية ولا تبصر . . وكذلك كان شانه معه فيما دار بينهما فى ذلك ليوم . فلما سمع الفونس ذكر المال تحقق انهم يتداولون عبثا ولم يتمالك ان بدا اثر القنوط فى وجهه فظل ساكتا وفى سكوته ما يغنى عن الجواب !

اما اوباس فلما راى ابن اخيه قد سقط فى يده وضاقت المذاهب عليه ، ابتسم ابتسامة اخرى وقال : « هل يئست يا الفونس ؟ . ما اسرع ما ترجو وما اسرع ما تقنط ! . لا تيأس يا بنى انى لا ادع ثقتك العمياء فى عمك تذهب هدرا . وانى لم اقض هذين العامين نائما . نعم انى اخاطبك على سبيل المداولة ولكننى فى الحقيقة اعرض عليك مشروعا رتبته وسبرت اغواره ودبرت كل شؤونه ، ولولا ذلك لم ارض بالخوض فيه معك ! » . قال ذلك ونهض ، فنهض الفونس معه وهو لايدرى معنى ذلك النهوض . ولكنه اصبح لايطيق صبرا عن سماع تتمة الكلام ليرى ما دبره عمه من الوسائل للحصول على المال . على انه لم يجسر على سؤاله فظل صامتا فى انتظار الجواب . اما اوباس فانه تناول قلنسوته ووضعها على راسه ، فظنه الفونس يهم بالخروج ، ولكنه ما لبث ان سمعه ينادى « يعقوب » . وما عتم ان راى يعقوب داخلا يهرول ولحيته واتفه يسبقانه حتى وقف بين يدى اوباس وفى وجهه ابتسامة تدل على ما فى نفسه من الاطمئنان . فلما دخل جلس اوباس واشار الى الفونس ان يجلس ففعل ، ثم قال ليعقوب : « اجلس »

فاظهر يعقوب البغتة وقال : « حاشى لى يا مولاى ان اجلس بين يديك او يدى سيدى . واشار الى الفونس ، وانما يكفينى ان تاذن لى فى الوقوف »

فضحك اوباس — ويندر ان يضحك لغير يعقوب — ومد يده اليه حتى امسك باحدى شعبتى لحيته وشده بلطف حتى اقعده على طنفسة فى ارض الغرفة ، ثم تظاهر بالاجفال وارجع يده ومسح اطراف انامله بمنديله وهو يقول : « متى تغسل هذه اللحية يا يعقوب . اما آن لك ان تغسل ؟ ! »

فلما سمع يعقوب ذلك السؤال تبدلت سحنته بغتة ، وذهبت عنها ملامح المجون وبدا الجد فى عينيه وقال : « سيادتكم اعلم منى . ولكننى ارجو ان يكون ذلك قريبا ! »

فلم يفهم الفونس معنى هذا الجواب ، خصوصا بعد ان راى ذلك التغير فى وجه يعقوب ، ولكنه صبر ليرى ما يبدو منه فسمع عمه يقول : « وانا ارجو ذلك ايضا . ولكن غسل لحيتك يا صاح يكلف نفقات طائلة ، فهل تدفعها ؟ ! »

قال : « نعم انى لا ادخر مالا ولا ولدا ولا نفسا فى سبيل غسلها كما تعلم ! »

فلم يزد الامر لدى الفونس الا غموضا وابهاما ، ولم يفهم لاستدعاء ذلك الخادم معنى ، ولا لتلك الالغاز مغزى ، وشق عليه ان يتحول موضوع المداولة من الجد الى الهزل وهو لايعرف عمه يميل الى المزاح الا قليلا ، واكثر ما يفعل ذلك مع يعقوب ، فحمل كلامهما محمل المزاح وظل ساكتا يتوقع العود الى الموضوع الاصلى

اما اوباس فقال : « انى اعلم ذلك يا يعقوب وقد آن لى ان اسعى فى غسل لحيتك ، فهل أنت واثق من المال مهما كبر مقداره ؟ »

قال : « نعم ياسيدى وانت تعلم ذلك »

قال : « قد كنت اعلمه ، ولكن هل حدث تغيير او تبديل ؟ »

قال : « كلا يامولاى . نحن على ما نحن عليه »

فاطرق اوباس مدة طويلة لايتكلم ، واستغرق فى الافكار كأنه يحل معضلة ، ويفكر فى أمر طرق ذهنه فى تلك الساعة ، ثم وقف فوقف يعقوب والفونس . فقال للأول : « احب ان اراك الليلة فى منزلى »

فاشار بيديه وعينيه وشفتيه ان « سمعا وطاعة » . وخرج واغلق الباب وراءه

توقع الفونس بعد خروج يعقوب ان يسمع من عمه ما يزيل ذلك القلق عنه ، فلما رآه جلس ، جلس مثله ، وأصاخ بسمعه وهو ينظر اليه كأنه ينصت لما يقوله ، فسمعه يقول : « طب نفسا يا الفونس . ان المال تحت يدى عند الطلب ، ولابد من جلسة اخرى اشرح لك فيها التفاصيل وأرتب الخطة التى يجب ان نسير عليها فى هذا العمل الخطير »

فقال : « ولكننى لم أفهم علاقة ذلك بخادمنا هذا وبلحيته ! »

قال : « ستطلع على سر ذلك الليلة ان شاء الله . . هل تاتى معى منذ الآن الى منزلى فنتناول الطعام معا ؟ . ولكن لا . . فانى افضل ان تبقى هنا لاخلو بنفسى وارسم الخطة التى يجب اتباعها فى هذا المشروع » . قال ذلك ونهض وتحول نحو الباب وهو يمشى الهوينى

على عادته ، والفونس يمشي اثره ليودعه عند خروجه . وقبل وصولهما الى باب الغرفة سمعا قرعا عليه ثم دخل يعقوب وفي يده كيس صغير من الحرير الارجواني : مسطح الشكل كان فيه كتابا ؛ وقد عقد بشريط من الحرير الازرق . ما كاد الفونس يراه حتى خفق قلبه لعلمه انه من فلورندا ، اذ كثيرا ما كانت ترسل اليه الكتب فيه فاسرع الى الكيس وتناوله وسأل يعقوب عمن حمله اليه فقال : « احد خدم القصر الملكي »

وكان قد شرع في فضه قبل سماع الجواب . فلما فتحه استخرج منه قطعة من الخشب مربعة الشكل ، قد كسي سطحاها بالشمع وكتب عليها حفرا بقلم من حديد ــ وقد كانت هذه احدى وسائل المكاتبة في تلك الايام قبل اختراع الورق باجيال ــ فتناولها وتحول نحو النافذة وقد نسي وداع عمه واخذ يتلوها بنفسه ، ولم يكد يصل الى آخرها حتى ارتعشت انامله . وتغيرت سحنته . وكان أوباس لما رأى الكتاب توسم فيه جديدا فتغافل عن الفونس ريثما يقرؤه ؛ لكنه ما لبث ان رآه يقلبه ويعيد تلاوته وهو يوجهه نحو النور الداخلي من النافذة ويتفرس في الكتابة بعينيه كأنه يشك في قراءتها ، وقد امتقع لونه وارتعدت انامله وبان الغضب في اسرته ، فظل اوباس ينظر اليه ثم اغلق الباب ليخلو به من جديد . وكان الفونس قد شعر بحركة اغلاق الباب فانتبه . فاذا عمه يمشي نحوه في هدوء وينظر اليه نظرة خففت ماقام في نفسه على اثر تلاوة الكتاب . فحاول التجلد تشبها بما كان عليه عمه من سعة الصدر ، ولكن التأثر كان غالبا على منظره ، فتقدم نحو عمه وبيده ذلك الكتاب فقدمه له وهو يقول : « ويلاه لا ننجو من شر الا ونقع فيما هو شر منه . وكل مصائبنا من ذلك المختلس السافل ! »

فمد اوباس يده وتناول الكتاب بكل رزانة . وتفرس فيه فاذا هو مكتوب باللغة اللاتينية المشوشة بالفاظ قوطية حفرا في الشمع على الخشب فقرأ فيه ما معناه :

« حبيبي الفونس

« ان الامر الذى خفته من انتقالي الى هذا القصر قد اوشك ان يقع . فانا في خطر بين براثن الاسد ، الا اذا اسرعت الى انقاذي ! . انت تزعم انك تحب فلورندا فاسرع الى انقاذها قبل ان تفوت الفرصة. والا فان ما بقي من حياتها لايتجاوز ساعات قلائل اذا انقضت قبل خروجها من هذا القصر . فاذا لم يكن لي نصيب من النجاة فاني

استودعك الله . واطمئنك انى ذاهبة شهيدة العفاف والطهر . فاذكرنى بين يدى اهلى ، وموعدنا الامجاد السماوية في احضان الآباء القديسين
« كتبته فلورندا المسكينة »

فلم يكن اوباس اقل تأثرا لما قرأه من الفونس ، ولكنه كان اثبت منه جأشا واصبر على الطوارئ . وقد احس انه مسئول عما قد يصيب فلورندا من السوء وهو الذى وضع عربون الخطبة بينها وبين الفونس الذى لم يعد يستطيع صبرا فقال : « اعذرني يا عماه فقد نفد صبرى ونسيت كرسى الملك . وانت الذى باركت عربون الخطبة بيننا فانت مطالب باتمام العقد . فضلا عما انت مكلف به من ذلك بواجب القرابة . ومهما يكن من الامر دبرنى برايك »

فالتفت اليه بهدوء ورزانة ويده على لحيته يسرحها باصابعه وقال: « طب نفسا ياولدى .. انتى مخرج فلورندا من قصر الملك وهى فى خير ان شاء الله » . ثم اطرق واعمل فكره وهو يصعد بحاجبيه ثم يقطبهما بما يدل على استغرابه وحيرته ثم قال : « انى لاعجب من امر هـذا الرجل واشتغاله عن امور رعيته بما لايرضى الله ولا عبيده . ولكن ذلك من الادلة القاطعة على قرب سقوطه وذهاب ملكه . لان الله لا يؤيد ملكا يخالف وصاياه ! » . وكان الفونس غارقا فى بحار الهواجس ، وقلبه يتقد غيرة على فلورندا . ولما تشاغل عمه عنه بمناجاة نفسه اعاد النظر فى كتابها فوقف نظره عند قولها : « انى ذاهبة شهيدة العفاف والطهر ! » . وفكر فيما ينطوى تحت هذه العبارة من المعانى المثيرة للغيرة . ثم سمع عمه ينادى يعقوب ، ورأى هذا يدخل ويتبعه فى يده قائلا : « لبيك يامولاى »

قال : « هل تعرف اثنين من خدم هذا المنزل يمكننا الوثوق من امانتهما اذا كلفناهما القيام بمهمة . ولو كانت ضدهذا الطاغية صاحب كرسى طليطلة اليوم !! »

قال : « انا يا سيدى »

قال : « انا ادخرناك لمهمة اخرى . ولكننا نحتاج الى شابين اوثلاثة نثق بامانتهما ونشاطهما وبسالتهما . لان الامر يحتاج الى الاقدام والشجاعة والامانة »

فاطرق يعقوب وقد امسك طرف لحيته باناملة وجعل يفتله بين السبابة والابهام حتى اصبح مثل طرف الحبل لما كان يتخلل الشعر من الاوساخ ! . فعل ذلك وهو مستغرق فى الافكار . ثم حرك انامله بغتة فاعاد اللحية الى ما كانت عليه والتفت الى اوباس وفى وجهه

امارات التحير وقال : « فلما اثق باحد من هؤلاء ، وان يكن معظمهم نشأوا في بيت مولاى وعاشوا على مائدته . لان الانسان ابعد من ان يضحي نفسه في سبيل صدق ضميره . ولكنني اعرف اثنين فقط اظنهما اهلا لهذه الثقة »

قال : « ومن هما ؟ »

قال : « هما اجيلا ، وتستيلا »

فقال اوباس : « وكيف اخترت هذين وليس منهما من ربي في بيت الملك ؟ »

قال : « اخترتهما لاعتقادي باقتدارهما على هذه المهمة ، ولانهما ما زالا طامعين في الارتقاء ، اذ لا يخفى على مولاى انهما كانا من طبقة العبيد وقد حررهما المرحوم اخوك والحقهما بحاشيته لما آنسه فيهما من الكفاءة والشهامة . وقد ظهر لي بعد تخلصهما من العبودية انهما طامعان في المزيد شأن من يذوق طعاما لا يعرفه ، فاذا استطابه زاد في اشتهائه فطلب منه المزيد . وهذان الشابان ولدا في مهد العبودية ونفساهما من نفس الاحرار ، ورأى الملك المرحوم عظم نفسيهما في حديث يطول سرده فمنحهما الحرية والحقهما بحاشيته . فاذا كان في المهمة التي تنتدبهما لها ما يحقق امنيتهما ، تفانيا في سبيلها والا اعتذرا عنها دون ان يخونا »

قال : « اراك بارعا في فلسفة الاخلاق ، اذا كان الغروب تعال الى منزلي وهما معك »

قال ذلك وحول وجهه الى الفونس ، ففهم يعقوب انه يطلب خروجه فخرج . اما الفونس فكان قد عاد الى هواجسه فلما اقفل عمه الباب سأله : « بماذا نرد على هذا الكتاب ؟ »

قال : « اكتب اليها ان تكون على اهبة السفر في الساعة الثانية بعد الغروب ، وانك ستلاقيها في القارب خارج القصر »

فتناول الفونس قطعة من نسيج غليظ كانوا يكتبون عليه ايضا وكتب اليها ويده ترتجف ما معناه :

« الى مليكة القلب فلورندا

« لبيك يا حبيبتي . اني موافك القصر في الساعة الثانية من الليل القادم . فهيئي للخروج بما تستطيعين حمله ، واشرفي من النافذة المطلة على النهر . فاذا رأيت نورا مثلثا فاعلمي انني في انتظارك . تشددي وقوي قلبك ولا تخافي

« كتبه محبك الذي يفديك بروحه »

وطوى الكتاب وخاطه ، وجعله فى الكيس الارجوانى وختمه ودفعه الى يعقوب على ان يرجعه الى الرسول الذى جاء به ، ويوصى بالاحتفاظ به لئلا يطلع عليه احد . فتناول يعقوب الكتاب وخرج

□

وكانت الشمس قد تجاوزت الاصيل ، فاخذ الفونس يتأهب للخروج مع عمه الى منزله للمفاوضة هناك فيما يفعلونه ، ولشدة ما اصاب الفونس من البغتة كان ما زال مستغربا ما سمعه من يعقوب من الاسرار المكتومة . وكان الطقس قد تبدل فتلبدت الغيوم وتغلب البرد ، فلبس الفونس قباء من الفرو السميك ، والتف عمه بردائه الاكليريكى وكان البرد قلما يؤثر فيه . وفيما هما يتأهبان للخروج وكل منهما يفكر فى امر على حدة ، فتح الباب بغتة ودخل يعقوب . وفى يده اسطوانة من جلد بلون القرمز ؛ فعلم اوباس ان فيها كتابا من رودريك فقد كانت كتبه الى عماله وامرائه تكتب على الجلد وتلف وتوضع فى اسطوانة من جلد العجول المدبوغ بلون القرمز. فلما وقع نظر الفونس على تلك الاسطوانة تقدم لتسلمها فاعترضه عمه وتناولها وقال ليعقوب : « من جاء بها ؟ »

قال : « جاء بها شرذمة من فرسان الملك وقد سألنى رئيسهم عن سيدى الفونس هل هو هنا فاردت استمهاله لاعود اليه بالجواب فابتدرنى قائلا : « اخبرنى حالا فانى مأمور بايصال هذا الكتاب اليه على جناح السرعة حيثما كان . فقلت انه هنا ، فدفع الى الكتاب وقال انه ينتظر »

فنظر اوباس فى ختم الاسطوانة فاذا هو ختم الملك نفسه ففضه واخرج الكتاب فاذا هو قطعة من الرق مما كانت الحكومة تستخدمه لكتابة الاوامر . وكانت الرسالة مطوية فنشرها وقرا مافيها ، والفونس واقف الى يساره يتطاول لقراءتها : فاذا هى امر رسمى من رودريك اليه يقول فيه ما معناه :

« من رودريك ملك القوط

« باسم الاب والابن والروح القدس

« الى الشجاع الباسل عزيزنا الفونس ، سلام ، وبعد فقد بلغ ايها العزيز ان بعض العبيد والموالى فى كونتية . . . . قد تمردوا وتواثقوا على مقاومة حكومتنا هناك . فاذا اتاك كتابى هذا فاسرع الى مقر جنودنا فى طليطلة ، فان فرقة من الجند فى انتظارك لتذهب تحت قيادتك الى تلك المدينة لاخماد الثورة . ولابد من العجلة وبذلك

على استعجالنا اننا كتبنا هذا الامر فى يوم العيد الذى لا يجوز العمل فيه . فلا تتوان فى انفاذ امرنا هذا والسلام

« كتب فى قصر طليطلة فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ٧١٠ »

وما جاء الفونس على آخر الكتاب حتى اسودت الدنيا فى عينيه وصاح لشدة هياجه : « لا اذهب . لا اذهب .. ! »

فالتفت اوباس اليه لفتة الاستصغار وقال له : « كيف لا تذهب ؟ وهل تستطيع ذلك ؟ . الا ترى انه كتب اليك هذا الكتاب وفيه ما فيه من الملاطفة . فاذا عصيت امره جررت على نفسك البلاء ؟ ! »

قال : « واى بلاء اجره على نفسى ! »

قال : « اذا تخلفت عن المسير اتهمك بالعصيان وامر بالقبض عليك . وليس عندك من الرجال ما تدفع به قوة الحكومة الآن . فلا تكون النتيجة الا ايقاع الاذى بك وبنا كلنا اذ يرى المجمع المقدس مسوغا لذلك بعصيانك ؟ فالحكمة تقضى علينا بالملاينة والمسايرة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا »

ولم يكن الفونس يجهل ذلك ولكن غضبه لفلورندا ولخروجه من طليطلة وهى فى ذلك الضنك اغلق ذهنه . فلما سمع كلام عمه قال له : « ولكن ما العمل ؟ وكيف اجتمع بفلورندا ؟ ! »

قال : « اترك امرها الى . فسأتولى انقاذها الليلة واخفيها فى مكان ، ثم اكتب اليك حينما تكون ونرى ما تاتى به الحوادث . ولا تجزع بل ابشر بما نرجوه من وراء سفرك هذا من تمهيد السبيل لمشروعنا . اتكل على الله . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم »

فالتفت الفونس الى يعقوب وقال له : « اخبر حامل الرسالة انى ذاهب بعد قليل »

قال : « قلت لك يا مولاى انهم كوكبة من الفرسان . وقد علمت انهم مأمورون الا يعودوا الا بك »

فقطع اوباس كلام يعقوب وقال لالفونس : « اذهب يا بنى . اذهب الآن وانا اتولى كل شىء فى غيابك . ولكنى انصح لك أن تصطحب يعقوب وتعتمد عليه . وسوف يطلعك على أمور تهمك ! »

فقال يعقوب : « سمعا وطاعة » . واسرع الى اثوابه فلبس منها ما يصلح للسفر . وكذلك فعل الفونس .. وخرجا والفونس يتحلد وقد القى كل حمله على عمه

- ٤ -

فلندع الفونس يتأهب للسفر . ولنعد الى قصر رودريك حيث تركنا فلوريندا في غرفتها تفكر في امرها بعد الفراغ من الصلاة وتسليم امرها الى الله .. فقد خرج رودريك من عندها وهو يضمر لها الشر المحتم . وكان اول شيء فعله انه لقى الاب مرتين في غرفتـه يتلو بعض الصلوات . وكان مرتين قد شعر بذهاب الملك الى قصر فلوريندا وتحقق انه لا يعود من هناك الا وهو مقتنع بوجوب التخلص من الفونس او ابعاده . فلما لقيه عائدا آنس الغضب والانفعال في عينيه وجبينه ، حتى لقد يعجب الذي يراه لصبره عن قتل تلك الفتاة وهو اذا غضب لا يبالي بقتل المئات ! . ولكن الحب .. الحب يخفف الغضب ويلجم القلب والعقل . الحب يذلل الاسود ويستأسر الجبابرة . وهو الذي يبعث الى الشفقة والحنو ! فاذا رأيت رجلا في خلقه جفاء وخشونة فاعلم ان الحب لم يستول على قلبه بعد . نعم ان حب رودريك لم يكن خالصا من شوائب المكر ، ولكن ذلك لا يمنع تأثيره في القلب . لان سبب الحب واحد . وان كان اثره يظهر في الناس مختلفا باختلاف اخلاقهم واحوالهم

ولا يبعد ان يكون رودريك قد هم بقتل فلوريندا وهي تعنفه وتقاومه . ولكنه امسك نفسه طمعا في استرضائها واستبقائها . فحمل من عواقب الكظم ما ظهرت آثاره في وجهه . حتى خيل لمرتين لما رآه انه في اعلى درجات الغضب ، فاستقبله ضاحكا . فتجلد رودريك وحياه وهو يحاول اخفاء انفعاله عبثا . ولم ير خيرا من ان يشاغل الاب بالحديث فقال له وهو يظهر الاستخفاف : « يظهر ان لذلك الغلام ماربا عند بعض اهل القصر ! »

فاجاب الشيخ وهو يتلجلج على عادته : « كأني بالملك لم يفهم اشارتي الى ذلك في هذا الصباح ! »

قال : « بلى فهمت . ولكنني .. » وسكت . فادرك القس انه يضمر شيئا فظل ساكتا وهو ينقر بسبابته على شفته السائرة ، وعيناه تنظران الى الملك كأنه يتوقع تتمة حديثه . اما رودريك فلم ير باسا من اطلاع مرتين وهو مستودع اسراره على قصده ، الا حب فلوريندا فانه نوى البقاء على كتمانه ، حياء من الناس وخوفا من امرأته . وهو يعلم تسلط القسوس على النساء فخاف ان يقع حبه لدى القسيس موقع الاستهجان فيطلع الملكة عليه فتقف في سبيله . !

على انه اراد اطلاع مرتين على ما بقي من عزمه فقال: « ارى ان اسعى في ابعاد هذا الشاب عن هذه المدينة بالحسنى فنشغله عن القصر واهله »

فطاطأ الشيخ راسه استصوابا كأنه راى الجواب بتلك الاشارة اهون عليه من التكلم، ثم قال: « واذا ابعدته فقد سعيت بخدمته ونتخلص، ولكن الحية لا تموت اذا ظل راسها سالما! »

فعلم رودريك انه يشير الى اوباس ويود ابعاده فقال: « ان ابقاء راس الحية بين ايدينا اسلم عاقبة لنا، خصوصا اذا كان الذنب بعيدا! » ففهم مرتين اشارته وسكت. فنهض الملك للحال وكتب ذلك الكتاب وبعث به الى الفونس كما تقدم، وصبر حتى اتاه نبأ امره وان الفونس جاء المعسكر وتهيأ للسفر

وكانت الشمس قد توارت وراء الافق واقبل الظلام. وكان اقباله زاد ذلك الملك تعاميا عن فظاعة مانواه ولم يعد يستطيع صبرا الى اليوم التالي، فتناول طعام المساء مع امراته، واكثر من تعاطي الخمر على المائدة تشاغلا عما لاح في نفسه من النيران الشيطانية فهان عليه ارتكاب كل فظيعة ولذلك قالوا: « السكر راس كل المعاصي! »

نهض رودريك عن المائدة وقد امتلأ جوفه ودارت الخمر في راسه. وتحول توا الى غرفته والقسيس لايزال على المائدة مع امراته، فلما دخل الغرفة اغلق بابها وراءه وفتح الباب الآخر وسار في الممر نحو غرفة فلورندا!

اما فلورندا فكانت بعد اعمال الفكر قد كتبت ذلك الكتاب الى الفونس، ودفعته الى العجوز فارسلته مع خادم تعتمد اخلاصه. ولبثت تنتظر الجواب، فشغلها ذلك الانتظار عن كل فكر، وظلت على هذا الحال ساعة ظنتها شهرا او سنة، فكانت تارة تطل من الباب، واخرى من النافذة المشرفة على النهر، وآونة تندب حالها وتستعجل في سبب التاخير، والعجوز تهون عليها حتى عاد الرسول بذلك الجواب فحقق ظنها سرورا، وكان اول شيء فعلته انها قبلت الايقونة وشكرت الله على اجابة صلواتها. واخذت تجمع ماخف حمله من الحلي ونحوها، والعجوز تساعدها حتى غابت الشمس، فعند ذلك تركت كل شيء وتحولت الى النافذة فجلست اليها واخذت ترسل بصرها الى مجرى النهر تنتظر ظهور النور المتفق، مع علمها ان الاجل المضروب ما زال بعيدا، ولكن القلق اوهمها قربه! وكان الطقس قد برد، فتلبدت الغيوم تاغبرت السماء وعصفت الرياح.

وأومض البرق وقصف الرعد . ولم يمض قليل حتى تساقطت الأمطار . ولكن ذلك كله لم يشغلها عن التفرس في النهر وركبتاها ترتعدان وجلا وفرحا . وكانت كلما لاح برق ظننته مشعال حبيبها . وقد تنفرج الغيوم فيقع بعض ظل الكواكب في مجرى النهر فتحسبها نورا مثلثا ، وربما كانت عشرين كوكبا فتظن تعددها ناتجا عن تكسر سطح النهر بالأمواج ، أو تتوهم السبب في ذلك اعتراض بعض أغصان الحديقة بينها وبين النهر ، خصوصا الأغصان الضخمة القائمة تجاه النافذة !

▭

وفيما هي تعلل نفسها بقرب الفرج ، وقد وجهت كل حواسها وعواطفها الى ما هو خارج تلك النافذة نحو النهر ، انتبهت بغتة فسمعت وقع أقدام رودريك في الممر . فخارت قواها ، وتسارعت ضربات قلبها حتى كاد يغشى عليها ، وأحست بما يحدق بها وكانت في غفلة عنه . فجلست على البساط وجعلت تتضرع الى الله أن يساعدها وينقذها هذه المرة . ولم تجد أمامها الا خالتها فسألتها : « أليست هذه خطوات الملك ؟ » . ولم تتم كلامها حتى خرجت العجوز ثم عادت وهي تقول : « الملك يدعوك الى تلك الغرفة »

فصاحت فلورندا : « وبلاه ما هذا المصاب يا الهي ! ؟ » ولطمت وجهها وأخذت في البكاء . فتقدمت العجوز اليها وجعلت تخفف عنها وهي لا تدري بماذا تعزيها هذه المرة . على أنها لم تر خيرا من الرجوع الى المعزى الأكبر — وهو الدين — فقالت : « اتكلي على الله وهو الذي أنقذك في المرة الماضية وسينقذك الآن ، وما عليه أمر عسير »

وكانت فلورندا من أهل الايمان الوطيد كما رأيت ؛ فتضرعت الى الله أن يساعدها هذه المرة أيضا ، والتفتت الى خالتها وقالت لها : « أتوسل اليك يا خالة أن تصلي من أجلي وتطلبي الى الله أن ينقذني من هذه التجربة »

فقالت : « اني باقية هنا جاثية أمام هذه الايقونة الى حين رجوعك ، لأني لو صحبتك ما نفعتك ، ولا يساعدنا على هذا العدو غير الله وحده ! »

فاطمأن بال فلورندا لهذه العبارة ومشت كالشاة التي تساق الى الذبح . وهي تقدم قدما وتؤخر أخرى حتى دخلت تلك الغرفة . وكان رودريك جالسا في صدرها جلوس من لا يهمه النهوض ، ورأت في وجهه من دلائل الغضب ما لم تره في المرة الماضية ، وقد احمرت عيناه واكمد لون وجهه من السكر ، وأسرع تنفسه واشتد . فظنت فلورندا لأول وهلة أنها ترى هذه الملامح في وجهه بسبب نور المصباح ؛

على انها لم تكد تقع عيناها عليه حتى اسرع قلبها بالخفقان ، ولكنها استعانت بالله وتجلدت ، وتقدمت حتى وقفت على بضع اذرع منه واطرقت . وكانت قد ضفرت شعرها ولملمته وغيرت ثوبها تأهبا للسفر . فرأى رودريك فيها ما زاد شغفه بها ، وتضاعف ذلك الشغف لتنبه عواطفه بالمسكر فخاطبها وهو لايزال جالسا وقد مد رجليه ، وبسط ذراعيه على الوسائد في الجانبين فقال : « هل حدثتك نفسك بشيء جديد ؟ »

فظلت ساكتة ولكنها بالغت في الاطراق . فاعاد السؤال وقد توكأ على ركبتيه كانه يتحفز للنهوض قائلا : « اجيبي يا فلورندا ، يظهر انك ادركت السعادة التي ادعوك اليها ، خصوصا اذا علمت اني انقذتك من يدي ذلك الغلام الذي كان يغريك بحبه ، وهو لا يحبك ولا يستحق قلبك ! »

ثم وقف بسرعة تمازجها عربدة ، واخذ يسرح لحيته قائلا : « لماذا لاتجيبينني ؟ كانك تخجلين من الندم بين يدي الملك ! الا فاعلمي اني سامحتك على ما مضى .. » قال ذلك وخطا نحوها وبيمناه مرفوعة كانه يهم ان يلقيها على كتفها تحببا !

اما فلورندا فلما راته يدنو منها تقهقرت ورفعت ذراعيها تتحامى بهما ، ونفرت منه كانه ذئب كاسر يهم بافتراسها . فتراجع رودريك واظهر الاستغراب وهو يقول : « ما بالك تنفرين كانك تخافينني ، ادني مني ، انني اريد رضاك ؟ ! »

وكانت فلورندا لا تزال في ريب من امره ، فارادت ان تحقق ظنها . وكانت الامطار قد تعاظم تساقطها ، واختلطت اصواتها باصوات المياه المنحدرة من الميازيب وهبوب العواصف وقصف الرعود ، وفلورندا في غفلة عن كل ذلك لعظم ما قام في نفسها من الخوف . على انها لما عولت على مخاطبته انتبهت لما يحول بين صوتها المنخفض وبين اذنه من هذه الاصوات المختلطة فقالت بصوت عال لكنه مرتعش : « قد قلت لمولاي الملك ان هذا الموقف ليس موقفي ، وان الله قد جعل نصيبي سواه »

فقال لها : « كانك لم تفهمي كلامي ! قلت لك ان الغلام الذي تسمينه حبيبك قد مضى ولا سبيل اليه »

فلما سمعت قوله توهمت انه قتله فصاحت وقد وقف شعرها وارتعشت ، واحست كانه صب ماء غاليا على بدنها وقالت : « ماذا تقول ؟ . ماذا فعلت بالفونس . ماذا ؟ . ماذا ؟ . هل قتلته ؟ »

فلما راى رودريك ما اصابها خاف ان يقضى عليها بغتة وهو يريد استبقاءها لنفسه ولو ساعة فقال : « لا . لم اقتله ولكنه بين يدى وحياته طوع ارادتى . اذا شئت قتلته بكلمة ولا اتكلف لذلك خطوة واحدة : يظهر انك لا تزالين تجهلين من هو الذى يخاطبك ، ومن هو ذاك الذى تسمينه نصيبك ؟ نعم انى لم اقتله بل اكتفيت بابعاده . ولكن اذا بقيت على اصرارك اقتله . واذا ظللت على غيك بعد قتله اقتلك انت . وانا الآن لا استرضيك ولا استعطفك بعد ما رأيته من وقاحتك . واعلمى ان هذه الساعة هى الحد الفاصل بين تمنعك وبين ما اريد ! » قال ذلك بصوت عال ومشى مسرعا الى باب الغرفة واغلقه ورجع وهو يقول : « فاختارى الحائط الذى تريدينه واخرجى منه ! » ثم ألقى نفسه على المقعد وهو يلهث من الغضب كأنه ثور بخور ، وقد زادت عيناه احمرارا واوداجه انتفاخا

وعندما سمعت فلورندا تصريحه بالمنكر ، وتحققت دنو الخطر ، التفتت الى ما حولها كأنها تفتش عن ضائع او تستنجد رفيقا ـ تفعل ذلك وهى لا تعلم لماذا فعلته وهمت بالجواب . فقطع رودريك كلامها قائلا : « ممن تبحثين ؟ انا فى غرفة ليس معنا ثالث . وليس على وجه البسيطة من يستطيع ان يحول دون مرادى . فاقبلى طائعة . انه احفظ لحياتك وادعى الى سعادتك ! »

وكانت فلورندا لما سمعت قوله « وليس معنا ثالث » قد تذكرت ما كانت تعرفه وسمعته من اقوال الكتاب المقدس ، من ان من يتكل على الله لايخذل . وان الله موجود فى كل مكان . فاحست بالاطمئنان كأنها محاطة بملائكة يحرسونها ، وتشجعت ونظرت الى رودريك وهى تتفرس فيه وقالت : « تزعم اننا منفردان . وان الجو خال لك . وقد فاتك ان الله موجود فى كل مكان لايدع لاحد سلطانا يغلب سلطانه ! ثم انى سمعتك تهددنى بالقتل . فاقتل ثم اقتل ! اقتلنى فانى لا ابالى بحياتى . ولكن أتوسل اليك الا تمس الفونس بسوء . . آه يا الفونس ! . . ! » قالت ذلك وخنقتها العبرات واطلقت لنفسها عنان البكاء

فلما سمعها رودريك تبكى لم يزدد الا حنقا خصوصا بعد ان سمع ذكر الفونس . على انه لما رأى توبيخها وثباتها مع شدة تعلقها بحبها ورغبتها فى بقائه ، تراءى له ان يعرض عليها استبقاءه فقال : « اذا كانت حياة الفونس تهمك بهذا المقدار ، فانى اكراما لعيونك ابقيه .



رودريك : « هل حدثتك نفسك بشيء جديد ؟ »

وارقيه ، واجعله من اسعد أهل طليطلة . ولايكلفك ذلك الا ان تقلعي عن عنادك ! »

فابتسمت استخفافا بذلك الراي وقالت : « ان الامر الذي يرضيك مني بذله انما هو اثمن ما لدى في هذا العالم ! اثمن من حياتي ! بل اثمن حتى من الفونس نفسه . لاني بدون ذلك الاكليل المجيد وتلك الجوهرة الثمينة لا استحق نظرة من الفونس ولا من سواه . بل لا اساوي شيئا ! وهل تظنني لولا ذلك استطيع مخاطبة الملك بهذه الجسارة ! »

فراى رودريك انها تطيل الجدال ولا يجد ما يدفع به حجتها ، ولا هو يريد الاقتناع بقولها لان ميوله البهيمية غلبت على عقله وارادته .. وقد يكون — وهو يجادلها ويراودها — مقتنعا بانه يلتمس امرا منكرا وانها مصيبة بتوبيخه ، ولكنه لايملك عنان شهواته

⊂⊃

وكان رودريك مع قوة بدنه ضعيف الارادة . فلما سمع تقريع فلورندا ادرك خطأه ، ولكنه تجاهل وتعامى وتصامم ، وعاد الى المغالطة ، فاظهر الغضب ووقف بغتة وقال لها : « اراك تحبين المدافعة بلا فائدة ، ولم يبق لي صبر على اقوالك . الا تشعرين بما تعرضين نفسك له من الخطر ؟ . ومع ذلك فما لايمكن ان يكون برضاك لابد منه رغم انفك ! » . قال ذلك ودنا منها وقبض على ذراعها ويده ترتعش ، فاقشعر بدن فلورندا واحست كانه ممسك ذراعها بقبضة من حديد فصاحت : « ويلك يا ظالم . تبا لك يا فاسق . ! الا تخاف يوم الحساب ؟ الا تخاف الله ؟ قبح الله ملكا يتولى انصاف المظلومين وهو اكبر الظالمين . ولعن الله رجلا يزعم انه اقيم لكبح جماح المتمردين وهولايقوى على كبح شهواته ! » ثم ارسلت بصرها نحو السماء ورفعت يدها الاخرى وقالت : « اليك اتوسل ايها المخلص الحبيب ، واعوذ بك من هذا الظالم الخائن ! »

وكان رودريك في اثناء ذلك يحاول القبض على يدها الاخرى وهي تحاول التخلص منه . فوقع نفسه في وجهها فاشتمت رائحة الخمر فهمت ان تقول شيئا ولكن اعترض قولها رعود قاصفة توالت بضع ثوان ، اعقبها صوت صاعقة انقضت بالقرب من ذلك المكان ، فارتج القصر من اساسه . ونفذ وميض البرق من شقوق النوافذ كانه حراب من نار ! فكان لتلك الحركة تاثير شديد في نفس رودريك شغله لحظة من فلورندا ، وتولاه الرعب لانه توهم لاول وهلة ان القضاء

بتهدده — كما يفعل بعض الذين يربون فى مهد الدين فيعتقدون ان الاقدار تراقب حركاتهم وسكناتهم . وان الطبيعة لا تعمل عملا الا وهى تتعمد به خيرهم أو شرهم . على ان ذلك الخاطر لم يمر فى ذهنه الا مرور البرق ثم عاد الى ما كان عليه !

واما هى فانها اغتنمت تلك الفرصة وانتزعت يدها من يده ، وقد اعتبرت انقضاض تلك الصاعقة نصيرا لها عليه أجابة لصوت دعائها فالتفتت اليه وهى تقول : « الا تعلم أن فى الكون من ينصر الضعيف على القوى ؟ الا يستطيع ذلك الجبار ان ينزل عليك وعلى قصرك صاعقة تذهب بكما الى الموت العاجل ! » .

فافحم رودريك لما رأى الاقدار تزيد حجة فلورندا عليه . ولكنه اعتبر نفسه فى موقف انتقام ولم يزده الا تماديا فى غرضه . فتقدم اليها وقبض باحدى يديه على كتفها ومد يده الاخرى ليقبض على يدها ثم يرفسها برجله . فتشددت هى وانتزعت نفسها من يديه فأفلتها بالرغم عنه لأنه لم يكن ممسكا بكل قوته . فلما افلتت منه تعاظم غضبه فهجم عليها هجوم الثور . وهو لايبالى مايكون من امرها !

فلما رأته فلورندا هاجما والشرر يكاد يتطاير من عينيه لفرط غضبه ايقنت بالخطر العاجل ، فعولت على الانتحار قبل وصوله الى مراده ، فجثت على ركبتيها ورفعت بصرها الى السماء كأنها تستغيث وهى لا تزال الى تلك اللحظة تعتقد ان العناية الالهية لا تتخلى عنها ! ولكنها لما رأت رودريك يكاد يصل اليها اسرعت هى فقبضت بكلتا يديها على عنقها وهمت أن تخنق نفسها وهى تقول : « الموت . الموت خير من العار . اليك اسلم روحى يا مخلصى الحبيب » . قالت ذلك وضغطت على حنجرتها فانحبس الدم فى وجهها وجحظت عيناها ولكنه امسك يديها وشدهما فأبعدهما عن عنقها ، وكانت قد خارت قواها فسقطت وقد ارتخت مفاصلها واستلقت على ظهرها لاحراك بها !

☐

فلما شاهدها رودريك فى تلك الحالة تنبهت فيه الحماسة البشرية لحظة ، وعمد الى تلطيف ما بها فجثا بجانبها . وامسك يدها وانهضها يريد اجلاسها لتصحو من غيبوبتها . فاذا هى لا تزال مغمضة العينين مسترخية الاعضاء فخفق قلبه : وتحرك ضميره . وتوهم أنها ماتت او كادت تموت ، فتركها واسرع الى الباب لعله يجد ماء فيرشها به ، ففتح الباب وطلب حجرة فلورندا فاستقبلته العجوز وهى خارجة منها وقد بغتت منذ سمعت فتح الباب لأنها كانت لا تزال الى تلك

اللحظة جاثية تصلي وتطلب نجاة فلوريندا من هذا الخطر . وكانت وهي مستغرقة في الصلاة لا تسمع شيئا مما حولها وقد اقفلت النافذة المطلة على النهر حجبا للعواصف . فلم تنتبه لقصف الرعد وهبوب الرياح الا كما يشعر الراقد بصوت يسمعه بين اليقظة والمنام . ولكنها حالما سمعت فتح الباب تنبهت كأنها استيقظت من ذلك الرقاد ، وهرعت نحو الباب فاستقبلها الملك والبغتة على وجهه وقال : « الى بكوبة من الماء . اسرعي حالا . ! » . قال ذلك وعاد الى الغرفة فتبعته العجوز بالكوبة وركبتاها ترتعدان من الخوف على فلوريندا . فدخل رودريك وهو يقول للعجوز : « رشيها بالماء ! » فلما رات العجوز حال فلوريندا صاحت : « فلوريندا ما الذي اصابك ! . . » واسرعت فرشتها فاستيقظت وجلست وهي تنظر الى ماحولها ، فلما رات رودريك صاحت : « ويلاه اني لا ازال حية . ولايزال هذا الشرير امام عيني . كنت احسب اني نجوت منه بالموت ! »

اما رودريك فاغضى عن ذلك ووجه خطابه الى العجوز وقال : « ارايت ما الذي فعلته فلوريندا بنفسها لطيشها وغرورها ? . اعرض عليها السعادة فترفضها ? » . فلم تجد العجوز جوابا غير البكاء لانها توهمت ان نجاة فلوريندا مستحيلة . على انها لم تجد سبيلا غير التزلف . فجثت امام رودريك وقالت ودموعها تتساقط : « اتقدم الى مولاي ان يرفق بهذه الفتاة المسكينة ويتركها وشانها . فان في قصره وتحت امره مئات مثلها » . فاستاء رودريك من قولها وكان يتوقع مساعدتها فرفسها برجله وهو يقول : « اليك عني يا عجوز النحس . وانت ايضا ? » فخرجت العجوز وقد تذكرت الموعد الذي جاءهما من القوطس فقالت في نفسها لعل مع القوطس رجالا يصعدون الينا فينقذونها من بين يديه بالقوة ، فهرولت الى الحجرة وفتحت النافذة فتحا قليلا فعصفت الريح في وجهها وبللها الماء ونظرت الى جهة النهر فلم تجد نورا مثلثا ولا غير مثلث ، فاقفلتها وعادت الى الصلاة !

اما رودريك فاقفل الباب وعاد الى فلوريندا وهي ما زالت جالسة على البساط في الغرفة . وقد استراحت وعادت اليها قوتها وتصاعد الدم الى وجهها برد الفعل فعاد اليه الاشراق . ولكن الكآبة ما زالت غالبة على منظرها . فدنا رودريك منها وهو يمد يده الى منطقته ثم اخرجها وهو قابض بها على خنجر ابرق فرنده وكانه يقطر سما ، وبيده الاخرى شيء كالخاتم يلمع ثم مد يده اليها وهو يقول : « لقد

لقد صبرى يا فلورندا فها انى عارض عليك السعادة لآخر مرة وسأ
ان تقبليها ، وهذا خاتمى عربون على ذلك . واما ان اغمد هذا الخنجر
فى صدرك فى هذه اللحظة . اجيبى حالا .. ! »

فنهضت للحال وتصدت له وهى تقول : « اغمده . اغمد خنجرك
فى صدرى وارحنى من هذه الحياة . ويا حبذا الموت الذى القى به
وجه ربى بريئة طاهرة . اقتلنى يارودريك . اقض ! »

فقال لها : « امعنى الفكر ولا تظنى انى اقول ذلك للتهديد . انى
فاعله حالا . وان عقلت واجبت سؤلى اخذت هذا الخاتم عربون
محبتى لك وكنت اسعد بنات طليطلة ! »

قالت : « انى لا ارهب الموت فداء العفاف والطهر . الموت خير لى .
الا اذا رجعت الى رشدك وندمت قبل فوات الفرصة ـ لانك نادم فى
اى حال . فاذا ندمت بعد ارتكاب هذا المنكر لاينفعك ندمك شيئا ،
واذا قتلتنى فانك تندم على قتل فتاة بريئة طاهرة لا ذنب لها الا
اصرارها على العمل بوصية الله » ثم حولت وجهها نحو السماء وقالت :
« يا ايها المخلص المجيد . ربى والهى . الا كشفت لهذا الرجل فظاعة
ما هو مقدم عليه ؟ ! اقشع غشاوة الجهل عن عينيه »

فضحك رودريك وقطع كلامها وقال : « اظنك تتوقعين قصف
الرعد ووميض البرق جوابا على كلامك كالمرة الماضية . كلا . فما
نحن فى عصر المعجزات ! »

□

وفيما هو يريد اتمام كلامه ، والخنجر مشهر بيمينه كأنه يهم بان
يطعنها به ، سمع وقع اقدام غريبة فى ممر القصر ، فانصت ، فسمع
تلك الخطوات تقترب من الغرفة وهى تسرع ، فخفق قلبه واقشعر
بدنه ، وعاد اليه الاحساس الدينى الذى ربى فيه . فخيل له ان الله
استجاب دعاء فلورندا فارسل بعض ملائكته لانقاذها

فمضى رودريك وفلورندا نوانى قليلة فى حيرة ، وهما واقفان
وابصارهما شاخصة نحو الباب ينتظران ما يكون ، وفلورندا ترتعش
تخشعا ورهبة . واما رودريك فانه ارجع الخنجر الى مكانه ومشى الى
الباب وهو ما زال يسمع خطوات القادم تقترب . وقبل الوصول
الى الباب سمع قارعا يقرعه قرعا عنيفا ارتجت له جوانب القصر ،
وارتعدت فرائص رودريك ، ولم يتمالك ان اسرع الى فتحه . ولا
تسل عن دهشته واضطرابه لما راى اوباس داخلا وهو فيما يعرف
به من الهيبة والرزانة ورباطة الجاش ، والماء يقطر من اردانه !

اما فلوروندا فتوهمت لما رأته انه ملاك لابس ثوب اوباس ، وظلت واقفة وقد ملكت البغتة كل جوارحها حتى علق ريقها في حلقها وامسكت تنفسها !. واما رودريك فلم يسعه عند رؤية اوباس الا اظهار استغرابه من جسارته الى هذا الحد فقال له : « ما الذي جاء بك الى هنا في هذه الساعة ؟ . وكيف دخلت هـذا القصر بغير استئذان ؟ ! » . فأجابه اوباس وهو لايبالي كأنه يخاطب غلاما وقال : « اما الذي جاء بي فهو امر يهم المملكة سأعرضه عليكم . واما دخولي بلا استئذان فجلالة الملك يعلم ان امثالنا لا يستأذنون في الدخول على الملوك او مخاطبتهم ، وهم يخاطبون الله بلا استئذان ! »

ففهم رودريك انه يعرض بسلطة الاكليروس خصوصا الاساقفة ، فانهم هم الذين اجلسوه على الكرسي . ولكن اوباس لم يكن منهم للاسباب التي قدمناها ، فساءه ذلك التعريض ولكنه كان شاعرا بارتكابه ذنبا عظيما . والمذنب يغلب عليه الضعف والارتباك ولو كان ملكا ، خصوصا بين يدي رجل مهيب مثل اوباس . فعمد الى تغطية ذنبه بالمغالطة ، وقد عول على ان يصرف اوباس ثم يعود الى فلوروندا فقال له : « انتظرني في الدار العامة ريثما آتيك »

قال : « لو كان الامر الذي جئت به يحتمل الانتظار ماجئتك في هذا الليل تحت سيول الامطار » . قال ذلك ومد يده نحو فلوروندا وهو يظهر انه يخاطب الملك وقال : « واذا فتحت النافذة المطلة على النهر تحققت الامر الذي قلته لك . ورأيت الامطار بل الثلوج تتساقط ، فلو لم يكن مجيئي لامر ذي بال ما عكرت على الملك راحته . اني لا اخرج من هذا المكان الا معك ! »

وكانت فلوروندا كلها مسامع ولواحظ لما يقول اوباس او يشير اليه . فلما سمعت ما ذكره عن النافذة ادركت انه يشير الى الموعد المضروب لانقاذها ففرحت . اما رودريك فالتفت الى فلوروندا وأشار اليها ان « اذهبي الى غرفتك ريثما اعود » وخرج مهرولا . واوباس لا يغير مشيته ولا يكترث بانهماك الملك واستعجاله . فلما وصل رودريك الى آخر الممر التفت خلفه فرأى الباب مفتوحا فتذكر انه نسيه بدون اقفال فعاد وأغلقه كأنه يحاذر ان يختطفوا فلوروندا من بين يديه . ومشى واوباس لا يكترث لتلك الحركات حتى وصلا الى الدار العامة حيث ينعقد المجلس عادة . فجلس ودعا اوباس الى الجلوس فقال هذا : « ان الامر الذي جئت من اجله لا يصح ذكره في هذه القاعة » فاستغرب رودريك جوابه وقال : « واين اذا ؟ » . قال : « في

غرفة منفردة على حدة » . فنهض رودريك وقد ساءه هذا التعنت ومشى معه الى غرفة منفردة فيها مصباح نوره ضئيل. فجلس اوباس بين يديه . ولم يستطع هوصبرا فقال : «قل ياحضرة الميتروبوليت» فقال : « جئتك بأمر تعالى الله الى تبليغك اياه » . فانصت رودريك وتطاول بعنقه لسماع ما يقوله . فقال اوباس بصوت هادىء على عادته : « ان الله خولك سلطانا على الناس تحكم فيهم ، وتنصف مظلومهم ، وتضرب على ايدي الظالمين ، فلا تتخذ ذلك السلطان وسيلة الى ما يغضبه »

فبغت رودريك لما في خطاب اوباس من التوبيخ ، وقطب حاجبيه اشارة الى استهجانه تلك الجسارة وقال : « هل عندك كلام في غير هذه الشؤون ؟ » . فادرك اوباس انفعاله ، وانه انما يريد تحقير ورد التوبيخ اليه ، فلم يقبل منه ذلك فقال : « لعلك تظن ما اقوله وهما أو ليس بالامر المهم ! »

فقال رودريك وقد ظهر الغضب في وجهه : « لا ارى ما يسوغ لك الاعتراض على اعمالي في داخل قصري ، فاذا كنت تعلم امرا يتعلق بالاحكام بين الناس أو بالامن العام او بسياسة البلاد فتكلم ! »

فابتسم اوباس باستخفاف وقال : « الا تعلم ايها الملك انك مطالب بكل حركة تجريها في منزلك وفي الخارج ؟ وان الصعاليك اقرب الى الحرية في تصرفاتهم من الملوك ؟ انك مؤتمن على ارواح الناس واموالهم واعراضهم ، وانما اعطاك الله هذا السلطان لصيانتها والدفاع عنها ، فتتخذه وسيلة لسلبها بنفسك ، فاذا جاءك ناصح انتهرته واحتقرته ؟ ما هذه اخلاق الملوك المؤمنين ! »

فأعظم رودريك تلك الجسارة وازداد حنقا لرزانة اوباس ورباطة جاشه وقال : « هل كان اخوك اقرب الى تلك الاخلاق مني ؟ »

▭

ففهم اوباس انه يعرض بخروج الملك من ايديهم تحقيرا له فلم يصبر على ذلك ، فقال وقد ارتفع صوته ولكنه ما زال هادئا : « دعنا من ذكر الاموات فلهم من يحاسبهم ، وانما نحن نحاسب الاحياء . على اني ما اظن غيطشة لو كان حيا يفعل مثل فعلتك . بل انا اجله عن الاقدام على مثل هذا المنكر ! »

فوقف رودريك من شدة الغضب وقال : « دع عنك ذلك كله فما هو من متعلقاتك ، لاني اعلم بواجباتي منك » . قال ذلك وتحول عنه اشارة الى رغبته في اقفال الحديث ، ولكن اوباس ظل جالسا وقال :

« لو كنت تعرف واجباتك ما اردت السوء بفتاة طاهرة وانت ذو امرأة . وبدلا من أن تستغفر عن هذه الفظيعة تدافع عنها ! »

ثم وقف واتم كلامه قائلا : « واعلم يارودريك ان اشتغالك بهذه الامور واهمالك كلمة الله ووصاياه ، من اول الادلة على قرب انقضاء هذه الدولة »

فلما سمع رودريك تهديده بقرب انقضاء دولته التفت اليه وهو يقول : « اراك تهددني بخروج الملك من يدي ! انكم لن تستطيعوا ذلك ولو ملأتم الدنيا مؤامرة واستعنتم بقوات الارض والسماء ! »

قال : « اذا كان لنا نصيب في هذا الملك ، فان قوات السماء تقدر على اخراجه من يدك »

ولم يتم اوباس كلامه حتى راى باب الحجرة قد فتح ، ودخل الاب مرتين بغتة وهو يهرول ويتمتم كأنه يريد التكلم ويمنعه التلجلج من شدة التأثر . ثم نطق فخرج كلامه مقطعا موصلا مختلطا يشبه قوله : لا ب . . ت . . ت . . تهدد جلالة الملك ب . . . ت . . ب . . باخراج الملك من يده ؟ يا للوقاحة و ق . . ق . . قلة الادب ؟ ! » ولم يتم الاب هذه الجملة حتى امتلأت لحيته باللعاب المتطاير من فمه ، فلما فرغ من الكلام تشاغل بمسح لحيته وجعل يخطر في ارض الغرفة بسرعة وهو مطرق ولا يزال يتمتم : فادرك اوباس انه يتهمه زورا ليوقع الشبهة عليه ، فسكت استخفافا

واما رودريك فانه سر لهذه التهمة ، وتظاهر بالغضب والانتصار وقال : « لاباس يكفي الآن ما سمعناه من حمق وشر ! » . قال ذلك وتحول من الغرفة فتبعه الاب مرتين ، فنهض اوباس وهو لا يبالي بما رآه وانما همه نوره بانقاذه فلورندا من بين يديه !

وكان السبب في مجيء اوباس الى القصر انه لما دنت الساعة المعينة جاء اجيلا وشنتيلا الى منزل اوباس فامرهما باعداد قارب للنزول به في النهر ، فنزلوا به فتساقطت الامطار وعصفت الرياح واضطرب الجو فهاج النهر ولكنهم لم يبالوا بذلك بل عدوه في بادىء الراي مساعدا لهم على اخفاء خطواتهم ، فوصلوا تحت القصر وفلورندا في الغرفة مع رودريك ، وخادمتها في الحجرة تصلي وقد اغلقت النافذة فصعد الشابان ومعهما اوباس لايبالون بالامطار والزوابع حتى وقفوا تحت حجرة فلورندا عند تلك الشجرة الجرداء دون ان ينتبه لهم احد من الحراس ولا الحاشية . فاشار اوباس الى شنتيلا ان يتسلق الشجرة ويقرع النافذة فتسلقها حتى وقف على الغصن المقابل

للنافذة فقرعها بطرف حسامه قرعا خفيفا . ثم قوى القرع فلم يجبه احد لان العجوز كانت قد خرجت بكأس الماء لترش فلوريندا . فنزل شنتيلا واخبر اوباس بأنه لم يسمع جوابا . فوقف هذا برهة يتأمل وقال في نفسه لو كانت فلوريندا مطلقة السراح لم يكن ليشغلها عن هذه النافذة شاغل . فلا بد من ان تكون في ضيق . ولا بأس عليها الا من رودريك ! وتخيل انها في اشد الخطر . وانه ان تأخر عنها قد يقضي عليها . فأمر الرجلين ان يربطا القارب بجانب القصر ويمكثا عنده : وحالما يسمعان فتح النافذة يصعدان على الشجرة ويحملان فلوريندا وما معها

قال لهما ذلك وتحول الى باب القصر العام ، وسأل الحراس عن الملك فقالوا انه في القصر . فدخل ولم يعارضه احد لان الاساقفة كثيرا ما يدخلون على الملوك خصوصا ان الاكليروس كانوا اكثر تدخلا في شؤون اسبانيا مما في سائر ممالك اوربا تقريبا . وعلى الاخص في عهد رودريك لانه انما تنصب بمساعدتهم

نعم ان اوباس لم يكن من الذين انتخبوه . ولكن الحرس الواقفين بالباب لايهمهم التمييز بين اسقف وآخر . وانما يكفيهم النظر الى الثوب الاكليريكي . فضلا عن ان هيبة اوباس تكفي وحدها لاحترامه واطاعة اوامره . وخصوصا في تلك الساعة وقد زادة الاهتمام جلالا ووقارا

دخل اوباس من ابواب القصر الواحد بعد الآخر لايعترضه احد . حتى اتى غرفة الملك وكان يعرفها جيدا لانها كانت غرفته من عهد غير بعيد . فسأل الحراس عنه فقالوا انه دخل غرفته ولا يدخل عليه احد فيها . فلم يبال بأقوالهم وكان رودريك قد حسبها غير موصدة فدخلها فلم ير فيها احدا . ورأى باب الممر المؤدي الى قصر فلوريندا مفتوحا فدخل وما في الدار احد من الخدم . فمشى مشية من لايهاب ملكا . وجعل يبحث بنظره فرأى تلك الغرفة مقفلة وسمع لغطا فلم يتمالك ان ضرب الباب ثم دخل . فأدرك من مجرد النظرة الاولى الى وجه فلوريندا انها مغصوبة سالبة . ورأى ان يبعد رودريك عنها ريثما تستطيع الذهاب الى حجرتها وتنجو من هناك . فطلب الخلوة بالملك على ما تقدم

— ٥ —

خرج رودريك من تلك الغرفة وقد اخذ الغضب منه ماخذا عظيما والاب مرتين يتبعه وهو يتمتم ويهز راسه على مراى من الملك استغرابا من وقاحة اوباس ! وكان يظن الملك لا يعارفه الليلة حتى يتآمرا على الايقاع باوباس ؛ ولكنه ما لبث ان رآه قد تحول عنه راجعا الى غرفته . فجلس على مقعد فى احدى طرقات القصر ثم نهض ورجع الى قصر فلوروندا وفؤاده يتقد حنقا وكيدا . ولا تسل عن حاله لما لم يجد احدا فى كل ذلك القصر . ورأى حجرة فلوروندا مشوشة خالية من الادوات الخفيفة الحمل الغالية الثمن !

عاد رودريك الى غرفته وهو يكاد يتميز غيظا ، وبعث الى قيم قصره فى تلك الساعة فجاءه ، فابتدره بالسؤال عمن خرج من القصر فى تلك الليلة . فاهتم القيم بالامر وسأل الخدم فقالوا انهم يقيمون فى الطبقة السفلى ولا يؤذن لهم بالصعود مطلقا . وهم على ثقة ان باب القصر لم يفتح فى تلك الليلة ، وانهم لم يروا احدا خارجا من مكان آخر لان الظلام كان مخيما . وقد منعهم سقوط المطر وهبوب العواصف من الانتباه لما يحدث خارجا . فسألوا الحراس فكان عذرهم انشغالهم بالنوء والعواصف عن كل شاغل . واخيرا بحثوا فى الطريقة التى يمكن الفرار بها فاذا هى النافذة المطلة على النهر . ورأوا على نواتىء الاغصان اليابسة نتفا من الفرو تناثر من رداء فلوروندا

تحقق رودريك عندئذ ان اوباس شاركها فى ذلك الفرار فعزم على الايقاع به وعاد وقد انهكه التعب واثر الفشل فى عزائمه . واحس كأنه افاق من سكرة فاحب الخلوة . وذهب الى فراشه فتقلب على مثل الجمر وهو لا يستطيع رقادا . وقلبه يتقد حنقا من اوباس فلم يرَ ما يفرج كربه الا استدعاء مرتين مستودع اسراره ؛ فنهض من الفراش حتى لقى احد الحراس الواقفين ببابه فامره ان يستقدم الاب على عجل ، ولو كان فى فراشه !

فذهب الحارس وقرع باب مرتين ، وكان قد خلع ثيابه وتدثر بقميص النوم وجلس فى الفراش وبدا بصلاة النوم . فوقف الرجل خارجا حتى فرغ الاب من الصلاة ؛ ثم دخل عليه وابلغه امر الملك باستقدامه . ففرح لعلمه انه لم يدعه الا للايقاع باوباس ؛ فنهض للحال وهو ما زال بذلك اللباس وتزمل فوقه برداء واسع من الفرو ، ولم يضع القلنسوة على راسه وكان شعره منفوشا ابيض كأنه كتلة

من القطن فوق راسه ، ومشى حتى دخل على الملك الذى كان هو ايضا فى نحو ذلك من القيافة الغريبة بعد تقلبه فى الفراش ، وقد اختلطت صغائر راسه بشعر لحيته وشاربيه ، واثر الغضب والفشل فى سحنته ! فلما دخل مرتين عليه شعر بارتياح لرؤيته ، فنهض لاستقباله وقبل يده ودعاه للجلوس بجانبه مجلس وهو يقول : « ارجو ان يكون مولاى الملك قد دعانى لامر يسره »

قال : « لا اظنك تجهل السبب الذى دعوتك من اجله . وقد كنت فى هذا المساء ناظرا سامعا لما كان من اوباس ! »

فراى مرتين من باب التملق ان يقطع كلام الملك ويقول : « انها وقاحة غريبة ليس اغرب منها الا صبر مولاى الملك عليها . . ! »

فقال رودريك : « حقا انها لوقاحة لم اكن اتوقعها من قوم قد اذقناهم الذل واخذنا الحكم من ايديهم . الا يخاف اوباس عصى ! »

فقال مرتين : « اظن مولاى الملك لم ينتبه لفحوى اقواله . واوباس مشهور بقلة الكلام وكثرة الفكر ، واذا قال كلمة يجب التمعن فى فحواها لانه لا يتكلم عن هوى ولا يلقى الكلام جزافا ! الم نسمع قول لجلالتكم : « اذا كان لنا مطمع فى الملك فان قوات السماء تقدر على اخراجه من يدك ! ! انها جسارة غريبة تدل على ما بعده من الشراك والمكايد . ولا اظنه الا يعقد المجالس السرية ويعاقد الاعداء على خلع الملك ، ولكنه خائب لا محالة ! »

واحس رودريك عند سماع هذا التعليل بارتياح لانه كشف بابا لاتهام اوباس والقبض عليه وعلى من فى منزله ، لعله يجد فلوريندا بينهم ، وقد غلب على خاطره انها فرت الى هناك اذ ليس لها من الاقارب احد ، خصوصا بعد ما ظهر له من القرائن الكثيرة فقال : « ما الراى يا حضرة الاب فى هذا الخائن ! »

قال : « الراى أن تقبض عليه حالا فى هذه الساعة قبل ان يذهب او يدس الدسائس . لانه خرج من قصرك وهو يهددك . فلا تكن هينا ، لان الحلم فى هذا المقام ضعف ! »

ولم يكن رودريك فى حاجة الى هذا التحريض وهو اكثر رغبة فى ذلك ، فزاد على راى مرتين ان يقبض على اهل بيت اوباس ايضا ويسوقهم الى السجن . ثم قال : « الى بقائد الحرس الملكى ! »

فخرج مرتين وامر بعض الحرس باستقدام القائد ، وعاد الى غرفة الملك

اما اوباس فانه نهض بعد ان تركه الملك ، وسار على عجل الى

منزله لموافاة فلورندا والخادمين وتدبير وسيلة لاخراجها من طليطلة ؛ فلما وصل وعرف من الخدم ان احدا لم يصل قبله اشتغل خاطره وخشي ان يكون اصابهم سوء ؛ فاعمل فكرته وعلل نفسه بقرب وصولهم حتى مل الانتظار . فعول على الخروج بنفسه للبحث عنهم في الطريق الذي كان يتوقع ان يجيئوا فيه ، لكنه ما لبث ان سمع ضوضاء ووقع حوافر خيول امام القصر واطل من شرفة القصر والظلام لا يزال حالكا فرأى جماعة على افراس دنوا من القصر واحدقوا به عن بعد دون ان يخاطبوا احدا من اهله . ولم يستطع لشدة الظلام ان يبين الوجوه ولكنه ادرك بفراسته انهم من رجال رودريك وقد جاءوا لامر يوجب قلقا ! على انه لم يخف على نفسه لرباطة جأشه ولاعتقاده ببراءة ساحته واعتماده على عزيمته وقوة حجته ؛ ولكنه خاف على فلورندا ورفاقها لانهم اذا جاءوا في تلك الساعة وقعوا في الشرك لا محالة

واعمل فكرته هنيهة فرأى المبادرة الى ان يحول الى غرفته فتزمل بالقباء وخرج الى السلم ونادى اقرب فارس اليه فجاءه وترجل وحياه باحترام . فقال اوباس : « ما الذي تفعلونه هنا ؟ »

قال : « اننا مأمورون بالوقوف هنا الى الصباح »

قال : « ومن امركم بذلك ؟ »

فسكت الرجل وحول وجهه الى جهة اخرى ونادى ضابط تلك الكوكبة . فجاء الآخر وترجل وحيى اوباس وهم بتقبيل يده . فاجتذب اوباس يده بعنف وقال : « من امركم بالوقوف هنا وما الغرض منه ؟ »

قال : « امرنا به من ينوب عن الملك . ولماذا اقلقت راحتك وخرجت في هذا الليل من فراشك ؟ . نم مستريحا »

قال بنغمته الهادئة الاعتيادية : « افصح يا هذا عن الغرض من وقوفكم هنا او ارجعوا من حيث اتيتم »

فقال وهو يخفض صوته تهيبا من اوباس : « اننا مأمورون بالقبض على قداستكم حالما تهمون بالخروج من هذا المنزل »

فاستشاط اوباس غضبا ولكنه ظل هادئا وقال : « مأمورون بالقبض على ؟ ! ومن امركم بذلك ؟ ! » . قال : « يعفوني مولاي فاني مأمور لا يسعني الا الطاعة . اننا مأمورون من قائدنا الاكبر بناء على امر مولاي الملك ، فهل تستطيع مخالفة الامر »

قال : « كلا . بل انا احرضكم على الطاعة دائما » . قال ذلك واعمل فكرته للمسارعة في الامر خوفا من وصول فلورندا في تلك

الساعة فقال : « انى خارج الآن معكم . ولا حاجة بكم الى انتظار الصباح »

قال الرجل : « ما فى الامر يا مولاى ما يدعو الى هذا القلق . فلو مكثت فى منزلك شهرا ما مسسناك » قال : « بل انا خارج الساعة . هلم بنا »

فأشار الضابط الى فرسانه اشارة يفهمونها . فتجمهروا واتوا بجواد ركبه اوباس وساروا به وهو فى وسطهم والكل سكوت لا يجسرون على التكلم فى حضرته . اما هو فكان فى اثناء الطريق يفكر فى الامر الذى ساقوه لاجله وقد عزم على الثبات والتجمل . غير ان ذهنه ما زال مشتغلا بفلورندا وخاف ان يشتغلوا بها فى ذلك الطريق . فلما وصلوا باوباس الى قصر الملك هم بالترجل فأشار اليه الضابط انهم مأمورون بسوقه الى مخفر بقرب القصر الى الصباح . وقال الضابط : « ولهذا السبب قلت لفخامتكم ان تبقوا فى منزلكم الى الصباح لاننا اردنا بذلك المحافظة على راحتكم »

فاقتنع اوباس باخلاء الطريق لفلورندا ولو الحق بنفسه بعض العنف ريثما يلقى الملك ويرى ما يريد منه . فدخل غرفة فى بيت بجانب القصر . والحرس بالباب . فقضى بقية الليل يخطر فى تلك الغرفة ذهابا وايابا وهو يفكر فيما عسى ان يكون غرض الملك من القبض عليه . وخطرت له خواطر كثيرة وهو يخشى ربما يتهمه رودريك بها . وما كان يهتم بشىء او يهاب الموقف لو انه اطمأن الى نجاة فلورندا

وكان ينتظر طلوع الفجر وتبدد جيوش الظلام رغبة منه فى الاطلاع على سر هذه الدعوة . ولكن مضى بعض النهار دون ان يطلعه احد فازداد قلقه فاستدعى رئيس الحرس وسأله : « وماذا عسى ان يكون آخر هذا الاسر ؟ »

فقال : « لا ادرى يا سيدى . فعسى ان يكون خيرا . ولو عرفت سر ذلك ما اخفيته على سيادتكم »

قال : « انى فى حاجة الى منزلى . فاذا لم يكن هناك ما يدعو الى سرعة المقابلة فاطلقوا سبيلى ثم اذا اراد الملك منى امرا جئته »

فنظر الضابط الى اوباس وفى عينيه خبر يتردد بين كتمانه واظهاره . فادرك اوباس ذلك فيه فقال : « ما الذى تضمره ؟ قل »

فقال : « انك اذا ذهبت الى منزلك لا تجد فيه احدا »

فبهت اوباس وقال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « لانهم قبضوا على كل من فيه من الخدم والعبيد ، وهم فى السجن الآن وابواب المنزل مقفلة ! »

فلما سمع اوباس قوله تحقق عزم الملك على الفتك به جهارا ؛ ولولا رزانته لبدت المحنة على وجهه . ومما زاد قلقه خوفه على فلورندا ، اذ تبادر الى ذهنه انهم لم يقبضوا على اهل منزله الا لانهم رأوها فيه ؛ على انه لم يبال بالامر بل نظر الى الضابط وقال بسكينة وتعقل : « لن يعصمهم ذلك شيئا » . ثم تحول الى الداخل فخرج الضابط الى مكانه

وكان ذلك الضابط ممن يعرفون فضل اوباس وعائلته ، ولكنه كان واكثر رجال الدولة مسوقين مع التيار الاكبر ، يرون الحق ويقولونه ولكنهم لا يعملون به — شأن الدول فى انحلالها وتقهقرها ، فانها لا تخلو فى اثناء ذلك الانحلال من رجال عقلاء يشعرون بما اصاب دولتهم من الخلل ، وينتقدون اعمال حكومتها فيما بينهم وهم خارج المناصب ، ويزعمون انهم لو اتيح لهم الوصول الى تلك المناصب لادخلوا فى الحكومة اصلاحا كبيرا . فاذا تولى احدهم رأى نفسه مضطرا الى مجاراة التيار كما فعل اسلافه ؛ واذا حاول مقاومته عرض نفسه للخطر . ويندر ان يقوى بقاؤه على عزمه القديم وهو فى منصبه لعجزه ، وهو فرد ، عن مقاومة مجارى الاحوال — وهى انما تصل الى تلك الدرجة من الانحطاط بتوالى الاجيال . والبدن اذا بلى بالضعف من الهرم لا يرجى عوده الى الشباب ، الا ان يكون المصلح فى اكبر المناصب . فقد يأتى باصلاح ذى بال ولكنه يذهب بذهابه

وقد كان فى طليطلة كثيرون ممن يرون الخلل المنتشر فى الدولة ، ولكنهم لم يكن لهم سبيل الى مناصبها الكبرى . واما صغار المستخدمين فليس لهم الا التذمر والكظم كما كان شأن ذلك الضابط

▭

جلس اوباس على احد مقاعد تلك الغرفة ، واستغرق فى الهواجس حتى مضى بعض النهار . فلما رأى الخادم آتيا اليه بالطعام تحقق ان نكبته ستطول ، فزاد قلقه وابى الطعام ورد المائدة ، واستقدم الضابط وقال له : « انى لا استطيع طعاما قبل ان اعرف سبب هذه المعاملة ! »

فقال : « ارى يا مولاى ان تكتب كتابا احمله الى مجلس الملك ، لعلى آتيك بالجواب الشافى » .

فاستخرج اوباس من جيبه لوحا مشمعا كتب عليه بالمسمار

ما معناه « حملني جندك الى هذا المكان بلا ذنب اقترفته . والملك يعلم ان رجال الكهنوت لا تجوز معاملتهم على هذه الصورة ، وانما هم تحت سيطرة الكنيسة . فلا ادرى سبب هذا السجن . الا ان يكون ذلك من جملة ما تطرق الى حياة هذه الدولة ! »

فحمل الضابط الكتاب وسار به الى القصر ، ولم تمض برهة حتى عاد وهو يقول : « ان الاب مرتين داخل لمقابلة قداستكم »

فلم يسر اوباس لمقدمه الا على رجاء ان يستطلع منه سبب ذلك الاسر ، وقد علم انه اتى بامر الملك . فظل جالسا حتى دخل مرتين مهرولا وهو يتمتم كأنه يتلو بعض الادعية ، ووقف بين يدي اوباس فحياه ، وتظاهر بانه يهم بتقبيل يده مراعاة لرتبته الكهنوتية ، فلم يبال اوباس بذلك بل ظل ساكتا . فجلس مرتين على كرسي تجاه المقعد وهو يبتسم

وبعد ان تنحنح الاب ومسح وجهه ولحيته غير مرة استعدادا للكلام ، قال : وهو يقطع الكلام تقطيعا : « قد بعثني مولاي الملك لابلغ قداستكم انه يعلم اعتبارات الكهنة ، وانه لا يجوز سجنهم او محاكمتهم الا في مجالس كهنوتية ، ولكنه انما امر بالقبض عليك مؤقتا ريثما يلتئم مجلس الاساقفة وينظر في امرك »

فلما سمع اوباس قوله زاد استغرابا ولم يفهم المراد تماما ، لان مجمع الاساقفة انما يجتمع مرة في السنة او مرتين ، ولا يجتمع فيما عداهما الا للنظر في امور غاية في الاهمية ، كانتخاب الملك ، او البحث في خطر يتهدد المملكة ، او غير ذلك ، كما ان اجتماعه يقتضي مكاتبة اساقفة الاقاليم والمطارنة مما يستغرق اياما عديدة . فاطرق اوباس واعمل فكرته في هذا الامر ولم يجب

وكان الاب مرتين لما فرغ من قوله قد تفرس بصره في اوباس ليستطلع ما يبدو منه ، وكان يتوقع استياءه وغضبه ليتنفى ما في نفسه . فلما رأى انه لم تظهر عليه علامات الاضطراب توهم ان ذلك ناتج من عدم ادراكه خطر ما يترتب على ذلك الاجتماع فقال : « ولا يخفى على قداستكم ان جمع الاساقفة يقتضي في العادة زمنا طويلا ، ولكن نظرا الى مجيء اكثرهم الى طليطلة لتهنئة مولاي الملك بعيد الميلاد فلن يطول الانتظار في جمع المجمع »

ثم اراد ان يلمح له بالتهمة الموجهة اليه فقال : « ويسوءني يا صاحب القداسة ان تعرض منك اقوال تدعو الى اساءة ظن الملك كما فعلت في مساء الامس . وهل كان يليق بمثلك ان يهدد مولاي بالخلع مما لـ

اكن لاصدقه لولا وجودي وسماعي اباه باذني ، وقد لحتم بمثل ذلك ايضا في كتابكم اليه الآن ! ! »

□

فادرك اوباس انهم يريدون محاكمته بتهمة سياسية ضد الملك ، فاستعظم التهمة ولكن باله استراح لوقوفه على حقيقة الخبر ، فلم ير فائدة من الكلام مع مرتين في هذا الشان ، علاوة على انه يشفى غله بذلك الكلام ، فوقف بهدوء ورزانة وقال : « صبرا الى يوم الاجتماع . وكأن رودريك لايريد ان يبقى عندى شك بقرب سقوط دولته فزادني بعمله يقينا بدنو اجلها ! » . قال ذلك ومشى دون ان يترك للاب مرتين فرصة للجواب . فنهض هذا وقال وهو يظهر الشفقة عليه : « الا تزال تقول ذلك ؟ يا للعجب ! . كيف يطاوعكم ضميركم على المؤامرة ضد الملك وسلطانه وحياته . وانتم تعلمون ان الكنيسة هي التي نصبته باجماع اساقفتها ؟ ! »

فادرك اوباس انه يريد التطويل لمضاعفة التهمة عليه وشفاء غله . فتركه يتكلم وتحول عنه الى نافذة تطل على الحديقة . فلما رأى مرتين ذلك منه ضحك وهرول مسرعا نحو الباب ونادى الضابط وقال له : « يامرك الملك ان تحتفظ بهذا السجين لان امره ذو شان ، واحذر ان يفلت منك ! » . وخرج الاب مرتين ظافرا منتصرا لولا ما ساءه من رباطة جاش اوباس وثباته وصبره . اما اوباس فانه عاد الى اعمال الفكرة وباله ما زال مشغولا على فلورندا . فتذكر الفونس وخروجه بالامس لقيادة الجند . فاراد الاستفهام عن مقره فعاد الى الباب واستدعى الضابط وسأله : « هل علمت بخروج الامير الفونس من طليطلة ؟ »

قال : « علمت ان فرقة خرجت من طليطلة بالامس . ولا ادري اذا كان الامير معها ام لا . »

ففرح لاوباس ان الفونس سافر مع تلك الفرقة . ولكنه ظل مشغول الخاطر على فلورندا لايدري الى اين آل امرها . وخاف ان تكون قد وقعت في الاسر في حملة اهل منزله . وهم انما قبضوا عليهم من اجلها ... وود لو استطاع استطلاع امرها من احد . وحدثته نفسه ان يستفهم الضابط لكنه خاف عاقبة ذلك . ولم يغره ما بدا من انس الضابط وحسن معاملته لعلمه ان الذين يطابق ظاهرهم باطنهم قليلون . وان منهم الذين ينسبون على ترمهم فيما تدعوهم اليه ضمائرهم . فخاف ان هو كاشفه حديث فلورندا او تظاهر لديه

بالاهتمام بها ان يبوح بذلك لدى احد فيتخذ حجة عليه ؛ مع ثقته في اخلاصه وولائه

وهكذا قضى أوباس في مخبئه بضعة ايام وهو ينتظر التئام المجمع ، ولم يوفق الى سبيل للاستفهام عن فلورندا ولا اتفق له سماع شيء عنها !

▭

اصبح أهل طليطلة ذات يوم وقد دقت فيها النواقيس وزينت الشوارع – خصوصا الشارع الكبير المؤدي من قصر الملك الى الكنيسة الكبرى – واشتغل العبيد بكنسها وتنظيفها ، ووقف الحرس صفين بين القصر والكنيسة وفي أيديهم الحراب وعليهم اللباس الرسمية التي يلبسونها في الاحتفالات الكبرى . فتساءل الناس عن سبب ذلك وتقاطروا الى الشارع الكبير ، وتطاولوا من النوافذ واشرفوا من السطوح يتوقعون مشهدا جميلا !

وكان يوما صاحيا تحتجب به الشمس على أبنية طليطلة وسورها وبساتينها . فلما كان الضحى عج الشارع بالضوضاء ، فالتفت الناس فاذا هناك فرقة من فرسان الحرس الملكي باللباس المزركشة قد خرجوا من قصر رودريك يأمرون المارة باخلاء السبيل لموكب الملك . وعلى بضعة عشر مترا وراءهم زمرة من الشمامسة بالالبسة الزاهية تحللها الوشي المذهب ؛ بعضهم يحملون صلبانا قائمة على عمد ، والبعض يحملون الشموع ولكن قلما يظهر نورها لطلوع الشمس ، فضلا عن ان اكثرها طفيء بهبوب الرياح لان فصل الشتاء في طليطلة وان كان صافيا فانه لا يخلو من الريح الهابة لوقوعها على جبل . وبعضهم كان يحمل اغصانا من الزيتون ، وآخرون في ايديهم المباخر يتصاعد منها البخور وهم يرتلون ترانيم لاتينية . وبعد حملة الشموع فرس عليه رودريك ساخطا وحوله الاساقفة بملابسهم الرسمية ووراءهم المطارنة والشمامسة وغيرهم من رجال الاكليروس . ووراء ذلك كوكبة من الفرسان . فلما رأى أهل طليطلة ذلك الموكب علموا ان الاساقفة قادمون للاجتماع ، ولكنهم استغربوا ان يتم ذلك في غير موعده المعتاد

وكانت المجامع الدينية في اسبانيا ثلاث درجات : المجامع الكبرى ، والمجامع الاقليمية ، والمجامع الابرشية . فالاولى تجتمع بامر الملك في طليطلة للنظر في الامور المهمة المتعلقة بالمملكة كانتخاب الملك او المصادقة على قانون او نحو ذلك . منذ اجتماعه في ذلك اليوم للنظر

في التهمة الموجهة الى اوباس . والمجامع الاقليمية تجتمع في الاقاليم
بامر الاساقفة مرة او مرتين في السنة . والمجامع الابرشية يحضرها
رؤساء الاديار والقسوس والشمامسة ونحوهم . فلما رأى اهل
طليطلة موكب المجمع الاكبر في تيراوانه حاولوا ان يكون هناك ما يعوق
بحرف او نزن او توليه

ثم الموكب فظل سائراً حتى وصل الى الكنيسة فتنحى الفرسان
الى كل من الجانبين . واتخذ الشمامسة شموعهم ومشاعلهم
ومباخرهم الى قسمين . دخل كل قسم من باب جانبي . وترجل
الملك والاساقفة والمطارنة ودخلوا من الباب الاوسط . وكان خدمة
الكنيسة قد بكروا بتنظيفها ووضعوا المقاعد والكراسي في الترتيب
اللازم في هذا الاجتماع . واناروا الشموع وفتحوا الابواب . ووقفوا
ينتظرون الموكب ويمنعون كل من ارادوا الدخول اذا لم يكونوا ممن
يحق لهم حضور المجامع . من اساقفة طليطلة والاقاليم المشتركة
معها . والمطارنة ورؤساء الاديار والشمامسة والحوارنة وكبار رجال
البلاط الملوكي . فلما دخل الموكب الى الكنيسة اتخذ كل منهم
مجلسه . وكانت المقاعد قد رتبت صفوفاً متعاقبة جلس الاساقفة
على الاولى منها بترتيب الاعمار ووراءهم الاساقفة الصغار بحسب
الاعمار ايضاً ثم القسوس وامامهم الشمامسة واقفين . وفي وسط
القاعة امام تلك المقاعد كرسي خاص بكاتب سر المجمع . وهناك عرش
مزخرف اعدوه للملك . وبين يدي العرش مقاعد لمن يشهد الاجتماع
من خاصة الملك . اما الاب مرتين فكان المفروض لكونه قسيساً ان
يجلس بين القسوس وربما كان في مقدمتهم جميعاً لكبر سنه . ولكنه
فضل الجلوس بجانب الملك لسبب لا يخفى

ولما استقر كل واحد في مجلسه اقفلت ابواب الكنيسة واستولى
السكوت على تلك القاعة الكبرى برهة لا ينبس احد بكلمة . ثم تكلم
رئيس شمامسة الكنيسة وهو جاثٍ بجانب الهيكل فقال باللاتينية :
Oremus اي « فلنصل » . فكان لقوله هذا صدى قوي . اذ لم يكد
ينطق بتلك اللفظة حتى خر الجميع سجداً على ركبهم . واخذ كل
منهم يصلي لنفسه بصوت منخفض . ثم تلى صلواتهم اكبر
الاساقفة سناً بصلاة قالها بعلو صوته فاصغوا له . ولما فرغ منها
صاح الجميع « آمين » . ثم قال رئيس الشمامسة باللاتينية
(Surgite fratres) اي « انهضوا ايها الاخوة » . فنهضوا وعاد كل الى

مجلسه . وبعد ذلك افتتح الجلسة كاتب السر بتلاوة قانون الايمان
نؤمن باله واحد الخ ، على نحو ما تقرر في مجامع المسكونية .
ثم وقف شماس عليه ثوب أبيض ناصع ، وبين يديه كتاب ضخم على حماله بجانب مجلس كاتب السر وقد فتح الكتاب في مكان اختاره وكان الاساقفة وسائر الحضور ينتظرون ما سيتلوه ذلك الشماس ليعرفوا منه موضوع الاجتماع لأن ذلك الكتاب قانون المملكة ـ وكانت عادتهم اذا التأم المجمع ان يقرأ الشماس فقرات من ذلك القانون تتعلق بالغرض الذي اجتمعوا من أجله ـ فاذا هو يتلو مواد متعلقة بانتخاب الملك ومن يسعى في افساد نيات الشعب عليه او يعمد خلعه ونحو ذلك . فادرك الجمع الغرض من ذلك الاجتماع على وجه التقريب .

فلما فرغ الشماس من تلاوة تلك المواد وقف كاتب الجلسة ووجه خطابه الى الحضور قائلا : « ربما تستغربون ما تلوناه على مسامعكم والاحوال على ما تراءى لكم هادئة . ولكني اعلم قداستكم اننا اجتمعنا للنظر في تهمة موجهة الى أخ من اخواننا ـ ولا سيما انه اسقف من الاساقفة . ربما استغربتم عدم حضوره هذه الجلسة مع انه مقيم في طليطلة . ولا شك انكم عرفتموه » فلما قال الكاتب ذلك ضج الاساقفة وتهامسوا في شأن اوباس . واكثرهم لم يكن يعرف اتهامه بخلع رودريك لما يعلمونه من علاقته بالملك السابق وضعفه في الملك لابنائه . ثم قال الكاتب : « وستقدمه ويقف بين ايديكم وتفهمه التهمة . فاما أن يبرئ نفسه او يجري عليه القصاص »

فلما فرغ الكاتب من كلامه تكلم احد الاساقفة الجالسين في المقعد الاول وقال : « لابد لكل تهمة ممن يرجحها وممن توجه اليه . وقد علمنا ان المتهم هو اخونا اوباس . ولكننا لم نعلم من يتهمه بذلك ! »

فاجاب الكاتب : « انكم ستعلمون ذلك متى حضر »

فسكت الجميع وتربصوا ينتظرون قدوم اوباس وسماع محاكمته . فانفرد احد الشمامسة ومشى الى غرفة تشرف الى باب سري فتوجهت انظار الاساقفة الى تلك الجهة . ثم ما لبثوا ان رأوا اوباس داخلا بشيبته المعهودة وقامته المعتدلة وجلال محياه وهيبته . وليس على وجهه شيء من دلائل الاضطراب او الوجل . فلما وصل الى الساحة الوسطى امام مجلس الاساقفة اجال نظره فيهم ثم التفت الى مجلس الملك ولم يعر الأب مربي انتباهه كأنه لم يكن موجودا هناك . ووقف وقفة قاض لا وقفة متهم !

وقف وهو ينظر الى من حوله نظرة الى اناس ضعفاء . فلم يهمه

عددهم ولاما في أيديهم من السلطة النافذة . خصوصا الملك لأن أوباس
كان يعده غلاما غرا . وزاد احتقارا له بعد ما عابه من أمره مع
فاورندا . والرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم ، لا بمناصبهم ، وإن
كان الناس قد تعودوا احترام أهل المناصب والغنى والنفوذ ، ولكنهم
لايزالون في باطن سرهم يفضلون رجال الفضيلة ، ولايبدون احترامهم
لغيرهم الا تظاهرا ، خوفا من الظلم أو التماسا للنفع . على أن منهم
من يبالغ في اطراء أهل النفوذ حتى يخدعوا بأنفسهم ويزداد غرورهم ،
فاذا كثر أولئك المتملقون في بلاط ملك ضعيف اغتر بنفسه ، وانقاد
لأهوائه وعمل بمشوراتهم وهم لايصلحون للمشورة ، فتختل الأمور ،
ويسود أهل الفساد ، وتؤول الأحوال الى الدمار والعياذ بالله !

وكان أوباس ممن لايذعنون الا للحقيقة ولايخيفه الا الخروج عن
جادة الحرية . ولم يكن يشعر أنه حي لنفسه رغبة في الحياة الدنيا
أو طمعا في مناصبها أو ملاذها . ولكنه كان يرى نفسه منذ اعتزل
العالم وانتظم في سلك الكهنة أنه انما يعيش عبدا لمبدأ يراه مجسما
في مخيلته ، ويستغرب تغافل الناس عنه ـ كان يرى نفسه أسيرا
للحق ، عبدا للحقيقة وحرية الفكر ، لايعرف المداهنة ولا المراوغة ـ
فلا تعجب اذا رأيته واقفا في ذلك المجلس غير هياب ، وهو يرى
الحق أعظم منهم ، وأشد هيبة .. فلما وقف الكاتب ووجه خطابه
نحوه قائلا : « أبلغ سيادتكم اننا استقدمناكم الى هذا المجمع لتهمة
موجهة اليكم ، يتمنى كل واحد منا ان تكون باطلة فتبرأ ساحتكم ،
انكم متهمون بالمؤامرة على خلع الملك . ولا يخفى على سيادتكم ان مثل
هذه التهمة لا تمس الملك فقط ، بل هي تتناول هذا المجلس كله ، لأنه
هو الذي انتخبه وأقره » .

وكان الاب مرتين في اثناء كلام الكاتب شاخصا بعينيه ، متطاولا
بعنقه ، فلما سمعه يقول ذلك أشار باطباق جفنيه وهز رأسه أن
« أحسنت ! » لأنه حسب ذلك يريد نقمة الأساقفة وسائر أعضاء
المجمع على أوباس الذي لم يعبأ بما يبدو من أحد . فلما فرغ الكاتب
من كلامه استولى السكوت على الجلسة وتطاولت الأعناق لسماع
ما يقوله أوباس فاذا هو يقول بصوت هادئ : « سمعت كلامك وما
تقوله من أمر اتهامي ، ولكني لا أجيب عنه قبل أن أعرف الرجل الذي
يتهمني » .

فالتفت الكاتب نحو الملك وحنى رأسه كأنه يقول : « جلالة الملك
نفسه ! »

فقال اوباس : « وما هي ادلته على هذه التهمة ؟ » فلم يسع الكاتب الا الالتفات الى رودريك كأنه ينتظر جوابه على قول اوباس . فأشار الملك الى الاب مرتين ان يجيبه . فوقف مرتين وقد نسي الذي بمرباطه الجاش وعاد الى مطرفه المجولة . فلما رآه الاساقفة يهم بالكلام اصاخوا باسماعهم لما يقوله لئلا تعوزهم الفاظه بالتمتمة فلا يفهمون مراده ـ وعلى جوابه سيبنون حكمهم ـ فقال : « اتطلب الادلة على ثبوت التهمة عليك وكل القرائن تؤيدها ؟ ! يكفي انكم منذ كان الملك السابق حيا لا تزالون تسعون في خلع طاعة الكنيسة الكاثوليكية والرجوع الى الاريوسية ، وقد كان تنصيب جلالة الملك ضربة كبيرة عليكم جميعا ، فأخذتم تبذلون كل مرتخص وغال في مقاومته ولكنه مؤيد من الله والكنيسة ! . ومن عجيب امرك انك تطلب الشهادة على صدق قول جلالته » . ولم يبلغ الى هنا حتى تعبت آذان الحاضرين من كلامه المتقطع . فالتفت اوباس الى الحضور وهو يبتسم ، وقال : « بل من العجائب استغراب طلب الدليل على تهمة موجهة نحو اسقف يحمل جسد الله بين يديه ، تهمة اقل ما يقال فيها انها مختلقة ! . نعم مختلقة ولو قالها الملك ، لأن الحق فوق الملوك والاساقفة . ثم لا ادري ما الذي يسوغ هذه التهمة ؟ ! وكيف يقال اني تآمرت على خلع هذا الملك ؟ ! فمع من تآمرت ؟ واين ؟ وكيف ؟ وهل تكون المؤامرة او التواطؤ الا بين جماعة ؟ فمن هم رفقائي في التهمة ؟ انه قول غير معقول . ولست اقول ذلك فرارا من العقاب لأن العقاب لايهمني ! »

فلم يصبر الملك عن جوابه بنفسه . فقال وقد حملق عينيه وقطب حاجبيه : « يا للعجب من هذه الوقاحة ! . كيف تنكر ، وقد سمعتك باذني هذه تهددني بقرب انقضاء هذه الدولة ، وانه يهون عليكم اخراج الملك من يدي ؟ هل تنكر ذلك وقد سمعه الاب مرتين ايضا ؟ فهل من دليل أوضح من هذا ؟ ! »

وكان الاساقفة مائلين الى التصديق لاسباب منها ان اكثرهم يكرهون اوباس لحرية ضميره وشدته في الحق . ولانه نوطي . ناهيك بالقرائن التي تساعد على ثبوت التهمة ، لان اهل طليطلة كلهم يعرفون كره بيت غيطشة اجمعين لرودريك وكل من يقول بقوله ـ خصوصا الاساقفة ـ لبواعث تقدم بيانها . فلما سمعوا شهادة الملك نفسه وشهادة قسيسه مالوا الى الحكم على اوباس . وزد على ذلك انهم كان يمكنهم الحكم عليه بدون محاكمة ، ولكنهم اجتمعوا ذلك

الاجتماع ليقضوا به شبه واجب عليهم » فلما فرغ الملك من كلامه وجهوا ابصارهم نحو اوباس ليسمعوا قوله . فراوه لايزال على ساله ورباطة جاشه . وقبل أن يشرع في الجواب اعترضه أحد الاساقفة قائلا : « انى لأعجب من نقمة بعض رجال القوط على تنصيب جلالة الملك ، وتنصيبه انما كان بالانتخاب على مقتضى قوانين الدولة والكنيسة . والذين يدعون الحق لابناء غيطشة أو غيره من اعضاء عائلته في الملك انما هم مخطئون . لان الملك في اسبانيا الآن انتخابي كما لايخفى على سيادتكم ، ولا يجلس على هـذا العرش الا الذى ينتخبه هذا المجمع المقدس . فهل تنكرون أن جلالة الملك منتخب على هذه الصورة ؟ »

فلما سمع أوباس ذلك ادرك انهم يحاولون ايقاعه فلم يبال بل قال وقد وجه خطابه الى الاسقف : « ان هذا السؤال يا حضرة الاسقف خارج عن موضوع التهمة ، ومع ذلك فانى اجيبك عنه . نعم ان هذه المملكة اكثر ممالك اوربا خضوعا للكنيسة ، واساقفتها هم الذين ينصبون الملك كما ذكرت ، ولا انكر ان جلوس هذا الملك كان بانتخاب هذا المجمع فانتخابه كان قانونيا ، وان كنت لا اعتقد أن المجمع توخى كل الطرق القانونية بنقل الصولجان من الملك المرحوم اليه مما لا اخوض فيه الآن . ولكنى لا اخفى عليكم ايها السادة انني ارى الكنيسة قد تمادت بسلطتها في هذه المملكة دون سائر الممالك حتى تجاوزت حدها ــ اقول ذلك وانا من اعضاء الكنيسة ، ولا اظن احدا منكم يقول هذا القول ولو كان يعتقده ، لانه يغاير مصلحته ! »

وكان الاب مرتين لما سمع تعريض أوباس بالمجمع في الانتخاب اشار الى الكاتب ان يدون ذلك القول أمامه ليطالبه به . ففعل . اما الاسقف الذى كان الكلام موجها اليه فأجاب قائلا : « يظهر انك تنكر فضل الكنيسة على المملكة ، وهل يخفى عليك أن الكنيسة الكاثوليكية هي التي حفظت النظام والتمدن في هذه القارة . وقد جاء اجدادكم الجرمان على اختلاف قبائلهم ــ واكثرهم وثنيون ــ فتغلبوا على المملكة الرومانية وتفشوا في مدنها قبائل رحلا لاعلم عندهم ولا تمدن ، فجمعتهم الكنيسة في احضانها وهذبت اخلاقهم وجعلتهم امما وممالك ، وهى التى حفظت لهم العلم والحكمة ، وهى التى دربتهم في كل شؤونهم السياسية والادارية . ولولاها لكانت أوربا فوضى لا علم فيها ولا نظام »

فهم أوباس بالجواب ، ولكن الكاتب دق جرسا امامه اشارة الى

الجميع السكوت . فسكتوا والتفتوا فرأوا الملك يهم بالكلام فاصغوا .
وقال الملك وهو جالس على عرشه وصولجانه بيده وشعره مرسل الى كتفيه من تحت تاجه : « لا حاجة بنا الى الخوض في مسائل لا علاقة لها بالموضوع . يكفي ما قد سمعتموه من كلامه الآن من استهجان اعمال المجمع في انتخاب الملك . وانكم لم تستحبوه بطرق قانونية . فمن يصرح بمثل ذلك في مجلس القضاء هل يستغرب اتهامه بالمؤامرة »

فالتفت اوباس الى رودريك قائلا : « لا علاقة ايها الملك بين استحساني الانتخاب او استقباحه . وبين مؤامرة يزعمون اني عقدتها لخلعكم — نعم اني اشك في الطرق القانونية التي اتخذت في الانتخاب . ولكني لم ابن عليها مؤامرة كما هو اعتقادكم »

فاعترضه الاب مرتين قائلا : « وكيف لا يعتقد جلالته ذلك وقد سمعه من فيك كما سمعته انا . . ا يا للعجب ! » . قال ذلك والتفت الى الملك وقال : « يظهر ان امر المجادلة طال . بينما التهمة صريحة واضحة »

فالتفت الملك الى الاساقفة وقال : « قد سمعتم ما قاله اوباس ، فاما ان يكون الملك رودريك نصب على ططيطلة بغير حق . واما ان اوباس هذا قد لبس ثوب الكهنوت بدون استحقاق » . قال ذلك وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما حتى لقد نزل من فوق عرشه ومشى وهو لا يفقه . ثم عاد الى كرسيه وجلس بعنف ففهم اوباس انه يعرض بتجريده من رتبته الكهنوتية فصاحا له فقال : « لا تظن هذا التهديد يضعف عزمي في قول الحق . لاني لست اسقفا بهذه الثوب . ولا انت ملك بهذا التاج . وانما الاعمال بالنيات . ومهما اردتم بي من القصاص فذلك لا يقلل شيئا من اعتقادي . ولكنه يزيد ذنبك يا رودريك امام الديان العظيم لانه سبحانه وتعالى يعلم السبب الذي من اجله نقمت علي وسقتني الى هذا المجمع . وانت تعلم وهذا الاب المحترم ايضا يعلم السبب الذي نقمتما من اجله حتى سقتماني الى هذا الموقف . وما انا هائب موقفا اراني فيه محقا ولو لم ينصفني الناس . فان الله بصيري وهو يعلم ما في القلوب »

فلما سمع الملك تعريضه بحديث فلورندا خاف ان يحرجوه فيصرح به ويذكر اسمها وحكايتها . فتظاهر بالغضب ووثب من مجلسه وصاح فيه : « ويلك . أ ابمثل هذا الكلام تخاطب ملك الاسبان ! ! » . ثم التفت الى المجمع وقال لهم : « اذا كنتم صابرين

على اقواله فيها اني اخلع نفسي او هو مخلوع من ساعته .. ! »

فقال اوباس وهو لايزال رابط الجاش : « لاباس ايها الملك اذا انا خلعت هذا الثوب . غير ان ذلك لاينقذك من الرجس الذى تعمدت الانغماس فيه . ومن اجله سمعت توبيخي . فساءك الحق وثقل عليك . فاردت الانتقام مني . ولكن الله ولي النقمة ! »

فقاطعه رئيس الاساقفة قائلا : « ادعوك يا حضرة الاسقف باسم الكنيسة ان تسكت » فلم يسع اوباس غير الادعان ، واستولى على الجلسة السكوت برهة والكل مطرقون ، وربما تهامس البعض بكلام لايسمع له طنين . وكان الاب مرتين في اثناء ذلك يجيل عينيه في الاساقفة يتصفح ما يبدو في وجوههم . فاذا وقعت عينه على عين احدهم اشار بحاجبيه وشفتيه اشارة الاستهجان وهو يومىء الى اوباس

اما هذا فكان واقفا وقوف رجل بريء الساحة . واسع الصدر ، يرسل بصره الى الاساقفة بلا اشارة ولا ملاحظة . ولكن يظهر من سكون جاشه وما يتجلى في وجهه من الهيبة انه غير مبال بما قد يكون من عاقبة تلك المحاكمة ، لاعتقاده انه سيق اليها زورا وبهتانا ــ على انه تذكر ما دار بينه وبين الفونس قبل سفره ، وما تواطا عليه من امر الملك ونحوه . فراى التهمة تصدق عليه من هذا الوجه ، ولكنه راجع ما صدر من اقواله في تلك الجلسة فلم ير فيها ما يمنع انكاره حق الملك على رودريك ــ وفيما هو يفكر في ذلك وقعت عينه على صورة كبيرة معلقة في بعض جدران الكنيسة تمثل السيد المسيح واقفا بين يدي بيلاطس للمحاكمة ، فتذكر قبوله الصلب دفاعا عن الحق ، فزاد استمساكا بموقفه !

اما رودريك فكان قد عاد الى كرسيه . ولما راى المجلس ساكتا خاف ان يعودوا الى البحث فيما وجهه اليه اوباس من تهم فالتفت الى رئيس الاساقفة وقال وهو يظهر الهدوء كمن له سلطان ان يدير اراء المجمع كما يشاء : « لقد كفانا ما سمعناه . واذا رايتم المسالة تحتاج الى نظر بعد كل ما بدا لكم من الادلة الصريحة ، فاني أحل هذه الجلسة ونؤجل البحث الى جلسة اخرى »

فوقف الاب مرتين وقال بلهجته المعلومة موجها خطابه الى رودريك : « لا يتبادر الى ذهن جلالة الملك من سكوت اعضاء المجمع انهم يشكون في نطق جلالته ، او يخامرهم ادنى ريب من ثبوت التهمة على اوباس بعد الشهادة الصريحة التي ادليتم بها جلالتكم ولم

ينكرها هو . بل ابدعا بما فرط منه من العبارات الصريحة التي تدل
على غضبه من عيلة الحكومة الحاضرة وممن كان السبب فيها . كأنه
قال بصريح العبارة : « ان هذا المجمع قد خان البلاد بانتخابه جلالة
الملك ... ! »

فلما سمع اوباس قوله وما فيه من اثارة الخواطر عليه وجه خطابه
الى رئيس الاساقفة قائلا : « قد سمعتم ما قاله الاب مرتين ،
ولا اخص انكم فهمتموه . وكأني بكم تتوقعون انكاري ذلك خوفا من
العقاب . كلا . اني اشك في قانونية انتخاب هذا الملك كما قلت لكم ،
ولو خيرت ربما اخترت سواه . وأما الدعوى التي ستقتلوني من
اجلها الى هنا فما هي في شيء من ذلك . ان رودريك هذا الذي
تسمونه ملكا انما جمعكم لمحاكمتي واتهمني هذه التهمة لأني نصحت
له ان يرجع عن فظيعة هم بارتكابها . ولولا خوفي من تدنيس هذا
المكان المقدس بذكرها لكشفت القناع عنها . ولو فعلت ذلك لانصفتموني
لباشرتم رجم هذا الجاني بايديكم ! »

فضج المجمع ، وهاج غضب الملك ، وخاف زيادة التصريح فتظاهر
بالانفعال الشديد والاستغراب ولم يدر ماذا يقول . فأنقذه الاب
مرتين من تلك الورطة بقوله يخاطب كاتب الجلسة : « يرى مولاي
الملك ان اخانا الاسقف قد تهور في اقواله وخرج عن طوره الى
الخلط والهذر . كأنه جن لعرفه ما خافه من سوء العاقبة فلم يفقه
ما يقول . ولذلك فمولاي الملك يأمر بانفضاض الجلسة حالا وتأجيل
المحاكمة الى جلسة اخرى . ولا يجوز بعد صدور هذا الامر ان يفوه
احد في هذه الجلسة بغير الصلاة الختامية »

فنزل كلام الاب مرتين بردا وسلاما على رودريك ولم يسع الكاتب
الا الصمت الاشارة لأن للملك الحق في فض الجلسة ورفعها دون
سواه . ولم يكترث اوباس بذلك بعد ان قال ما قاله ولو بالتلميح .
ثم وقف رئيس الاساقفة فتلا الصلاة الختامية . وانفضت الجلسة
فخرجوا الى منازلهم الا اوباس ، فانهم ساقوه تحت الحفظ الى مخفر
آخر وأوصوا الحراس ان يحتفظوا به

— ٦ —

فلنترك اوباس وشأنه ولنعد الى الفونس وما كان من امره بعد
ذهابه بأمر الملك . فقد خرج من منزله ومعه يعقوب وسارا الى مقر

المعسكر في ... كبير بضواحي طليطلة وحولهما الفرسان الذين جاءوا بأمر الملك ليوصلوهم الى المعسكر وعادوا . فلما دخل الفونس استقبله الجند بالاحترام فرحب ومشى . ويعقوب يسير بين يديه والبعض معه من الجند سواه وقد استغربوا منظره مما ذكرناه من اهماله لحيته وأثوابه . حتى وصلوا الى غرفة خاصة بالقائد الكبير فاذا هو بجانبه واقف هناك وبيده كتاب عرف الفونس من منظره الخارجي انه من الملك . فتحقق منه لغرض ما غاظه الكتاب الماضي . فدخل ... بغلته حتى جلس في صدر الحجرة فاستأذن الرسول من يعقوب بالدخول على الفونس فاستأذن له . فقال لا حاجة الى دخوله هات الكتاب منه . فأخذه منه وجاء به الى الفونس وهو يقول : « لا تعجب يا سيدي . لعل فيه أمراً بالرجوع الى منزلك »

فتناول الفونس الكتاب وفضه دون أن يجلس فاذا هو من الملك يقول فيه :

« من رودريك ملك القوط الى القائد الباسل الفونس

« باسم الآب والابن والروح القدس

« أما بعد فقد سبق أن كتبنا اليك بالذهاب الى كويبه ... ولم نعين لك المدينة التي تقرب منها فاذن مدينة استجة Astigia من كويبة نحطة واقعة بجانبك في احدى الفلاة رسمنا اليك الجهة التي تذهب اليها ـ وقد أرسلنا اليك مع هذا كتاباً تدفعه الى كونت استجة يلاقيك بالترحاب ويمدك بالمال عند الحاجة والسلام .

كتب في قصر طليطلة

فلما فرغ الفونس من قراءة الكتاب أمر يعقوب أن يأتيه من الرسول بالكتاب الآخر فجاءه به ودخل غرفته وأغلق الباب وراءه . فقدم له الكتاب وهو ينظر في وجهه . فلما رأى ما فيه من الاعتناء والدس اراد التحقق منه ففض غلافه ... اربع ... ذلك البناء فالتفت الفونس ونظر الى يعقوب فاذا هو ينظر اليه وقد ضحك وهز رأسه وحك لحيته متأملاً . فاستغرب الفونس ذلك منه وكان ينتهره لو لم يسبق الى ذهنه ما نسبه من احترام عمه اوباس له واعتماده على أقواله . وتذكر السر الذي توسمه في سيرته فابتسم له وقال : « ما الذي اضحكك يا يعقوب ؟ هل تعرف ... » قال ذلك وتنهد . فتنهد يعقوب وقال : « اني اضحك لك ... كيف يخدعك السعود ... اهو ... »

فهز الفونس رأسه وقال : « ... هذه السعود ... ؟ » قال ذلك ونهض وهو يقول : « لا ... بنا الانتظار هنا ونحن مأمورون

بالذهاب الليلة . ولابد لي قبل كل شيء من استدعاء القواد وإبلاغهم الأمر بالاستعداد . فامض الى قائدي الخمسمائة واستقدمهما الي .»

وكان الجند الإسباني في عهد القوط مؤلفاً من فرق ، كل فرقة ألف جندي يسمى قائدها رئيس المعسكر ، تحته قائدان كل منهما رأس خمسمائة تقسم الى مئات اسم قائد كل منها قائد المائة . فالقائد العام يبلغ أوامره الى قائدي الخمسمائة وهما يبلغان بقية الجند . فخرج يعقوب ثم عاد وأخبر ألفونس أن القائدين قادمان . ثم جاءا وقد لبسا لباس السفر . وشعرهما مثل شعور سائر القوط مسترسل على أكتافهما ودلائل الصحة بادية على وجهيهما وملامح النعمة في قيافتهما . فلما دخلا سلما على ألفونس باحترام وهما يعرفانه منذ كان أبوه حياً ويحترمانه من أجل ذلك . وقد سرهما توليه قيادة تلك الفرقة لما يعلمانه من حميد أخلاقه وصفاء عنصره . وكانا من أهل الغيرة على عصبية القوط . لم يرضيا رودريك الا مع الجماعة . فإذا خلوا تحدثا بما كان من تحول العقود الى العنصر الروماني بعد تولي رودريك ولكنهما لم يكونا يجسران على التصريح بذلك بين يدي أحد . حتى ولا ألفونس نفسه لأنه أصبح مثلهم في ذلك . فلما رآهما ألفونس تذكر أنه شاهدهما من قبل . ولكنه استغرب تأهبهما للسفر قبل أن يصدر لهما الأمر بذلك فقال :
«أراكما بلباس السفر !»

فتكلم أحدهما واسمه «وميا» — وكان صوبي القامة شديد سواد العينين والشعر — وقال : «لقد وردت الينا الأوامر بذلك من جلالة الملك بتعجيل الرحيل . فالجند الآن كله على أهبة السفر . انما نحتاج الى أمر من مولاي ألفونس .»

فلما سمعه يذكر اسمه استأنس به . وشعر براحة اليه وقال :
«نقلع من هذا المعسكر الآن فأرجو أن تبلغا بقية الجند في قيامه وقعوده الى أن نبلغ مقصدنا .»

فأشارا بإحناء الرأس أن «سمعاً» ثم تكلم «وميا» وكانت له جسارة وتقدم على رفيقه وقال : «ألا يخبرنا مولاي عن الجهة التي نحن ذاهبون اليها !»

قال : «إننا ذاهبون الى استجه على نهر الشنيل في كوسيه سيكه . فهل تعرف الطريق اليها !»

قال : «أعرفها جيداً فإن الطريق اليها نحو الشمال بغرب الى ماردة على نهر آنا . فنقطعه ونسير شمالا بشرق الى قرطبة ، ثم

تنحدر الى استجة على نهر الشنجيل . وقد عرفت هذه المدينة وسكنت فى ربضها ، واقمت فى قلعتها وعبرت جسرها وعرفت ادبارها واسواقها »

قال الفونس : « بورك فيك . لقد القيت الامر اليكما فى تدبير هذه الحملة فى اثناء المسير . ولكنني اوصيكما بامر يهمني كثيرا . وذلك اننى لا اريد ان يعتدى الجند فى اثناء الطريق على احد من الفلاحين ولا ان ياخذوا لاحد مالا او زرعا او يسيئوا معاملة احد . فاذا فعل احد ذلك كان جزاؤه عندى الجلد او القتل . واذا كان من ارباب الرتب جردته من رتبه واملاكه واهنته . فانى اريد ان يسير هذا الجند بكل هدوء وسكينة »

فلما سمع وصبا ذلك ظهر الاعجاب فى عينيه البراقتين وقال : « بورك فيك وفى اصل انت فرعه . لقد عودنا المرحوم ابوك مثل هذا العدل والرأفة »

فلما سمع قوله عض على شفته واطرق كأنه يقول له : « ليس هذا وقت التصريح » ثم اتم كلامه قائلا : « وامر البكتة الموافقين لهذه الحملة ان يوصوا الجند بهذه الوصايا . ولا يخفى عليكم ان جندنا اكثر ما يحضرون الحرب مشاة فلا تتعبوا المشاة بالمسير ولا تحملوهم احمالا ثقيلة . ويكفيهم مايحملونه من الدروع والاسلحة »

فلما فرغ الفونس من كلامه لم يرد وصبا على اشارة الطاعة ثم قال : « الا يأمر مولاى بحاشيته من الاعوان والموالى تسير فى خدمته الخاصة »

فاراد الفونس ان يصرح له بالتخفف من الموالى . ولكن وقعت عينه على يعقوب فرآه يشير اليه اشارة خفية الا يفعل ، فانثنى وقال : « لا احتاج الآن الى احد فان معى خادمى هذا ، وهو يدبر لى ما احتاج اليه واذا احتجت الى سواه طلبت »

فخرج القائدان فرحين بمرافقة الفونس . اما هو فلما خلا بيعقوب قال له هذا : « خفت ان يسبق لسانك الى قول تؤاخذ عليه ونحن بين يدى الاعداء ، واعلم يا مولاى انك موفق باذن الله لان الامر الذى كنت لا تستغنى فى الوصول اليه عن بذل الاموال واستخدام الرجال قد وصلت اليه عفوا »

قال : « وماذا تعنى ؟ »

قال : « اعنى ان المشروع الذى اسسته مع مولاى المتروبوليت لقهر ذلك العدو الحاكم قد اتيحت لك فرصة الشروع فيه منذ الآن . هذه فرقة من الجند الآن تحت امرك فقربها منك وحببها اليك ببذل

المال .. المال .. ! » قال ذلك وتلمظ كأنه يتلذذ بطعام شهي ! فقطع الفونس كلامه وقال : « ومن اين لنا المال يا يعقوب ! » . فوضع يعقوب كفه على صدره وحنى رأسه واطبق جفنيه ولسان حاله يقول : « المال عندي وعلي احضاره »

فتذكر الفونس مثل ذلك الوعد بين يدي اوباس في ذلك الصباح فتاقت نفسه الى استطلاع سر هذا الرجل فقال : « لقد اذكرتني وعدك السابق . ولا يخفى عليك اني شديد الميل الى معرفة حقيقة امرك ! »

فتحول وجه يعقوب الى الجد مع بعض الانقباض وقال : « يأذن لي مولاي بتأجيل ذلك الى وقت آخر . واما المال فاني سأبين له سبيل الحصول عليه بعد وصولنا الى استجه . والامور مرهونة باوقاتها . طب نفسا وقر عينا . وكن على يقين اني على قبح خلقتي وقذارة ظواهري لا اخلو من حسنات نافعة ! والآن لابد لنا من الركوب لاني اسمع فرع الطبول ايذانا بالمسير »

قال : « الى بالفرس فاركبه وتول امر الخدم وتدبير ما قد يحتاج اليه من الاطعمة ونحوها فانك نائب عني في كل ذلك . ولا تدع احدا يأتي الى من الخدم »

فخرج يعقوب واحضر فرسا من احسن افراس الحملة وعليه سرج ثمين . وكان الفونس بلباس القواد وقد زينه شبابه وجماله . وقبيل الغروب اذن بالرحيل فاقلعت الحملة مارة قبل خروجها من ضواحي طليطلة بمرتفع يطل على المدينة ، وهي واقعة على مرتفع آخر . فالتفت اليها الفونس وقد بدت فيها الكنيسة الكبرى . ولما وقعت عينه على قصر فلورندا خفق قلبه خفوقا سريعا وهاج به الوجد . وتذكر ما كان من لقائه اياها في ذلك الصباح وما آلت اليه حاله في المساء . ونظر الى السماء والغيوم تتكاثف وتتلبد اشبه بما يتكاثف على قلبه من سحب الهيام والشوق . وخيل له ان الطبيعة تشاركه في ذلك الشعور — والمرء مفطور على تطبيق حوادث الطبيعة على ما يوافق شعوره ، وتفسيرها بما يلائم اعتقاداته واوهامه — فلا غرو اذا توهم الفونس ان السماء تجهمت شعورا بفراق حبيبته

ولم تغب الشمس حتى اظلمت الدنيا وتساقطت الامطار وهبت الرياح ولم يعد المسير ممكنا لهم . فامر الفونس بالنزول هناك فنصبوا الخيام وفي حملتها خيمة له نصبوها حالا وجاء يعقوب فاستدعاه اليها ودخل هو معه . وكانت ليلة شاتية قاسى فيها الفونس من هول

الوحشة والشوق مثل ما قاسته فلورندا فيها من العذاب ، وهو غافل عن حالها لاعتقاده انها على موعد منه ليأتي لانقاذها في ذلك المساء وقد وكل بذلك عمه اوباس

فلما دنا الوقت المعين لانقاذ فلورندا تصورها الفونس خارجة من قصر رودريك مع اجيلا وشبيلا في القارب الى منزل اوباس ، وتوهم انها اصبحت في مأمن هناك ريثما يبعث بها اليه حينما يكون . ثم تذكر بغتة ان اوباس لا يعلم المكان الذي هم ذاهبون اليه . فنسيه للسبب الذي من اجله غير الملك خطة مسيره . والتفت الى يعقوب وكان جالسا في بعض جوانب الخيمة وقد تزمل بغطاء كثيف وتلملم وتجمع من شدة البرد . والرياح تهب والرعود تقصف . فقال له ولم يحاذر ان يعلو صوته لعلمه بانشغال الآذان بقصف الرعد عن سماع حديثهما : « هل علمت السبب الذي من اجله غير الملك خطة مسيرنا ؟ ! »

فرفع يعقوب رأسه وقال ولحيته ترتعش من البرد : « اظنني عرفت وعرفت اشياء اخرى . ولولا البرد الشديد لكنت اقصها عليك »

قال : « وماذا عرفت . قل لي واذا كنت تشكو البرد فالبك بقدح من الخمر يدفئك » . قال ذلك واشار الى ابريق كان في الخيمة ويعقوب يعرفه . فقال : « اعطني قدحا واشربه انا . فان مثل هذا البرد لا يدفع وحشته وبرده الا الخمر ! »

فنهض يعقوب وقد وقف واسنانه تصطك حتى ليكاد يسمع الفونس صوتها . ومشى حتى استخرج الوعاء وصب منه الخمر في قدح من الفضة كان هناك . ودفعه الى الفونس فشربه . وتناول قدحا آخر صب فيه لنفسه وشرب . ثم صب قدحا آخر للفونس وآخر لنفسه . حتى اذا دب الخمر في عروقه ذهبت ارتعاشته ملأ القدح وتناوله ووقف بين يدي الفونس ورفع يده بالقدح فوقه وهو ينظر الى ما حوله كأنه يحاذر ان يراه احد وقال : « قد توهم رودريك انه خدع عريسه بارساله الى اسبحه . وتوهم انه خدعه عرضا اذ لا بد لنا من الذهاب الى هذه المدينة لمشروع الذي نحن عازمون عليه »

فاستغرب الفونس قوله وتحير من الاحجية والالغاز وقال له : « لقد احيرتني يا يعقوب من اشاراتك والغازك ! لماذا لا تصرح لي بما في نفسك ؟ »

فانقلب وجه يعقوب الى الانقباض وقال : « قلت لمولاي ان موعدنا في ذلك قريب ان شاء الله . وارجو ان لا تسألني في الامر فان الاكتمام مفيد . اصبر يا مولاي وسأطلعك على كل شيء قريبا . واعلم ان

رودريك هو الذي عجل كشف هذا السر بارسالنا الى هذه المدينة . وما اظن ثورتها الا من امثال ما يحدث كل عام بين الرعايا المظلومين . ولا اخفى على مولاى ان اهل هذه البلاد في غاية الضنك من استبداد حكامهم ، وكانوا يشكون ضغط الرومان عليهم . فلما جاءهم القوط توهموا فيهم النجاة من نير الرومان فاذا هم تحت النيرين معا . وقد اصبحوا ارقاء لاحرية لهم ولا منزلة ، ولا عقار ولا مال . فلما عاينوا ضعف هذه الدولة كثر تمردهم وهياجهم . وقد سهل هذا الامر عليهم خطأ ارتكبه ملوك القوط الماضون مع جماعة اليهود فاكرهوهم على نبذ دياناتهم واعتناق النصرانية فاصبح اليهود عونا عليهم »

فقطع القونت كلامه قائلا : « ولكن اليهود قد انقرضوا من اسبانيا الآن ولم يبق فيها يهودي كما لا يخفى عليك ! »

قال : « اعلم ذلك يا مولاى . واعلم ايضا ان ملوك القوط قبل المرحوم والدك تشددوا في اضطهاد اليهود وخيروهم بين القتل او النصرانية او المهاجرة ، فهاجر بعضهم وتنصر الباقون ، فاختفت اليهودية ولكنها لم تمت ! » ثم التفت هانئ وهو يقول : « ارانا خرجنا من الموضوع قبل الاوان . وخلاصة الامر ان المهمة التي نحن ذاهبون فيها مهما يكن من امرها فاني سأضمن انجازها بدون ان نجرد سيفا او نرمي نبلا » . ثم تحول الى مخاطبة الاول وهو يقول : « وقد آن وقت الرقاد . الا يرغب مولاى في ذلك ؟ »

فاستدرك القونت قائلا : « وقبل الذهاب الى النوم اسقنا كأسا اخرى واشرب مثلها »

وناما تلك الليلة نوما عميقا رغم تساقط الصواعق وهبوب الرياح . وصحا يعقوب مبكرا وخرج لاعداد ما يحتاج اليه القونت . ولم تشرق الشمس حتى كانوا على اهبة الرحيل . فقوضوا الخيام وركبوا على نظامهم . والقونت ويعقوب سائران على انفراد وهما صامتان . وبعد هنيهة عبروا الجسر فوق نهر التاج . وبعد ذلك توارت طليطلة وراء التلال

سارت الحملة باثقالها واحمالها جنوبا بغرب وقد صحا الجو واشرقت الشمس وارسلت اشعتها على السهول والهضاب والاودية والتلال . والقونت يعجب لما يمر به من البقاع الخصبة وفيها اصناف الاشجار والمغارس . ولكنه استغرب خلو المزارع من الناس . او انه لم يكن يتوقع ان يرى فيها غير العبيد او من جرى مجراهم من الفلاحين والحراثين . وكان الاشراف واصحاب الضياع يعاملونهم

معاملة الارقاء اذ كانوا يعملون في المغارس والضياع ، وهم والارض وما يسرح فيها من الدواب والماشية ملك للاشراف الذين كانوا غالبا ما يقيمون في المدن حيث يقيم الحكام

وكان الفونس قلما يخرج من المدن ، ولم يكن يهمه الالتفات الى حال اولئك الفلاحين ، ولكنه بعد ما دار بينه وبين اوباس بشأن الملك ، وما عزموا عليه من تحرير اولئك الارقاء والاعتماد عليهم في تحرير المملكة ، اصبح همه الالتفات الى البلاد واهلها . فاذا هم يمرون في ارض لا يظهر لاهلها عناية في غرسها واستثمارها ، وقلما شاهدوا فيها احدا من الناس . فلما تكرر ذلك المنظر لديه التفت الى يعقوب وكان راكبا جوادا وراء جواده ، وسأله في ذلك . فأجابه قائلا : « ان الناس كثيرون ، ولكنهم تعودوا اذا رأوا جندا مارا بهم أن يختفوا من وجوههم فرارا مما يكلفونهم من الاعمال الشاقة وما قد يتطلبونه من المؤونة ونحوها ، ولم يخطر لهم أن يسير بهم مثل سيرهم هذا ، لا يتعرضون لاحد منهم في شيء . فان الجند لم يسر بهذا الهدوء الا بناء على امر مولاي ! »

فسر الفونس من ذلك القول وتمثل له الخطأ الذي ترتكبه الحكومات الظالمة في تكليف رعيتها فوق طاقتهم فتعود الخسارة عليها وعليهم

وقد قضى الفونس وجماعته في الطريق بضعة ايام قطعوا في اثنائها سهولا خصبة ، وجبالا فيها كثير من مناجم الفضة والذهب ، واودية يسيل فيها الماء فيسقي الضياع والبساتين فتجود بأطيب الثمرات لأن ارض الاندلس من اخصب البلاد خصبا وعمرانا ، وانما تحتاج الى من يتعهدها بالغرس ويتقلبها بالعمل ، الى ما كان فيها من مدن عامرة كان اول ما مروا به منها « مريدة » فقطعوا نهر « انس » وساروا بضعة ايام اخرى الى « قرطبة » فعبروا نهرها وساروا الى « اشبيلية » . وكانت مدينة آهلة على الضفة الشرقية لنهر سحيق ، حولها سور متين عليه الابراج من صنع الرومان ، ولا بد للقادم اليها من قرطبة ان يعبر على جسر فوق ذلك النهر . فلما دنوا من المدينة في الضحى بعث الفونس رسولا بكتاب رودريك الى حاكمها فعاد الرسول ومعه نفر من جند المدينة ، وبيد كبيرهم امر بتسليمهم القلعة الكبرى المشرفة على النهر من يمينه ، والتي كان النهر يفصل بينها وبين المدينة وقد بنيت لاقامة الجند فاحتلوها . وسار الفونس الى غرفة فيها هي احسن غرفها واوسعها ، ولها نافذة مطلة على النهر

والمدينة وعلى ما وراءهما وبين يديهما من البساتين والمزارع
وصعد الكونت الى غرفته وكان يعقوب قد سبقه اليها وأعد له
ما قد يحتاج اليه من الراحة . وأمر بعض الخدم فأعدوا طعاما حمله
هو اليه فوضعه على مائدة في تلك الغرفة وعاد اليها لأنه كان [illegible]
صعوده الى الغرفة قد جلس الى النافذة وخلا بنفسه فتذكر حبه
وعمه ومجيئه الى تلك المدينة رغم ارادته . وليس هناك ما يدعو الى
قدومه الا سعي رودريك في ابعاده عن حبيبته . ثم تصور القصد من
ابعاده عنها وما قد يكون في عزم رودريك بشأن فلورندا . فاقشعر
بدنه واحس كأن ماء غاليا ينسكب عليه . لكنه تذكر الاحتياطات التي
اتخذها لانقاذ فلورندا من ذلك القصر فسكن روعه

وفيما هو في هذه الهواجس سمع وقع أقدام في الغرفة فالتفت
فرأى يعقوب واقفا ويداه متقاطعتان على صدره كأنه يصلي .
فلما وقع نظره عليه هرول يعقوب نحوه وهو يبتسم ويقول : « ألا
يأمر مولاي بتقديم الغداء ؟ »

فلم يسع الكونت الا الابتسام وقد انشرح صدره فوقف واسرع
الى المائدة ولم يتكلم ويعقوب سائر في اثره . فجلس الكونت وظل
يعقوب واقفا بوقوف الخدم فأشار الكونت أن يجلس فأبى واعتذر .
فقال الكونت : « لم يعد يليق بي أن أعدك خادما بعد ما علمته من علو
همتك وبسالتك في نصرة الحق »

فقال يعقوب : « العفو يا مولاي انك لم تعلم عني شيئا بعد . وما
هي الا أقوال سمعتها . فاذا رأيت مني عملا كبيرا ورأيت بعد ذلك
اني أستحق مجالستك أو مؤاكلتك فعلت »

فتذكر الكونت وعده بكشف السر بعد وصوله اشبيلية فلم يشأ
أن يذكره بذلك لئلا يكون الجواب سلبيا . فجعل حتى يكاشفه هو
من تلقاء نفسه ولكنه قال له : « لك الخيار يا يعقوب فيما تفعل . ثم
اني فهمت من بعض أقوالك أنك عالم بفلورندا وحديثها ! »

فأشار يعقوب بانحناء رأسه أن « نعم ! » . فقال الكونت :
« ما رأيك . هل هي وعمي لا يعلمان مقرنا . وهلا ترى أن نبعث اليهما
لكي يعلما أين نحن هنا مبتعدون عن تلك القطيعة ؟ »

قال : « لا بأس . أنت تعرف ! أنظر رودريك ابعدك عن قصره وأعفى
أمرك . الا تعلم أن معظم رجال هذا الحصن عيون عليك يراقبون
حركاتك . لعلهم يغرون بأذنيك الى البلاط الملكي ؟ وانه اذا عرفت
الدولة واختلفت شؤونها كثر فيها الجواسيس وتعددت أسباب

الوشاية . وفسدت النيات وأصبح الأخ عينا على أخيه والابن على أبيه . يساعدهم على ذلك انغماس الملك في الترف وانشغاله به عن سياسة رعيته ، مع ما يحول من أهل التملق بينه وبين المتظلمين . فلا تثق بأحد ، ولا تأمن أحدا إلا إذا كانت مصلحته ومصلحتك سواء . حتى يعقوب هذا ! » . قال ذلك وأشار بسبابته إلى صدره . فتعجب الفونس لما سمعه ولم يكن قد اختبر شيئا من شؤون الناس ، ولا اطلع على فساد الطبيعة الإنسانية ؛ فسكت وعاد إلى الأكل حتى فرغ من الغداء ، ويعقوب ما يزال واقفا بين يديه

فلما نهض الفونس عن المائدة قال يعقوب : « أتسمح يا مولاي الآن وتأذن لي في النزول إلى المدينة ثم أعود إليك قبل الغروب ، وفي الغد ننزل إليها معا لنرى أسواقها وساحتها »

قال : « انصرف ، وقبل انصرافك ابعث إلي بالقائد ومن لا أخاطبه في أمر الجند » . قال : « سمعا وطاعة » وخرج

وعاد الفونس إلى مجلسه بجانب النافذة وهو ما يزال بلباس السفر ، وعاد إلى التفكير في فلورندا وأوباس ورودريك . ثم سمع وقع أقدام بالباب فتحول لملاقاة وما هو حتى عدا وألقى التحية ، ووجهه منبسط الأسارير لما يبسطه من الاحترام للفونس والغيرة عليه . فرد الفونس التحية وسأله عن حال الجند فقال : « إنهم في نظام وسلام ، يدعون للقائد الناصر بالرفعة والظفر » .

قال : « هل سمعت شيئا عن أحوال الأهالي هنا ؟ »

قال : « سمعت أنهم مستكينون لا يبدون حراكا ، ولعلهم ركنوا إلى السكينة على إثر سماعهم بقدومنا »

قال : « أرجو مع ذلك أن تسهروا على الأحوال ، وتواصلوا استطلاع الأخبار ، ولي في درايتكم ما يضمن الراحة »

ففهم ومما من نغمة كلام الفونس وإشارته أنه فرغ مما يريده ، فحياه وتحول من الغرفة . ولما خلا الفونس بنفسه نهض فبدل ثيابه وعزم على قضاء بقية ذلك اليوم في الغرفة للاستراحة من متاعب السفر

ولما مالت الشمس إلى الغروب ولم يرجع يعقوب استبطأه الفونس واشتغل خاطره عليه وجلس إلى النافذة المطلة على الجسر — ولا بد لمن يخرج من المدينة إلى القلعة من المرور على هذا الجسر — فلم تمض برهة حتى رآه قادما وقد تأبط صرة فظنه قد ابتاع شيئا من فاكهة المدينة فصبر حتى وصل إلى القلعة ولبث ينتظر دخوله عليه .

لكنه ابطأ ثم دخل بعد قليل ويداه فارغتان

فقال الفونس: «ما الذي حملته الينا من المدينة؟». قال: «لم احمل منها شيئاً لأننا ذاهبون اليها غداً». قال: «رأيتك متأبطاً شيئاً فما هو؟». فضحك يعقوب وقال: «ذلك ليس شيئاً..»

فاشتدت رغبة الفونس في استطلاع حقيقة ذلك الشيء فقال: «هل ثمة ما يمنع اطلاعي عليه؟». قال: «الى الصباح يا مولاي، ولا بد من اطلاعك عليه».

وفي الصباح التالي نهض الفونس وبه شوق شديد الى معرفة ما في الصرة. ولم يكد ينهض من الفراش حتى جاءه يعقوب بالثياب فغسل وجهه وسرح شعره ولبس ثوبه استعداداً للنزول الى المدينة وهو يتظاهر بالصبر على استطلاع ما في الصرة. فلما فرغ من كل شيء ولم يبق الا الخروج، دخل يعقوب والصرة في يده وأقفل باب الغرفة وراءه. فوقف الفونس وتطاول لمشاهدة ما فيها ففتحها يعقوب واستخرج منها شيئاً من نسيج أسود على نحو اقبية الكهنة. واذا هما ثوبان اسودان كل منهما جلباب طويل يغطي الرجل الى اسفل القدم. فتناول يعقوب احدهما وبسطه وقدمه الى الفونس وهو يقول: «البس هذا الجلباب يا مولاي». فوضعه الفونس على كتفيه والتف به فغطى كل اثوابه. ولبس يعقوب الجلباب الآخر والتف به. ثم مد يده الى طوق ذلك الجلباب من قفاه فاستخرج منه شيئاً كالكيس ملتصقاً به من بعض جوانبه وارسل ما بقي منه على رأسه حتى اشتمل على الرأس والوجه جميعاً. وفي غطاء الوجه ثلاثة ثقوب ثقبان للعينين وثقب للفم فأصبح يعقوب شبحاً اسود. وتقدم الى الفونس فاستخرج الكيس من قفا ثوبه والبسه اياه حتى صار مثله، وكان يعقوب يفعل ذلك والفونس صابر ليرى نهاية هذا العمل. فلما فرغ يعقوب من اللبس قال: «هذا الذي اتيتك به من استحقه. فانزعه الآن الى حين الحاجة».

فاستغرب الفونس عمله هذا وقال: «ومتى نحتاج اليه؟» قال: «قريباً ان شاء الله. لا تكن لجوجاً». قال ذلك ونزع جلبابه والجلباب الآخر عن الفونس وطوى كلاً منهما على حدة وجعل احدهما تحت ذراعه من جهة الصدر. وارخى الفرجية عليه حتى اختفى تحتها. وأتى بالجلباب الآخر فطواه وطلب الى الفونس أن يخفيه تحت ذراعه ففعل وهو لا يفهم الغرض من ذلك. ثم قال يعقوب: «هلم بنا الى الكنيسة!»

خرج يعقوب والفونس من القلعة وبينما هما على الباب التقيا بوميا فوقف هذا للتحية فقال الفونس: «اني ذاهب الى الكنيسة فاحتفظ بما عندك». فأشار وميا برأسه ويده بالسمع والطاعة

مشى الفونس ويعقوب يتبعه، وليس معه من الخدم والاعوان سواه حتى مرا على الجسر ودخلا باب المدينة وهما لايتكلمان، لأن يعقوب لم يكن يقدم على الكلام الا جوابا على خطاب جريا على عادتهم في معاملة الملوك. وكان الفونس غارقا في الهواجس لاينتبه لوجدانه؛ لما اجتذب خاطره من أمر فلورندا ورودريك؛ وحديث يعقوب وذلك الثوب الاسود. ولم يفق من ذلك السبات حتى دخل الاسواق والناس يتسابقون فيها نحو الكنيسة. وبعد هنيهة افضى بهما المسير الى ساحة كبيرة في وسط المدينة. ولم يكن الفونس يعرف الطريق الى الكنيسة وانما كان يقتفي خطوات يعقوب او اشاراته. وبعد ان قطعا تلك الساحة اطلا على باب فخم تزاحمت عنده الاقدام بين داخل وخارج فوقف يعقوب هناك وقال: «هذا باب الشارع الاعظم. وهذه هي الكنيسة»؛ واشار بيده الى باب كبير اخر فتحولا نحوه ودخلا مثل سائر الداخلين. والناس لايعلمون من هو الفونس ولكنهم تبينوا من استرسال شعره ونوع لباسه انه من الاشراف واصحاب المناصب

فصليا مرتين الصلاة في تلك الكنيسة وهما لا يزالان صامتين. فلما انفضت الصلاة وخرج الناس خرجا معهم والفونس لايدري الى اين يذهب. فتأخر حتى مشى يعقوب فتبعه وما زالا حتى خرجا من باب المدينة من الجهة الاخرى. فاستغرب الفونس ذلك ولم يتمالك عن الاستفهام فالتفت الى يعقوب وقال له: «الى اين نحن ذاهبان في هذه البرية؟»

قال: «انا ذاهبان الى هذه الاكمة» واشار الى تل قريب لا شيء من العمارة فيه. وما لبثا ان وصلا اليه فصعدا الى قمته والفونس لايفهم الغرض من كل ذلك فقال يعقوب: «انظر يا مولاي الى اسنحة بين ايدينا، وانظر الى سورها فانك ترى على بعض هذا السور برجا عاليا»

وكان الفونس يرى ذلك البرج جيدا لانهما على مقربة من المدينة فقال: «نعم!»

قال يعقوب: «اذا جئت هذا المكان في الليل فلا تخطئ، هذا البرج لبروزه فوق السور. وليس على السور برج سواه. احفظ ذلك

جيدا ثم اتبعني » . قال ذلك وانحدر عن التل الى الجهة الاخرى ، فاذا هو بكهف مهجور وقف ببابه والفونس الى جانبه فقال له : « ارأيت هذا الكهف ؟ »

قال الفونس : « نعم رأيته » . قال : « فلنرجع الى المدينة نقضي بقية النهار ثم نعود الى هنا »

وكان الفونس يتوقع الاطلاع على شيء من السر فلم يزدد الاخيرة استغرابا . . واستطال الانتظار الى المساء فقال : « واين نقضي هذا النهار فانه طويل عندي ؟ ! »

قال : « سأجعله قصيرا جدا » . ومشى فمشى الفونس في اثره حتى دخلا المدينة والفونس يتأمل البرج . وما زالا سائرين في الاسواق حتى انتهيا الى درب ضيق اتصلا منه الى باب صغير فقال يعقوب : « انتظرني يا مولاي هنا ريثما أعود » . ودخل ثم عاد واشار اليه فدخل وعلم مما رآه من الادوات المنزلية ان البيت مأهول لكنه لم يشاهد فيه احدا . فدخل يعقوب غرفة من غرف البيت والفونس معه وقد من الانتظار وكاد الحنق يخرجه عن جادة الصبر . أما يعقوب فانه اقفل باب الحجرة ثم اجلس الفونس على بساط وجثا الى جانبه وقال : « سألقن عليك يا مولاي الفاظا غريبة لا بد لك من حفظها فان ما ستتعلمه الآن من الالفاظ والاشارات انما هو مفتاح السر وطريق العمل »

فاصغى الفونس اليه وقال : « هات ما تريده »

قال : « شالوم عليخم » . فقالها الفونس ولسانه يتعثر بالعين والخاء على الخصوص . فكررها يعقوب عليه حتى حفظها ، ثم قال له : « بل ، اوهيل موعيد ! » . فقالها وكررها حتى تعلمها . ثم نهض يعقوب وامسك الفونس بيده وقال له : « قف يا مولاي » فوقف فخطا يعقوب امامه بضع خطوات على نسق غير مألوف بين الناس وقال له : « اخط يا سيدي مثل هذه الخطوات » ففعل وكررها حتى اتقنها . ثم علمه اشارات يجريها بيديه أو اصابعه وغير ذلك . والفونس كالببغاء ، يتعلم الالفاظ ويخطو الخطوات ويجري الاشارات وهو لا يفهم لها معنى !

فقضيا بقية اليوم في نحو ذلك . فلما غربت الشمس خرجا والفونس لا يزداد الا استغرابا . وقد نسي لفرط دهشته كل مشاغله بفلورندا واوباس . وما زالا حتى خرجا من باب المدينة . وكانت ليلة صاحية لكنها شديدة البرد . فصبرا على بردها حتى بلغا الاكمة وصعدا اليها .

فنزل يعقوب نحو الكهف والفونس يتبعه حتى وقفا ببابه ولم يريا داخله غير الظلمة المدلهمة . فدخل يعقوب ويده بيد الفونس ، فمشى به بضع خطوات والفونس يتحسس الارض بقدميه كأنه يمشي على الشوك وهما صامتان . ثم وقف يعقوب وقال لالفونس : « اخرج جلبابك » . فأخرجه وساعده يعقوب على لبسه كما لبس هو جلبابه فأصبحا سوادا في سواد . ومشيا خطوات اخرى ويعقوب يقود الفونس . ثم وقف بغتة فشعر الفونس بشدة خوفه فخاف ان يكون ثمة خطر عليهما . واحس ان يعقوب انحنى نحو الارض ، ثم سمع حركة كأن يعقوب يبحث بمعوله في الارض . وكان قد ترك يد الفونس فظل هذا واقفا وقوف الصنم لا يدري كيف يتجه لاشتداد الظلام !

وكان يعقوب قد خلى يد الفونس ليفرغ يداه لرفع حجر ثقيل . فمضت بضع دقائق والفونس واقف لا يتحرك . ثم سمع صوت اقتلاع الحجر واحس نسيما باردا قد خرج من مقلعه . واذا بيعقوب يقول له بصوت منخفض : « انحن يا مولاي في هذه الفوهة على مهل » . ونزل ويتبعه الفونس وهما يسمع درجات فانتهيا الى سرداب يسع الانسان واقفا فمشيا فيه . ويعقوب يقود الفونس في الظلام . وشعر الفونس كأنهما يسيران في دائرة ثم سارا في خط مستقيم مع انحدار خفيف والظلام حالك . وبعد هنيهة وقف يعقوب وقال لالفونس : « امكث هنا يا مولاي ولا تبرح مكانك ريثما اعود اليك » . وتركه ومشى لا يسمع لخطواته وقع فأحس الفونس بوحشة غريبة . ومضى على غياب يعقوب دقائق حسبها الفونس ساعات حتى مل الانتظار وحدثته نفسه ان يخطو في اثره ولكنه تذكر وصية اباه بالبقاء هناك فوقف . ولكن الانسان رغاب في استطلاع المحجبات ولو عرض نفسه للخطر . على انه نسي الجهة التي كانا سائرين فيها ومد يده الى ما حوله فلم تلمس شيئا فتوهم انه في خلاء واسع . وفيما هو في هذا الارتباك آنس نورا خفيفا عن بعد ، ورأى ذلك النور يقترب حتى تبين حامله . فاذا هو رجل بجلباب اسود مثل جلبابه وظنه يعقوب فناداه باسمه فلم يسمع ردا فحسب سكوته تنمرا . ثم رأى وراء ذلك الشبح شبحا آخر في مثل لباسه وقد كشف عن وجهه فاذا هو يعقوب . فعلم الفونس انه اقترب من المكان المقصود

ولم يكد يفكر في الامر حتى اسرع يعقوب اليه وامسك بيده .

فنظر الفونس في وجهه على نور المصباح فرأى لحيته قد ابيضت تلبدا وقذارة ، فخاف أن يكون عليهما بأس من ذلك المكان . ولكنه سلم قياده الى يعقوب فأمسكه وسار به والرجل الثالث يسير بين يديهما بالمصباح ويعقوب يحذر الفونس مما بين يديه . فنظر الى الارض فرأى فيها حفرا جمة يخشى الماشي السقوط فيها حتى على النور ، فكيف به في الظلام . وأدرك السبب الذي حمل يعقوب على استجلاب ذلك النور فمشى مشية الحذر والتأني بضع دقائق ، ثم انطفأ المصباح وعاد الظلام كما كان . فضغط يعقوب على يد الفونس وهمس في أذنه قائلا . « [illegible] »

وكان الفونس قد ضاقت انفاسه من القناع المسدل على وجهه فرفعه وتنفس الصعداء ثم أرخاه ، واذا بيعقوب قد وقف وهمس في أذنه أن يفعل مثل فعله بعد انفتاح الباب والا يخشى شيئا مهما يكن مما يراه . ثم قرع بابا قرعا متواليا سبع مرات بأسلوب خاص ، ولبث برهة ثم طرقه ثانية ثلاث مرات بشيء آخر ، فانفتح الباب عن ممر قصير فيه نور ضعيف . والى كل من جانبي الباب رجل بمثل جلبابيهما وبيده سيف مسلول والسيفان متعانقان كالقوس فوق عتبة الباب . فأجفل الفونس وتقهقر . فسمع يعقوب يقول : « شالوم عليخم » فقالها هو أيضا ودخلا والسيافان لا يتحركان كأنهما تمثالان . فمشى يعقوب في الممر تلك المشية الخاصة التي علمها لالفونس في ذلك النهار ، ومشى الفونس مثلها وهو يتستر لاضطرابه وارتباكه ، حتى وصل الى باب مقفل فقرعه بشيء خاص خمس قرعات ، فانفتح الباب وانطفأ النور معا . فأجفل الفونس ولكنه تذكر وصية يعقوب فثبت جنانه . وسمع صوتا يخاطبه بلسان لم يفهمه وسمع يعقوب يقول له : « اوهيب موعيد » فقالها هو أيضا ومشيا في تلك الظلمة والفونس يحسب نفسه صاعدا على سلم ، ثم انفتح لهما باب آخر وحال انفتاحه احس الفونس بهواء دافئ خارج منه تخالطه رائحة الانفاس . فشعر بالدفء ونسي ما كان يشعر به من البرد في السرداب . ودخلا من الباب فأشرفا على قاعة كبيرة في وسطها شبه مائدة عليها سراج معلق وبجانبه درج كبير ، وحول الجدران مقاعد عليها اشباح سود بمثل جبابنه ، ووجوههم مقنعة بمثل نقابه . وأمام كل منهم سيف مسلول يلمع ويتقد في نور السراج الضعيف . فارتعب لذلك المنظر الهائل على أنه التفت الى جانبه فاذا بيعقوب قد مشى بخطوات كان قد علمه اياها فمشى مثله حول

المائدة والسراج مرتين . وقبل الدرج الموضوع هناك ، وهو لفافة من جلد . ثم مشيا الى كرسيين في صدر القاعة خاليين فجلسا عليهما وامامهما سيفان مسلولان . فالتفت الفونس الى ما حوله فلم ير الا اشباحا سوداء بشكل واحد وقيافة واحدة . وندم لمجيئه على تلك الصورة مخافة ان يكون عليه خطر . ولكنه تذكر ثقته بيعقوب فاطمأن باله ولبث الجميع برهة ساكتين . ثم نهض احدهم عن كرسيه وتقدم الى المائدة وتناول الدرج وفتحه بين يدى المصباح فرأى الفونس عليه كتابة لايفهمها . ثم اخذ الرجل في القراءة فوقف الجميع والفونس في جملتهم ، حتى اذا اتم قراءته قبل الدرج ورجع الى مكانه وجلس . فجلس الباقون لا ينطق احد بكلمة ، الى ان تكلم الرجل بذلك اللسان كلاما طويلا اجابه عليه بعض الحاضرين ، ثم تكلم يعقوب باللسان القوطي قائلا : « يسمح حضرة الرئيس بعقد جلسة خاصة يحضرها هو ومن شاء للمداولة في امر مهم »

فوقف الرجل الاول وبيده سيف صغير واشار به اشارة خاصة فوقف الجميع . ثم انفرد منهم ثلاثة وقفوا بازائه . وتقدم يعقوب والفونس حتى وقفا معهم . ثم تحول الرئيس الى باب وراءه ففتحه ودخل وتبعه الباقون الى ممر مظلم انتهوا منه الى باب فتحه بيده ودخل الى حجرة مظلمة ووقف ببابها وتكلم ، فجاءه من بين الجماعة رجل بشمعة مضيئة مرتكزة في طوق من البرونز فتناولها منه . ورجع الرجل واغلق الباب وراءه . فدخل الرئيس بالشمعة حتى وضعها على حجر مرتفع في بعض جوانب المكان

ونظر الفونس في ذلك المكان فاذا هو حجرة صغيرة جدرانها سوداء وسقفها اسود . وفي ارضها صندوق كالتابوت الكبير فوقه درج صغير وحول التابوت بساط جلسوا عليه والتابوت في وسطهم . فثار الفونس من ذلك المنظر الرهيب . وخفق قلبه لهول ما شاهده من الغرائب . وقد نفد صبره لمشاهدة اشباح سوداء لقوم لا يرى لهم وجوها ولا يدرى من هم ؟ فلما جلسوا تكلم يعقوب بالقوطية وقال : « هل يظن الرئيس ان الطعام قد نضج ! ؟ »

قال : « انت ادرى منا بنضجه لانك موقد ناره »

فقال يعقوب : « ارجو ان يكون قد نضج . ولكنه يحتاج الى ادام كثير لان الطعام بلا ادام لايؤكل »

قال : « الادام كثير ومنه في هذا الصندوق ما يطبخ به طعام العالم بأسره . فضلا عن امثاله مما يحمل الى المطبخ عند الحاجة ! »

فلم يفهم الفونس مغزى تلك الرموز ، ولكن يعقوب التفت اليه وقال : « ان المادة التي تنقصك لاتمام مشروعك مختزنة في عشرات من امثال هذا الصندوق وقد جمعت فيها منذ اعوام ، ولكنها لا تبذل الا عند الحاجة » ، قال ذلك واوما الى الرئيس فاستخرج من جيبه مفتاحا فتح التابوت به ، وحالما رفع الغطاء ابرق ما تحته اصفر زاهيا . فنظر اليه الفونس فاذا هو نقود ذهبية خالصة ، ثم اقفله الرئيس واعاد المفتاح الى جيبه . فاندهش الفونس لمنظر ذلك الذهب ، وادرك انه بين جماعة ذوي اقتدار . والتفت اليه الرئيس وقال : « لا تطمع في استطلاع شيء غير الذي تراه ، واعلم انك عرفت شيئا لم يعرفه احد من الذين رايتهم في الحجرة الاخرى وهم يجتمعون معنا منذ اعوام ، ومنهم من يبذل ماله وروحه في سبيل ذلك الغرض ! »

فتكلم عند ذلك يعقوب وقال : « يكفي مولاي ما قد شاهده ، ولا نشك انك في اسانا الوفا من امثال هؤلاء المظلومين ، وعندهم الاموال المختزنة في الصناديق ، وهم يبذلون انفسهم في خدمته فضلا عن اموالهم »

فلما سمع الفونس قوله « المظلومين » انتبه الى انه بين يدي جمعية سرية تتواطأ على قلب الحكومة ، وتذكر ما كان يسمعه من كلامهم المبهم فخطر له أن يكونوا يهودا ، ولكنه كان يعلم ان اليهود قد انقرضوا من المملكة اما بالنفي او بالقتل او اعتناق النصرانية فقال ليعقوب : « قد فهمت السر فالاولى ان تفصح وانت اعلم الناس بمربيتي وقصدي وفحـ ... ي من قبلي »

فعند ذلك التفت يعقوب الى الرئيس وقال : « يسمح لي ان اكاشف كلا منكما بسر الآخر . اعلم يا حضرة الرئيس ان الرجل الذي جئتكم به الليلة هو نصيرنا الوحيد في هذه الدنيا ، واذا قلت لكم من هو هان عليكم مكاشفته بامرنا ، انه الفونس ابن المرحوم عظمة ملك اسبانيا ، وهذا يكفي ! »

وقال الرئيس : « لعله على عزم والده تماما ؟ » . فقال يعقوب : « نعم هو نصير المظلومين ، وقد عول على السعي في انقاذنا من هذا الطاغية اللعين الذي يسمي نفسه ملكا ، وانما يجوز المال وهو عندنا ، فاسمح لي بعد هذا التصريح ان ابينه بحقيقة الامر » . قال ذلك وحول خطابه الى الفونس قائلا : « اعلم ايها الملك — وانا اخاطبك بالملك لاننا لا نعرف ملكا على اسبانيا سواك — انك في جمعية اسرائيلية ، وكل الذين رايتهم في هذه الجلسة يهود ما زالوا على دين

آبائهم واجدادهم ، وينويون عن الوف من اهل هذا الدين منتشرين في انحاء المملكة الاسبانية يتظاهرون بالنصرانية فيحضرون القداس في الكنائس ، ويتناولون القربان ، ويقومون بسائر الفروض المسيحية، وكان منهم في الكنيسة في صباح هذا اليوم مئات ، وقد رأيتاهم يسجدون أمام الأيقونات ويتلون الصلوات ، وربما سمعتاهم يدعون بنصر رودريك وهم يودون قتله . وقد صبروا على هذا الظلم وكظموا الغيظ اعواما وهم يجمعون المال ويختزنونه ، لاغتنام الفرصة للنهوض من تحت هذا النير ، حتى اذ كادوا يظفرون بغيتهم على يد والدك المرحوم استبدل به أهل المطامع هذا الطاغية وهو لا يستحق هذا المنصب ، بل انت هو صاحبه الشرعي فنرجو ان تكون النجاة على يدك ».

فلما سمع ألفونس قوله انجلى له كثير من الاسرار التي ما برح يود الاطلاع عليها منذ خاطب عمه اوباس في هذا الشأن ، فاكتفى بما رآه وسمعه ، واجل استطلاع ما بقي من الغوامض الى فرصة اخرى ، ولبث صامتا يراجع ما مر به من المصعبات فرأى انه يتقدمه ان يعرف وجوه اولئك الناس خصوصا بعد ان عرفوه باسمه . وكان يعقوب قد ادرك مرضه فقال له : « ولا يطمع مولاي الآن ان يطلع على ما وراء ذلك . ان نظام الجماعة يقضي بالستر حوفا من ان يبوح احد بأمرهم ، فانت الآن بعد ان اطلعت على هذه الاسرار المهمة تمسي اذا خرجت من هذا المكان كأنك لم تدخله ، لانك لم تر وجوه الاشخاص فلا يمكنك ان تتهم احدا من الناس ، وربما كان بعض هؤلاء من رجال الجند او الكهنة او العمال او الزراع ، وكلهم من عداد المسيحيين ويكفيك ان تعرف واحد منهم وهو انا ».

فاعجب ألفونس بهذا الضرب من الاحتياط ، وعلم ان يعقوب يهودي ، وتذكر ما آنس يطلبه من التساهل في اداء الفروض الدينية من الصلوات ونحوها ، وان عمه اوباس كان يساعده على ذلك ، وخطرت له خواطر كثيرة بشأن علاقة يعقوب بوالده وعول على استطلاع سر هذا الامر فيما بعد . ثم اعترض مجاري افكاره دبيب توالت اصواته فوق رؤوسهم فاندهل ألفونس والتفت نحو السقف فابتدره يعقوب قائلا : « لا تضطرب يا مولاي ما تسمعه لان فوقنا شارعا من شوارع المدينة ، والناس يمرون عليه ليل نهار ، وليس في اهل استجة من يعلم بوجود هذا البناء تحت الشارع الا اعضاء هذه الجمعية » . فازداد ألفونس استغرابا لما عاينه في تلك الليلة من



طرق التحفظ وأبواب الدهاء وقال فى نفسه : « ان قوما هذا مبلغ دهائهم وتملقهم وصبرهم لجديرون أن ينالوا بغيتهم ! »
وفيما كان الفونس يفكر فى ذلك سمع قرعا بعيدا يشبه ان يكون على الباب الذي ينتهى اليه السرداب ، ولكنه راى عدد الطرقات وكيفية ضربها يختلفان عما فعله يعقوب لما جاء به. ثم ما لبث ان راى الرئيس ويعقوب وسائر الجالسين معه قد انصتوا لما عساه ان يعقب ذلك الطرق فخاف ان يكون وراء انصاتهم ما يدعو الى القلق ، ولو كانت وجوههم مكشوفة لاستطلع ذلك فى عيونهم وجباههم. ثم سمع قرعا ثانيا على الباب الآخر بكيفية أخرى ولم يفرغ الطارق من الطرق حتى تحول انصات وفاقه الى الحركة ، وسمع الرئيس يقول : «لقد جاءنا رسول بخبر جديد ، عساه أن يكون قادما من اخواننا فى الشام او مصر أو من افريقيا »
فاستغرب الفونس تنبؤ الرئيس عن الرجل من سماع قرع الباب، وادرك ان لهذه الجمعية علاقات واسعة فى الشام ومصر وغيرهما فلم يتمالك ان قال : « كيف عرفت الرجل من سماع القرع عن بعد ، وهل لهذه الجمعية من أعضاء فى تلك البلاد ؟ »
قال : « عرفته من قواعد موضوعة لهذا الغرض يعرفها أعضاء هذه الجمعية . واما سؤالك عن سعة الجمعية فان لها أعضاء فى أنحاء بعيدة أرسلتهم للبحث عن طريقة نتخلص بها من هذا الرق ! ».
وسكت هنيهة ثم قال : « ومن هؤلاء الأعضاء أناس قد تصدروا فى مجالس الدول وتقلدوا مناصبها ؛ ومنهم من يعمل عمل الخدم ويقاسى مرارة الذل والشقاء ويؤدى أدنى الأعمال ، وهو ليس من مصاف الخدم ، بل قد يكون من اهم أعضاء الجمعية ومن اكثرهم بذلا فى سبيلها ، وانما يتزيى بزى الخدم تنفيذا لغرض يعود على الطائفة بالخير ! »
وكان الفونس وهو يسمع كلام الرئيس يشعر بنور يضيء بصيرته، فادرك للحال ان خادمه يعقوب من كبار هذه الطائفة واهم أعضاء هذه الجمعية ولكنه ما زال ميالا الى استطلاع علاقته بأبيه وعمه لانهما كانا عارفين بسره على ما ظهر من كلام أوباس — فأجل ذلك الى فرصة أخرى ولبث ينتظر دخول الرسول القادم . ولم تمض برهة وهم سكوت يسمعون صدى الحركات فى القاعة الكبرى حتى سمعوا قارعا يقرع باب تلك الحجرة السوداء قرعا خاصا ، فنهض يعقوب وفتح الباب فدخل منه رجل طويل القامة عليه ذلك الجلباب الأسود،

وحال دخوله وجه وجهه نحو الرئيس وكلمه بالعبرانيـة كلاما لم يفهمه الفونس ، فأجابه الرئيس . وتخاطبا برهة بتلك اللغة والفونس لا يفهم ، ولكنه استغرب توجيه القادم كلامه للرئيس حال وصوله وهو لا يرى فرقا بين مظهر الرئيس وبين سائر الجالسين لانهم بلباس واحد ولون واحد ، فتوسم في ذلك سرا لم يتمالك عن الاستفهام عنه من يعقوب في اثناء مخاطبة الرئيس والرسول بالعبرانيـة . فقال يعقوب : لو امعنت النظر في ثوب الرئيس لرايت على كتفه علامة تميزه عن سائر الاعضاء ، ولا تظهر الا عند التامل . وفي هذه الجمعية علامة لكل من اصحاب المناصب فيها كالكاتب والخازن وغيرهما . غير ان هذه العلامة لا يراها غير المتامل »

فتامل الفونس في كتف الرئيس فراى عليها عقدة سوداء بجانب العنق ونظر الى اكتاف الرفاق فراى على كتف يعقوب عقدة تشبه عقدة الرئيس ولكنها بشكل آخر فاراد أن يستفهم منه عن دلالة علامته فسمع الرئيس يخاطب القادم بالقوطية قائلا : « لقد سرني قدومك الليلة لنسمع حديث رحلتك ، وعندنا من يهمه سماعها ويهمنا اطلاعه عليها . ونحن في حجرة الخلوة وما فيها الا عمدة الجمعية فمن اين انت قادم الآن ؟ »

وكان الرجل قد جلس في جملة الجالسين حول التابوت فقال : « اني قادم من سبتة ، وخبري طويل لا يتسع الوقت لتفصيله ، ولكني اعجل لكم منه ما يهمكم ويهمنا . ولو كشفت لكم عن وجهي لرايتم البشر ظاهرا فيه اذ يظهر لي ان زمان اسرنا قد انقضى أو قارب الانقضاء ! »

فلما قال ذلك ظهر الاهتمام في حركات الجالسين واصغوا وقد تطاولوا باعناقهم الى المتكلم وقال الرئيس : « بشرك الله بالخير . عسى أن يكون قد انقضى أسرنا كانقضاء اسر اجدادنا في بابل منذ بضعة عشر قرنا »

فقال الرسول وقد وجه خطابه الى الرئيس : « لايخفى على حضرة الرئيس اني مقيم منذ أعوام في « سبتة » على شاطىء افريقيـة (مراكش) وهي وما يليها تابعة لهذا الطاغية صاحب طليطلة الآن وكان يجب ان تكون تابعة لمملكة الروم الشرقية لانها جزء من افريقية ولكن الروم تقلص ظل سلطانهم عن افريقية بما أتاه العرب من الفتوح، لانهم فتحوا كل سواحلها تقريبا الا سبتة وما يليها فالتجأ صاحبها الى اسبانيا وصارت سبتة ولاية من ولاياتها كما تعلمون

فقطع الرئيس كلامه قائلا : « يظهر ان ابناء اسماعيل قد افلحوا في دينهم الجديد ! »

فأجاب الرجل : « نعم يا مولاي » . ولم يفهم الفونس معنى هذا السؤال ولا من هم بنو اسماعيل ، ولكنه لم يستحسن قطع الحديث لاجل الاستفهام فسكت . واما الرجل فانه اتم كلامه قائلا : « ان ابناء عمنا هؤلاء قد قلبوا العالم بأسره ومدوا سلطانهم على العراق والشام وافريقية وفارس وخراسان الى اقصى المعمور ! » . فازداد الفونس استغرابا لقوله : ابناء عمنا ! ولم يتمالك ان التفت نحو يعقوب . فادرك يعقوب مراده قبل ان يكلم فقال له : « ان العرب الذين قاموا بالدين الجديد هم ابناء اسماعيل بن ابراهيم . واليهود ابناء اخيه اسحق ، فهم بهذا الاعتبار ابناء عمنا » .

فتحول الفونس نحو المتكلم لاستتمام الخبر فاذا هو يقول للرئيس : « وقد سافرت في اسفاري للتجارة وخدمة الجمعية الى الشام ومصر ، واختلطت بالناس ورأيت كثيرين من اخواننا اليهود الذين استطاعوا التخلص من هذا الذل بالخروج من هذه البلاد وهم الآن في افريقية ومصر والشام في راحة وسكينة لا يتعرض لهم احد في دينهم ، يصلون كيف شاءوا ومتى شاءوا ويتعاطون اعمالهم وتجاراتهم بامان وسهولة . وليس ذلك شأن اليهود الغرباء فقط بل هو شأن كل السكان من كل الطوائف لان اليهود كانوا مضطهدين ايضا في تلك البلاد تحت نير الروم يذوقون العذاب الوانا كما كنا نذوقه نحن منذ بضعة قرون قبل ان أجبرونا على النصرانية او المهاجرة او القتل ، واضطررنا الى الفرار او التظاهر بالنصرانيـة كما تعلمون . واما اخواننا في مملكة الروم فكانوا ارحم حالا منا ، ومع ذلك فانهم لم يصبروا على ذلك الضيم وكثيرا ما كانوا يفتكون بالنصارى ويقاومون الحكومة . فلما جاء ابناء اسماعيل لفتح بلادهم كانوا من اعوانهم على ذلك . وقد احسنوا صنعا لانهم تحرروا من رق الروم واستبدادهم وامنوا على ارواحهم واموالهم وخفت عنهم الضرائب وهم في نعيم » .

فقال الرئيس : « وكيف ذلك ؟ الم يخرجوا من سلطان الى سلطان ، ومن ضريبة الى ضريبة ؟ الم يحكم العرب فيهم سيوفهم او نفوذهم ؟ الم يضربوا عليهم الضرائب ؟ »

قال : « نعم يا مولاي . ان العرب فتحوا تلك البلاد بالسيف او الصلح وصارت تحت سلطانهم . ولكنهم في الحقيقة قلما يتعاطون

شيئا من امورها حتى انهم لا يقيمون في المدن ولا يختلطون بالرعايا الا نادرا ، وفي اوقات معينة ولاغراض وقتية »

فقطع الفونس كلامه وقال : « وكيف يكون ذلك ، واين يقيمون ؟ وكيف يحكمون البلاد وهم لا يقيمون فيها ؟! »

قال : « لا الومك على استغرابك ذلك لانه غير مألوف فيما تعرفون في هذه البلاد حيث يتداخل الحكام في كل حركة من حركات الناس ، بل هم يعدون الرعايا عبيدهم . واما هؤلاء العرب فانهم بعد ان فتحوا تلك البلاد ووضعوا عليها الجزية والخراج نزلوا في ضواحيها وابتنوا لانفسهم مدنا لا يقيم فيها سواهم كالقيروان في افريقية ، والفسطاط في مصر ، والبصرة والكوفة في العراق ، وتركوا اهل البلاد الاصليين على ما كانوا عليه في ايام الروم او الفرس ، كل منهم على دينه واعتقاده ، يتعاطى عمله وليس عليه الا اداء الخراج او الجزية كل عام ، وهي ضرائب زهيدة لا تقاس بما كان الروم يسومون رعاياهم من امثالها . وكان الناس عند اول الفتح اهنأ عيشا منهم الآن بالنظر لظلم بعض عمال بني امية ، ومنهم عامل في العراق اسمه الحجاج شديد الوطأة على اهل البلاد يطالبهم بالخراج الكثير لحاجته اليه في الحروب . ولكن الملك الاكبر الذي يسمونه الخليفة يقيم في دمشق الشام ، وكثيرا ما يبعث الى عماله ان يعودوا الى الرفق . ومع كل ذلك فان الرعايا من اليهود او النصارى احسن حالا تحت سلطان العرب منهم تحت سواه ، خصوصا اذا عاد العرب الى ما كان عليه خلفاؤهم الاولون من العدل والرفق والمساواة . ولولاها لم يسهل عليهم الفتح حتى امتد سلطانهم على معظم العالم المعمور في الشرق »

فقال الرئيس : « يا حبذا لو انهم يأتون الينا فيستولون على هذه البلاد ، لانهم اذا كانوا اخف وطأة من بطارقة الروم فبالاولى ان يكونوا افضل لنا من حكومة القوط ؟ »

فاعترضه الرجل الرحالة قائلا : « لا يحق لنا ان نشكو من حكم القوط على الاجمال . فان بعضهم كان كثير الرفق بنا خصوصا الملك غيطشه السابق فانه كان عازما على تحرير رقابنا واطلاق حرية الدين لنا ، ولكن المنية عاجلته ، أو هم عجلوها له . فخلفه الطاغية رودريك وهو من اظلمهم جميعا قبحه الله »

□

فانتبه الرئيس لوجود ابن غيطشة بينهم ، واعجبه ما قاله الرحالة من اطراء ابيه فقال : « لقد نطقت بالصواب . وعلى كل حال فاننا

وددنا لو ان هؤلاء العرب يأتون اسبانيا . ولا نظنهم يلقون صعوبة كبرى في فتحها ، اذ ما من طائفة من اهلها لا تشكو من هيئة الحكومة »

فقال الرحالة : « ان ما تتمنونه وانتم جلوس هنا قد سعى فيه اخوانكم هناك ، وانا في جملتهم ، وكثيرا ما حرضنا عليه هؤلاء العرب وحببنا اليهم هذه البلاد ، وبينا لهم سهولة فتحها عليهم وهم هائبون ، ولكن يظهر انهم اوشكوا ان يحملوا عليها »

فابتدره الرئيس بلهفة قائلا : « هل تعني ماتقول ؟ » . قال : « نعم يا مولاي ، وهو الخبر الذي جئت من اجله وكنت عازما على مباغتكم به فاخرجنا الحديث عنه . قلت لكم أن (موريتانيا)ــ وقاعدتها سبتة ــ هي احدى ولايات الرومان ، فلما فتح العرب افريقيا اصبحت موريتانيا منفردة عن مملكة الروم فانحاز صاحبها الى اسبانيا ليكون في كنف دولة نصرانية .. ولما خرجت انا من اسبانيا الى موريتانيا كان حاكمها رجلا اسمه « يوليان » فتظاهرت بالنصرانية ، وعمدت الى تجارتي اشتغل بها وانا ارتحل في البلاد واعود الى سبتة وفي نفسي ما تعلمون من الغيظ لما تقاسيه طائفتي من الفتك والعسف تحت نير القوط ، فاتيح لي اني انتقمت لها من يوليان هذا انتقاما ليس هنا محل ذكره . وكنت مع ذلك من المقربين اليه ، يثق بي ويشاورني في اموره ، وانا اظهر له الود واغتنم الفرص لنيل بغيتي ، وما هي الا ان احبب الى العرب فتح اسبانيا ، ولكني اعلم ان السبيل اليها لا يكون الا اذا فتحوا سبتة لوقوعها على بحر الزقاق ، وهو اقرب سبل العرب الى هذه البلاد

« وكان عامل العرب على افريقيا في الاعوام الاخيرة رجلا شجاعا ذا همة اسمه موسى بن نصير ، فبعث برجاله حتى فتحوا طنجة واقاموا فيها وحاصروا سبتة من البر ويوليان ممتنع فيها . صابر على ولاء القوط مع علمه ان صبره لا يجديه نفعا . ولكنه لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك لاسباب لا تجهلونها »

وكان الفونس لما ذكر اسم يوليان خفق قلبه لعلمه انه والد حبيبته فلورندا واصاخ بسمعه لعله يسمع شيئا يتعلق بها . واستأنف الرجل حديثه قائلا : « وكنت انا في اثناء ذلك الحصار في قصر يوليان اجالسه كثيرا وهو يركن الي ويقربني منه لغناي وسعة تجارتي لعله يحتاج الى مال او مؤونة في اثناء الحصار ، وانا اكثر منه رغبة في التقرب كما تعلمون . فبينما انا في منزلي واذا برسول يوليان

يدعونى اليه عاجلا . فمضيت حتى اذا دخلت قصره واشرفت على باب غرفته رأيت شابا خارجا منها يظهر من قيافته أنه قادم من سفر بعيد . وعلمت من شكل لباسه انه من اهل طليطلة واحسبه من خدم الملك . فسرت حتى دخلت الغرفة وكنت ادخلها دائما بلا استئذان . فرأيت يوليان جالسا على كرسى بجانب نافذة تطل على البحر الكبير وبيده شيء قد قبض عليه وهو مستغرق فى الهواجس . فلما سمع خطواتى نهض بغتة ورمى الى بما كان بيده وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما وهو يقول : اقرأ هذا يا فلان وانظر شقائى وتعاستى ! ما كفتنى المصيبة التى اصابتنى من اول عهد شبابى حتى بليت باقبح منها من رجل انت تعلم انى اقاسى عذاب الموت فى سبيل المحافظة على الولاء له ، فالتقطت ما رماه فاذا هو قطعة من قماش اظنها مقطوعة من قميص او رداء وعليها كتابة حمراء كأنها كتبت بالدم . ولما قرأتها اقشعر بدنى استغرابا ولكن قلبى كاد يطفح سرورا لعلمى أن فى ذلك الكتاب حلا للمشكل الذى نحن فيه .

وكان الفونس فى اثناء ذلك قد بلغ به الاضطراب غايته . وكان سائر السامعين قد ارهفوا آذانهم لاستماع الخبر الجديد . بينما استأنف الرجل حديثه قائلا : « قرأت الكتاب فاذا فيه : والدى العزيز . سلمت ابنتك الى رجل يسمى نفسه ملكا . وهو وحش كاسر ؛ لا يراعى ذماما ولا حرمة ولا عرضا . ولولا العناية الالاهية لذهبت بربه بعبه وعسفه ! . اكتب اليك هذا على قطعة من ثوبى وانا هائمة على وجهى لا ادرى اين اختبىء من شر هذا الظالم الجائر . ولا ادرى متى التقى بك . فما جزاء من اراد بابنتك سوءا ؟ . وسيشرح لك حامل هذا الكتاب ــ اذا استطاع الوصول اليك ــ بما قد يشكل عليك فهمه . كتبته فلورندا »

فلا تسل عن الفونس واضطرابه وخفقان قلبه . ولولا ذلك اللثام لافتضح امره لاستغرابه قولها : « انا هائمة على وجهى » وقد كان يظنها فى مأمن عند عمه . فعظم عليه الامر ولكنه كظم عواطفه وصبر نفسه لسماع بقية الحديث . وكذلك كان شأن يعقوب

اما الرجل فانه اتم حديثه قائلا : « فلما فرغت من قراءة الكتاب اظهرت الاسف وقلت له : الى متى البقاء على ولاء رجل لا يراعى ذماما ولا يحفظ حرمة ولا يتقى عرضا ! انت تعرض نفسك للخطر وتصبر على الاهوال فى الدفاع عن سلطانه وهو يفعل هذا الفعل مع ابنتك ! . وكان يوليان قد استولت عليه السوداء منذ اعوام

على اثر مصيبة انتابته وثقل عليه حملها ، فجعلت استحثه واهيج عواطفه حتى قال : « لا بد لى ان انتقم من هذا الخائن واسلم هذه البلاد للعرب فانهم احفظ منه للجميل . ولا يكفى ذلك بل انى محرضهم على فتح اسبانيا الى طليطلة حتى يصيبوا مقتلا من رودريك فاشفى غليلى » . فسرنى عزمه على ذلك وهو الغرض الذى طالما تمنيته وسعيت فيه ، فجعلت اقوى عزيمته واهون عليه الامر حتى قلت : « واذا احببت فانى اسعى عنك فى مخابرة العرب واجعل تسليمك على سبيل الخدمة لك ولهم ، وليس عن ضعف او عجز » . فرضى منى بذلك وخرجت فخابرت موسى بن نصير امير العرب فسر ورحب بيوليان وعرض عليه عبور بحر الزقاق الى العدوة الاخرى وفتح الاندلس ، على ان يكون هو معهم يطلعهم على عورات القوط ، فرضى موسى ولم يمض عند سماعى ذلك الا القدوم الكم بهذا الخبر » .

فلما بلغ الرجل الى هذا القول استولت الدهشة على الجميع خصوصا العونس ، فانه وقع بين عاملين : عامل الغرام بفلورندا وقد اشتعل خاطره بشأنها بعد ان علم انها ليست فى بيت عمه ، وعامل اليأس من الملك اذا فتح العرب هذه البلاد لانها تخرج من سلطان القوط على الاطلاق . وادرك يعقوب ما قد يخطر ببال العونس من هذا القبيل وخاف ان يغير ذلك من رايه فى مقاومة رودريك ، ثم تذكر مسالة فلورندا وما فى نفس العونس على رودريك بشانها فعلم انه لا يمكن ان يصفو له مطلقا خصوصا بعد ان سمع شكاية فلورندا لابيها . على انه احب ان يثبت العونس فى عزمه فقال ووجه خطابه الى الرئيس : « ان هذا الخبر الذى جاءنا به اخونا هذا من الاهمية بمكان عظيم . ولا نظن العرب الا فاتحين هذه البلاد خصوصا لان يوليان معهم يدلهم على الطريق . وطبعا نحن نكون عونا لهم ايضا لاننا نخدم مصلحتنا ولا يغير ذلك شيئا من غرضنا الاول فى استرجاع الحكم ، لاننا قد سمعنا الآن ان العرب يستبقون البلاد على ما هى عليه ، وما نظنهم اذا علموا بنصرة مولانا العونس لهم الا مسلمين اليه الاحكام مكتفين بالخراج والجزية والسيطرة الخارجية » .

وكان العونس يسمع ذلك باهتمام ، واصبح شديد الرغبة فى الخروج من ذلك المجتمع للبحث عن فلورندا ، على انه اراد قبل الانصراف ان يستوثق من الامر الذى جاء من اجله ، فرد على كلام يعقوب قائلا : « ظن صاحبى يعقوب ان نقمتى على رودريك انما هى لرغبتى فى السلطة ، ولكن الحقيقة ان غرضى الاول هو انقاذ هذه

البلاد من استبداده وإطلاق سراح اليهود الذين أجبروا على التنصر به ظلما. فإذا حدث ذلك فليس يهمني بعده من يملك»

فقال الرجل: «أؤكد لمولاي أن المسلمين إذا فتحوا هذه البلاد فعلوا كما ذكرت، ولا أظنهم يستغنون عن مولاي في حكم هذه البلاد بعد فتحها. فقد ولوا على طنجة رجلا بربريا اسمه طارق مع أن البرابرة لم يذعنوا لسلطانهم إذعانا تاما حتى الآن. ولعلهم يفعلون ذلك لقلة عددهم بالنظر إلى سعة البلاد التي يفتحونها واضطرارهم إلى الاستعانة بغير العرب في ضبط الأحكام. وعلى كل حال فإننا لا نألو جهدا في إقناعهم بذلك»

فلما سمع ألفونس قوله اطمأن خاطره من هذه الناحية ولم يبق ما يشغله إلا أمر فلورندا. فالتفت إلى الرئيس وقال: «هل من كلام يلقى علينا أم تأذنون بانصرافنا؟» فقال الرئيس بعد أن وقف الجميع: «إذا شئت الانصراف فالأمر فيه أمرك. ولكنا نرغب إليك أن تعتقد صدق شعورنا في خدمتك، وأن اليهود في كل هذه البلاد يضحون بأموالهم وأنفسهم في مصلحتك، وعهد الله في ذلك بيننا وبينك». فشكره ألفونس وقال: «قد ذكرت لكم غرضي. والله ولي التوفيق»

ثم تحرك يعقوب نحو الباب وأشار إلى ألفونس فتبعه وخرجا من تلك الحجرة إلى الغرفة الكبرى وفيها المقاعد حول المنصة كما تقدم، فمشيا فيه حتى خرجا من باب إلى باب. حتى انتهيا إلى السرداب ومنه إلى الكهف. فلما أطلا على الخلاء رأيا الفجر قد لاح فعلم ألفونس أنهم قضوا طول الليل هناك وأحس برد الخلاء. ثم ركبا الجوادين الأسودين وخرجا من الكهف يلتمسان المدينة. وكان بابها قد فتح فدخلاها وسارا يقطعانها نحو الحصن، وألفونس لا يعلم لما ازدحم في مخيلته من الأمور الجديدة. ولم يعد يدري كيف عامل يعقوب بعد أن عرف أنه من أعيان اليهود، لكنه ظل راغبا في استطلاع بقية سره. على أنه كان قد استولى عليه الصداع بعد خروجه من السرداب إذ استقبله النسيم البارد على أثر سهره الطويل. فأصبح لا يستطيع بحثا في شيء. ولكن صورة فلورندا لم تبرح مخيلته، ومما سمعه من أقوالها إلى والدها لم يغب عن سمعه

ووصلا إلى القلعة وهو ما زال ساكتا. ويعقوب يراقب حركاته وسكناته. وكان قد أدرك بعض ما يجول في خاطره. ولم يشأ أن يحادثه في شيء غير الاستفهام عما يريده من طعام أو نحوه. وبعدما

الى غرفة الفرس فأعد له يعقوب كل ما يحتاج اليه وهيأ له الفراش فنام . ونام يعقوب أيضا

فلنتركهما نائمين بجوار اسنجة . ولنذهب بالقارىء الى افريقية وهي بلاد البربر المعبر عنها اليوم بشمالي أفريقيا وفيها برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش ، لنبحث عن احوال العرب هناك الى فتح الاندلس

— ٧ —

توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٥ هـ فخلفه ابنه الوليد . وكان عبد الملك قد تولى الخلافة عشرين سنة . قضى معظمها في محاربة مناظريه عليها ، وكثيرا ما خاف خروجها من يديه . ولكنه كان ذا سياسة ودهاء . وقد نصره الحجاج بن يوسف أدهى عمال المسلمين وأشدهم وطأة فخلصت الخلافة لعبد الملك . فلما مات خلفه ابنه الوليد وقد نجا من المنافسين . فانصرف همه الى توسيع المملكة الاسلامية فبعث قتيبة بن مسلم نحو الشرق لفتح ما وراء النهر فتوغل في بلاد الترك حتى أدرك حدود الصين . وبعث أخاه مسلمة ابن عبد الملك شمالا لغزو بلاد الروم ففتح عمورية وهرقلة وقمونية وغيرها . وبعث موسى بن نصير الى افريقية فولاه اياها وامره ان يتم فتحها

وكانت افريقية قد فتحت في صدر الاسلام والخلفاء بمصر ولكن اهمل شأنها لبعدها ومشقة المسير اليها . واهل افريقية الاصليون قبائل عديدة من البربر لهم السمة خاصة وعادات خاصة . وبلادهم كثيرة المناصب والمرعى . وكانوا لما انشغل الامويون عن افريقية بانفسهم أيام عبد الملك قد اغتنموا الفرصة وحاولوا التخلص من حكم المسلمين فتمردوا وشقوا عصا الطاعة . فبعث اليهم عبد الملك حسان ابن النعمان فحاربهم واخضعهم ونشر الاسلام فيهم . ولكنهم ما لبثوا ان عادوا الى الاضطراب . فلما تولى الوليد بلغه انهم في انقسام فيما بينهم فرأى ان يغتنم هذه الفرصة لتأييد سلطانه هناك وتتمة فتح تلك البلاد فبعث اليها موسى بن نصير وهو عربي لخمي وكان قائدا باسلا حسن الاعتقاد في الاسلام . فبرح القيروان ثم تتبع البربر الى بلاد السوس الادنى وهم يفرون من بين يديه حتى اذا يئسوا من النصر جاءوا اليه مستأمنين وبذلوا له الطاعة . فولى عليهم اناسا من

رجاله يضبطون أحوالهم ويعلمونهم القرآن وفرائض الإسلام

وكان في جملة مواليه رجل من البربر اسمه طارق بن زياد، وكان شجاعاً اعتنق الإسلام وأظهر غيرة عليه ورغبة في تأييده. فلما اتسعت فتوح موسى في افريقية ولي مولاه طارقاً على طنجة وأعمالها، وترك عنده ١٩٠٠٠ فارس من البربر ممن أسلموا وحسن إسلامهم. ورجع موسى الى افريقية ولم يبق في تلك البلاد غير خاضع للمسلمين مدينة سبتة وهي ميناء مشرف على «بحر الزقاق» المسمى الآن بوغاز جبل طارق. وكان حاكمهما هو الكونت يوليان المتقدم ذكره

وكان جماعة البربر في المغرب يعبدون الأوثان، الا بعض من خالط الروم على شواطئ البحر فإنهم اعتنقوا النصرانية. وكان لكل قبيلة أصنام وعبادات. وكهنة يديرون شؤونها ويتولون الأحكام بين أهلها كما كان يفعل الكهان عند العرب في الجاهلية، وكان البرابرة يستشيرون كاهنهم ويسمى «مارابوط» في شؤون الحرب والسلم، ويحملون اليه الهدايا من الماشية والحنطة والرقيق الأسود والأبيض. وكان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر فيخطفون الأطفال والغلمان ويحملونهم الى الآفاق يتجرون ببيعهم. كما كانوا يتجرون بغلمان البيض من أهل اسبانيا وغيرها — والغالب أن يكون هؤلاء من أسرى الحرب — وكان بيع الأسرى شائعاً في تلك العصور.. واشتهر برابرة المغرب خصوصاً بركوب الخيل

وكان طارق بن زياد ينتمي الى قبيلة الصدف، احدى قبائل البربر. وقد نشأ في الجبال وعاش عيشة البدو، وتدين بالوثنية مثل سائر أهله ورفاقه. وشب قوي البنية شديد البطش شجاعاً وكان منذ نعومة أظفاره مشهوراً بين رفاقه بالفروسية والقوة

وكان من جملة عشرائه غلام أبيض بعكس سائر البرابرة. وكانت تقاطيع وجهه تختلف عن تقاطيع وجوههم — فالبرابرة ضخام الشفاه عراض الوجوه قصار الأنوف سود الشعر والبشرة. بينما هو أبيض الوجه أشقر الشعر أزرق العينين. ولكنه بالنظر الى معيشة البداوة في البراري وركوب الخيل والعري أسمر لونه قليلاً وصحت أعضاؤه كلها فاتسع غليظ العنق والذراعين، واسع الصدر خشن الكف كث الشعر. وكانوا يسمونه «بدر» لنضرة الى سماحة وجهه دون سائر رفاقه. وكان البرابرة يحبونه لخفة روحه وبسالته، ولا سيما أنهم كانوا يرون الشجاعة من خصائص السمر، وأن البيض ضعاف جبناء! نشأ طارق وهو يرى هذا الغلام في بيت أبيه ويعلم أنه ليس أخاه

وان « ماريوط » قبيلتهم دفعه الى ابيه واوصاه برعايته والاعتناء بتربيته لانه توسم فيه الخير . فتصاحبا وتحابا . وكان طارق لا يهنأ له عيش الا اذا كان بدر معه . وكان بدر يعجب بطارق ويحبه كثيرا ويعد نفسه اخاه . ولا يتخاطبان الا بالاخوة حتى عرفا بذلك عند سائر قبيلة الصدف

ولما جاء موسى بن نصير الى افريقية وصار عاملا عليها كان في جملة من اتخذهم من الموالي طارق بن زياد . حتى اذا ما راى شجاعته وحسن اسلامه رقاه حتى جعله قائد حامية طنجة كما تقدم . وكان بدر رفيق طارق في كل اعماله . ولكنه لصغر سنه لم ينتبه له موسى وان كان قد اظهر في الوقائع التي شهدها بسالة الابطال المحنكين ، لانه لم يكن يهاب الموت خصوصا اذا كان مع اخيه طارق

فلما عرض يوليان على موسى فتح الاندلس على ان يكون هو عونا له في ذلك بعث موسى الى الخليفة الوليد يستأذنه . فاذن له ، على ان يخوضها بالسرايا ، ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال . فراى موسى ان يجرب ذلك برجال من الموالي المسلمين من غير العرب ولم ير خيرا من طارق يوليه قيادة تلك الحملة . فاعد سبعة الاف من الموالي والبربر — وفيهم بعض العرب — وسلم قيادتهم الى طارق ، وامره ان يعبر بهم بحر الزقاق الى الاندلس . فعبره في سفن اعدها لهم يوليان حتى نزلوا جبلا على شاطئه وسمي منذ ذلك « جبل طارق »

ولم يلبث طارق مشتغلا في امتلاك الجبل . ثم بلغه ان رودريك صاحب طليطلة يتأهب للمجيء اليه في جند عظيم . فكتب الى موسى فامده بخمسة الاف بربري فصار جنده اثني عشر الفا وفيهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويتجسس لهم الاخبار . وبث في اهل البلاد ان العرب جاءوا الاندلس لا بقصد الفتح والاستيطان وانما ليملأوا ايديهم من الغنائم ويخرجوا . وكتب الى الاعيان ان يسهلوا لهم التغلب على رودريك حتى يتخلصوا منه ويعيدوا الاحكام لمن يريدون من ملوكهم الاصليين

□

كان المسلمون على ما ذكرنا من تيقظهم ونهوضهم للفتح والتوثب عليهم . ورودريك في بلاطه على نحو ما قدمنا من اشتغاله بالترف والرخاء . وقد تركناه وهو يكاد يحترق غيظا من اوباس لانتزاعه فلورندا من بين يديه بعد ان كادت تكون فريسته . فلما راى منه

عند محاكمته في مجلس الاساقفة ماكاد ينصح امره ، اسرع الى انهاء الجلسه بحجة تأجيل النظر في تهمة اوباس الى جلسة اخرى كما تقدم وهو لاينوى العود الى ذلك ، وانما اتخذه ذريعة للحجر على اوباس في السجن ريثما يبحث عن فلوريندا . حتى اذا ما انفضت الجلسة عاد الى قصره والاب مرتين الى جانبه يطنب فيما يزعم انه انتصار على اوباس وارغام انفه . فكاد ان يصدق ذلك رودريك وينسى ما كان من الصواعق التى انزلها اوباس على راسه فكادت تسقط عرشه

وصل رودريك الى القصر وهو مقتنع بفظاعه ذنب اوباس وانه يستوجب اضعاف تلك النقمة ، فعزم على ابقائه في السجن ريثما يدبر وسيلة لاستطلاع خبر فلوريندا ثم ينتقم منه . ولم يعجل في قتله لئلا يحتاج اليه في البحث عنها . وكان اول ما قام به ان بث العيون والارصاد في نواحي طليطله وفي الطرق المؤدية منها ، ووعدهم باجزال المكافأة لهم اذا قبضوا عليها وعلى من عساه ان يكون معها

اما اوباس فانه ذهب الى سجنه منشرح الصدر ، لاعتقاده براءة ساحته وسلامه طويته ونبالة مقصده . خصوصا بعد ان اتيح له كشف اعمال رودريك للمجمع وتوبيخه ، ومع انه لم يكن يرجو نصر المجمع على رودريك كان يهمه الانتصار للحق والاستجابة لصوت الضمير الحي ـ شأن الذين ينقطعون في سلك الرهبنه رغبة عن ملاذ هذا العالم . فهؤلاء اذا اخلصوا النية في نسكهم لم يكن في الناس اقدر منهم على نصرة الحق لاستغنائهم عن الشهرة او الثروة . ولاحتقارهم سائر امجاد هذا العالم الفانيه . وهم انما ينشدون نعيما ـ وقد كان اوباس واحدا منهم . ولم يكن سعيه في ارجاع الملك لابن اخيه الا من قبيل نصرة الحق

اقام اوباس في سجنه المؤقت بضعة اسابيع وهو لايبالى لو اقام فيه اعواما لولا انشغال خاطره بفلوريندا . لانه لايعلم اين هى . ولا اين ذهب بها اخيلا وشاسيلا ، ولكنه رجح من قرائن مختلفه انهم لم يقعوا في قبضة رودريك . وكان لثقته في ذلك السبب ثقته بهما وصدق نيتهما في خدمته مضض الاثر على فلوريندا ، على انه كان شديد الرغبة في معرفة مقرها ومصيرها ، كما كان يفكر في العرش وفي المهمة التي انفذ رودريك فيها ، وما قد يصيبه من اذيته اذا علم سعيه في ابعاد فلوريندا وطلب الملك لنفسه . ولكنه لاقتناعه على نصرة الحق

لم يكن يخاف بأساً ، ولاعتقاده ان الحق يعلو ولا يعلى عليه وان على الباغي تدور الدوائر . كان يتوقع وقوع رودريك في شر اعماله ، ذلك ما صرح به غير مرة حتى بين يدي رودريك نفسه !

والعاقل اذا تدبر مصير الحياة الدنيا مع ما يعتورها من الاخطار يرى الرجوع الى غير الحقيقة ضرباً من الجنون ، لأن الحقيقة هي الغالبة وهي وحدها التي تبقى . وان كنا في الواقع لا نكاد نخطو خطوة الا والوهم قائدنا ، ذلك حالنا في كل علاقاتنا الادبية والاجتماعية . وهي علاقات أساسها اعتبارات وهمية لاوجود لها في الطبيعة . وانما هي مما صوره وهم الانسان مسوقاً اليه بالضعف البشري ، محاولاً اثباته صوناً لمصلحته فيما تدعوه اليه عواطفه

◻

شريش Xeres مدينة في جنوبي اسبانيا تابعة لولاية قادس ، في الطريق بينها وبين اشبيلية . تبعد عن مدينة قادس ١٧ ميلاً ، وعلى مقربة منها نهر صغير هو وادي لبتة Gua Dalete الذي يبدأ من جبال ولاية قادس في الشمال ، ويسير نحو الجنوب والغرب ، فيترك مدينة شريش الى يمينه ويجري حتى يصب في المحيط الاتلانتيكي في خليج بالقرب من قادس . ومدينة شريش واقعة في مسقط من الارض بين جبلين يكتنفانها من الشرق والغرب ، وبينها وبين مجرى النهر كثير من المغارس والكروم حتى لقد اشتهرت بكرومها وخمرها المعروفة باسمها . خمر شري الشائعة في اوربا ، وهي خمر نفيسة يعتقونها ويتعاطونها على موائدهم ، ومعظم ما يصدر الى العالم منها يعتصر من كروم ضواحي هذه المدينة

وتحتل كروم شريش مساحة كبيرة من ضواحيها الى النهر وما وراءه . على آكمات مسطحة او مائلة . وبين الكروم بيوت الزراع ، ومنها ابنية غريبة الشكل تتألف من غرف كبيرة قائمة على صفوف من الاساطين الدقيقة ، عالية السقف ، في جدرانها منافذ عديدة يتخللها الهواء ، ويستخدمونها كمستودعات يخزنون خمورهم فيها لتعتيقها بمرور الاعوام

وبجوار وادي شريش سهل يلي وادي لبتة سهل يسماه العرب فحص شريش ، التقى فيه طارق البربري ورودريك القوطي ، وفيه كانت الضربة القاضية على الاندلس وتم للعرب افتتاحها ومحصولاتها ، وهان عليهم الفتح بعد ذلك حتى طمعوا في فتح اوربا كلها ، وكانت غاية في الاضطراب والتصدع ، فلو استمروا في غزوهم

لما لقوا من حد سيوفهم أو وقع في سبيل نبالهم . ولكنهم أجلوا المسير فضاعت منهم الفرصة

ففي صيف سنة ٧١٠ للميلاد . أي بعد الحوادث التي ذكرناها في طليطلة ببضعة أشهر . كانت مغارس الكرم في شريش وضواحيها وعلى جانبي وادي لينة قد نضجت أعنابها وأخذ بعض الفلاحين في قطافها والبعض الآخر في تعبئة ما نقل حمله من الدوالي لكبر العناقيد . واشتغل آخرون في إعداد المعاصر . وغيرهم في نقل بعض ما اختزنوه من خمور العام الماضي لاختزان خمر هذا العام

وكان يشتغل في ذلك كله عائلات من أهل البلاد الأصليين أو ممن قضي عليهم بالأسر في بعض الحروب فأصبحوا في مصاف العبيد . وفيهم من كان بين قومه من أهل الوجاهة وقد صبروا على مضض الذل . وهو غير ثقيل على أهل ذلك الزمان لأنه كان جاريا على الجميع . لكنه لم يكن يمنع تذمر أولئك الفلاحين من تلك الحال كما كان أكثرهم يشكون من صاحب تاج طليطلة

على أن الرأي العام لم يكن راضيا عن رودريك لأسباب تقدم ذكر بعضها . وكانوا من جهة أخرى قد سمعوا بنزول العرب بلاد هذه بعد عبور البحر المحاذي لجبل طارق فلم يكترثوا لنزولهم ولا علقوا عليه كبير أهمية . وكان هناك شيخ طاعن في السن قضى حياته في الأسفار متنقلا بين إسبانيا وما يقابلها من بلاد الشاطئ الأفريقي حتى وصل إلى مصر والشام . وشاهد بعض أحوال العرب في أوائل ظهور الإسلام . فكان إذا ذكروا العرب بين يديه يقول « لا ينجينا من هذا الملك إلا هؤلاء » . فلما قيل له إنهم عبروا البحر قال : « لقد قرب الفرج ! »

وكان شيخنا المذكور جالسا في كوخه في أواخر يوليو من ذلك العام سنة ٧١٠ الموافق رمضان سنة ٩٢ هـ . وحوله أولاده وأحفاده . يشتغل النساء منهم بإعداد الطعام واصطناع الألبان والجبن . والأولاد بعلف الماشية أو صنع السلال لحمل العنب عند قطافه . ولا حديث لهم إلا تقدير محصول ذلك العام من العنب والخمر — وما لهم في تقديره فائدة لأنه ليس ملكهم . إذ لم يكن للفلاحين ونحوهم أن يقتنوا عقارا أو يملكوا شيئا . وإنما الملك والسيادة لطبقة الشرفاء وأكثرهم من الرومانيين والقوط . ولم يكن للفلاحين سوى حصة قليلة من النتاج . ولكن الإنسان ميال بطبعه للبحث عن المجهول . ولذا فقد اشتغل الشيخ وأولاده معظم ذلك النهار في تقدير غلة تلك

السنة حتى احتدم الجدال بينه وبين احدهم فتعلوا بذلك عما حولهم . وكانوا جالسين فى ظل دالية كبيرة قد نصبوا باغصانها خيمة بشكل العريش ، واجروا الماء تحتها بقناة تقف عندها الماشية للشرب والناس للاستقاء . ويستظل بظلها اهل تلك القرية وما فيهم غير الشيخ واولاده واحفاده ونساء المتزوجين منهم

اقبل المساء وهم على هذا الحال وقد رجع من كان غائبا اثناء النهار فى اصلاح الداليه او تدعيمها او تنظيف المستودعات او عمل السلال او نقل القضبان اليابسة ليتخذوها وقودا لهم — فربما جاء الرجل وعلى راسه سلة ، وتحت ابطه حزمة . وفى جيبه صرة . وفى يده رغيف . وفى فمه لقمة . يجر وراءه صبيه : هذا يقود خروفا . وذاك يسوق حمارا . وذلك يحمل عنقودا قطفه بين تمام نضجه وفيه حموضة قليلة وقد منعه ابوه عن ذلك فخبأه فى جيبه وجعل يأكله اختلاسا . واخوه يجاسه يهدده بالشكوى الى ابيه اذا لم يطعمه بعضه .

فيهرع هذا الى والدته يحتمى فى ثنايا ردائها وفى زعمه ان ذلك الرداء يحميه من كوارث الدهر وطوارق الحدثان . كانما هو راية كسرى انوشروان — تلك هى السذاجة الفطرية : ان يقنعك المرء من ثمار ما يحرسه . والناس ما يرعاه . لا مطمع له الا ان يجمع من ذلك ما يكفى اهله بقية العام للكساء والطعام — وهناك النيات السليمة والقلوب الطاهرة . هناك الاخلاص وصدق اللهجة . اذا سمعت احدهم يقول لك انه مشتاق لرؤيتك فهو يعنى ذلك حقا . ولا يقوله على سبيل العادة التى اساسها الرياء والتملق ! . والسعادة الحقيقية اذا صح وجودها ، انما تكون فى تلك المنازل المتواضعة بين تلك المغارس التى تتجدد اوراقها فى كل عام وتتجدد معها قلوب اهلها — ليس هناك عصبية ولا حقد ، ولا طمع ولا نميمة ولا رياء . لقلة حاجات الانسان وسهولة نيلها . لان الحسد والحقد والرياء والنميمة انما يلجأ اليها الضعيف اذا كثرت مطالبه . وعجز عن الحصول عليها بجده وسعيه — ولذلك كانت الرذائل من جملة ادران المدنية

على ان الفلاح الساذج انما يكون سعيدا فى ظل الامن والعدالة . والا فهو من اتعس خلق الله . لان الظلم يقضى على سعادته قضاء مبرما اذ يسلبه ينبوع تلك السعادة وهو غلة ارضه — فكيف اذا لم يكن هو صاحب الارض كما كان شأن فلاحى اسبانيا فى الاجيال الوسطى !! فهل يلام شيخنا اذا تمنى ابدال حكومته بغيرها ولو كان غريبا !!

غربت الشمس وهي ترسل أشعة ذهبية تسرح الطرف ، ويتطاول أهل المدن لرؤيتها فلا يتفق لهم ذلك إلا قليلا ، ولو أراد الفلاحون لرأوها كل ليلة ولكنهم في شاغل عنها وعن سواها من مناظر المساء بإعداد العشاء والاجتماع تحت سقف المنزل أو تحت بعض الأشجار .
فلما غابت الشمس اجتمع أفراد تلك العائلة — وهم يعدون بالعشرات — وفيهم الأطفال والأحداث والشبان والشابات . وأصغرهم سنا أكثرهم فرحا . وأعظمهم اهتماما ذلك الشيخ لأنه لم يكن يهدأ له بال إلا بعد أن يرى أولاده وأحفاده تحت ذلك العريش في آخر النهار ، خصوصا بعد أن جند أمير تلك الناحية بعضهم بأمر رودريك ، ليكونوا له عونا في محاربة العرب القادمين عليهم من جهة البحر

فلما رأى الشيخ أن الاجتماع قد تكامل تفرس في أولاده فإذا إحدى بناته ما زالت غائبة . وكانت أعزهن على قلبه للطفها وحنوها فصبر هنيهة أخرى لعلها تأتي . فلما استبطأها نادى امرأته قائلا : « أين مارية ؟! »

فبغتت الوالدة العجوز وكانت تحسبها مع أخوتها وأخواتها . ولم تكن تهتم بمراقبة رجوع أحد لاعتمادها في ذلك على زوجها — فلما سمعته يسألها عنها بغتت وصاحت : « ألم تأت بعد ؟! »

قال : « كلا أين تركتموها ؟ »

قالت : « تركتها في المستودع الكبير فوق الرابية تغسل بعض الدنان والبراميل ، وتنقل بعض الجرار الملآنة إلى جانب آخر ومعها أخوها بطرس » قالت ذلك والتفتت إلى ما حولها ونادت : « بطرس ! » فجاء الغلام مسرعا فاستقبلته قائلة : « أين تركت مارية ؟ » — قال : « تركتها في المستودع الكبير . ألم تأت بعد ؟ » — قالت : « لا » .
ولم تتم العجوز قولها حتى وثب بطرس من العريش وأسرع نحو ذلك التل وهو يقول : « سأعود بعد قليل » وإنما حركه على تلك العجلة شعوره بأنه مخطئ برجوعه وحده دون أخته

وكان القمر في أواخر أيامه والليل مظلم والطرق بين الكروم شائقة وعرة إلا على أهلها فإنهم كانوا يمشون بينها وأعينهم مغمضة ، لا يعثرون بعود ولا حجر . ولبث الشيخ وأهله ينتظرون رجوع بطرس في قلق فلما طال غيابه وثب الوالد الشيخ كأنه شاب في عنفوان الشباب واقتص أثر ابنه عن طريق مختصر يعرفه . وصعد على السلم إلى باب المخزن وهو يلهث من التعب . فوجد الباب مقفلا وليس عنده أحد فدقه دقات كثيرة فلم يسمع جوابا . فتفرس في الباب فرآه

موصداً من الخارج على جاري عادته فترجح عنده ان مارية خرجت منه واقفلته . فوقف في أعلى السلم ليستريح والتفت الى ما حوله فاطل على مدينة شريش . الى ضفاف النهر من جهة . وعلى كرومها من جهة اخرى والظلام يغشى بصره ، على انه راى انوارا على ضفة النهر من تلك الجهة عرف من تبعثرها وتعددها انها نيران جماعة كبيرة . ولم يكن يعهد في تلك الجهات اناسا غير الفلاحين وعملة الحقول وهم لايوقدون نارا على هذه الصورة . فاشتغل خاطره ونسي ضياع ابنته . ووقف هنيهة ينظر الى تلك النيران ويرى اشعتها تتلألأ في مجرى النهر كأنها مصابيح موقدة تحت الماء تهتز اضواؤها باهتزاز امواجه ، ولولا ذلك لم يعرف ان تلك النيران موقدة على ضفاف النهر ثم ما لبث ان سمع حركة وركض ومرور اناس بين الدوالي فانصت فسمع صوت امرأته ومعها بعض اولاده فعلم انهم جاءوا لاستطلاع خبر مارية فناداهم فكان اول صوت سمعه منهم صوت امرأته وهي تقول : « اين مارية ؟ » فلما سمع الشيخ ذلك اقشعر بدنه وزاد بلباله وقال : « اين بطرس .. هل عاد اليكم ؟ »

وكانت العجوز قد وصلت الى اسفل السلم فاجابت وهي تمد يدها الى اخمص قدمها وتستخرج شوكة اصابتها في اثناء جريها « عاد بطرس ولم يجدها ! »

فنزل الشيخ عن السلم حتى التقى بامرأته ومعها بضعة من اولاده فقال لهم : « يظهر لي ان مارية فقدت في اثناء رجوعها من هنا . فلنتفرق وليسر كل منا في طريق حتى نلتقي في البيت ، فمن وجدها منا فلينبه الباقين بالنداء حتى يكفوا عن البحث ، ولتكن العلامة فيما بيننا هذه اللفظة (يامار بطرس) . اما انا فاذا ابطأت بالرجوع فلا تقلقوا لغيابي» . فارادت امرأته ان تستفهم منه عن السبب فلم يصبر لسماع كلامها وانحدر نحو النهر يثب بين الكروم من تل الى تل ، يعثر تارة بالعليق وطورا بالحجارة ، وهو يتطلع نحو النهر مخافة ان يخطىء الطريق لاشتداد الظلام . فاذا توارى النهر عن عينيه وراء بعض الدوالي العالية أو وراء التلال تحاشى ان ينحرف فيبعد المسافة عليه . فلما قرب منه راى النور على ضفتيه . ثم سمع جعجعة عرف انها اصوات الجمال وكان قد سمع مثلها في اثناء اسفاره ــ اذ لم يكن لاسبانيا عهد بها من قبل ــ فتنسم رائحة العرب . وادرك انه على مقربة منهم . وتذكر ما سمعه عن نزولهم عدوة الاندلس فتحقق انه بجانب معسكرهم . ولكنه استبعد سهولة وصولهم الى ذلك المكان

وبعد هنيهة وصل الى الأكمة وقف عندها وتفرس فيما بين يديه ، فاذا هو مطل على سهل كبير ينتهي الى النهر . وعلى الضفة البعيدة خيام تتخللها النيران . ورأى على الضفة القريبة في طرف السهل نارا وبالقرب منها خيمة كبيرة لم يتبين لونها لشدة الظلام ، فلبث برهة يفكر في مارية وضياعها حتى هم بالرجوع للبحث عنها في مكان آخر . ثم حدثته نفسه بالنزول الى تلك الخيمة واستطلاع خبر هؤلاء القوم قبل رجوعه ولم يخف بأسا لما علمه في أثناء أسفاره في افريقية والشام من عدل العرب ورفقهم بأهل البلاد التي يفتحونها . وكان قد تعلم بعض الألفاظ العربية مع غرابة تلك اللغة عنده وبعدها عن لغته . وكانت السن قد علمته الشجاعة ورباطة الجأش فنزل من الأكمة وسار يلتمس تلك الخيمة وهو يعجب لانفرادها هناك مع كثرة الخيام على الضفة الأخرى ، فلما دنا منها طرق أذنه صوت ارتعدت له فرائصه بغتة واستغرابا ، اذ سمع مارية داخل الخيمة تتكلم وصوتها مختنق من البكاء . فلم يعد يتمالك عن الوثوب نحو الخيمة وهو لا يهاب أحدا ولا يعي شيئا من فرط ما هاج من عواطفه خوفا على ابنته ، فاعترضه رجل واقف بباب الخيمة وقد تقلد سيفا ورمحا وهم بالقبض عليه وهو يقول بالعربية : « من أنت ؟ » ففهم الشيخ مراده فأجابه بكلمات متقطعة انه يريد الدخول الى الخيمة . فاستمهله الرجل وبينما دخل ثم عاد وأشار اليه فدخل وأجال بصره في أطراف الخيمة للبحث عن ابنته فرآها جالسة في بعض جوانبها على الأرض . وحالما وقع بصرها على أبيها مع ضعف نور المصباح هناك وثبت نحوه وهي تصيح : « أبي أبي ! » فاستقبلها الشيخ بين ذراعيه وقد دمعت عيناها من البغتة والفرح . ونظر الى صدر الخيمة فاذا هناك رجل كبير الهامة عليه العمامة واللحية فعرف انه من البربر . وبجانبه رجل بلباس القوط لم يحدق فيه الا قليلا حتى عرف انه يوليان صاحب سبتة ، ورجح أن يكون صاحبه هو طارق بن زياد . اذ كان قد سمع باسمه وعرف انه هو الذي يقود جيوش المسلمين . وان يوليان قد ألقى معهم على القوط . وكان يحسب ذلك اشاعة كاذبة . فلما رأى تحقق الأمر وأيقن أن العرب غالبون لا محالة

مرت كل هذه الخيالات في ذهن الشيخ في لحظة وهو معانق ابنته يخفف عنها . وسمع صاحب سبتة يقول له بلغة الاسبان : « لعل هذه الفتاة ابنتك ؟ »

قال : « نعم يا مولاي » . قال : « لا خوف عليها فانها في أمان على

كل حال . ولا تخف صحبتك غير شيئا من عرضها و شأنها . فقد كان الأمير عازما على إرجاعها الى أبيها سالمة . وأما بكاؤها الذى تراه فإنما هو من خوفها . وقد ظنت هؤلاء العرب يرتكبون مثل ما يرتكبه حاكمكم رودريك . فإن بعض هذا العمل الشنيع سيخرج سلطانه من يديه إن شاء الله !» قال ذلك وانبسطت سحنته للحال فلم يدرك أحد سبب ذلك الانبساط . على أنه استطرد الكلام قائلا : «وأما سبب مجيئها الينا فإن بعض رجال الأمير خرج في أصيل هذا اليوم لحاجة فرآها في الطريق فجاء بها وهو يحسبها من قبيل السبايا . فلما علم الأمير بذلك أنكره عليه . وقد كانا في جدال عنيف في هذا الشأن الى ساعة دخولك»

ولم ينه يوليان كلامه حتى وثب الى وسط الخيمة شاب بلباس العرب وعلى رأسه عمامة صغيرة ولكن سحنته غير سحنة العرب والبرابرة وهو في مقتبل العمر تدفق الصحة من عينيه وجبينه ونظر الى يوليان وهو يقول : «أراك حرمتني من غنيمتي رغبة في مرضاة أبناء جلدتك ..!»

فأجابه طارق وهو يبتسم وقال : «لا تحزن يا بدر ، فإنك ستصيب كثيرا من الغنائم . فنحن في أول الطريق وغدا نلتقي بجند طليطلة فما تصيبه من الغنيمة أو السبايا فهو لك . أما الآن فما نحن في حرب . ولا يمكننا أن نعد هذه الفتاة سبية . وهذا أبوها شيخ قد طعن في السن ورأيت ما كان من لهفته عليها . فهل يليق بنا أن نفجعه فيها بلا حق . والإسلام إنما يدعو الى العدل والرفق !..»

ثم التفت طارق الى الشيخ وقال : «انصرف أيها الشيخ الى منزلك وابنتك في أمان حتى تبلغه . واعلم أننا لم نقدم الى هذه البلاد إلا رحمة بأهلها . وإن ديننا يأمرنا بالرفق والإحسان . فكن على يقين أنت وكل أهل الأندلس أن من يكف يده عن حربنا فهو في ذمتنا ولا خوف عليه . وأما الذين يصرون على مناوأتنا فما عندنا لهم إلا السيف ..!» ثم نادى : «يا غلام !» فدخل رجل بربري من أعوانه فقال له : «اصحب الشيخ وابنته حتى يصلا الى مأمنهما ..»

فهم الشيخ ليقبل يد طارق فمنعه وطيب خاطره وصرفه . فخرج وهو يثني على ما لقيه من طارق وقال في نفسه : «بمثل ذلك يملك الأمير الرعية ولا يملكهم بالعسف أو الظلم ..»

— ٨ —

تركنا فلوريدا وخالتها والرجلين اجيلا وشانتيلا هائمين على وجوههم في ضواحي طليطلة . وكان السبب في ذلك كما علمت من سياق الرواية ان اجيلا وشانتيلا كانا في انتظار فلوريدا عند اسفل القصر في تلك الليلة الشاتية المرعدة . فلما تيسر لها الافلات من بين يدي رودريك بعد ان نبهه اوباس كما تقدم اسرعت الى النافذة . وحملت ما استطاعت حمله من الثياب وايقونة صغيرة للسيدة العذراء كانت شديدة الاعتقاد بكرامتها . فخبأتها بين ثيابها والتفت بالقباء وخالتها العجوز ساعدتها في الهرب . فلما اتما الاستعداد بقدر الامكان اطلت العجوز ونادت وكان الرجلان على اهبة العمل فتسلقا الشجرة وتعاونا على انزال فلوريدا سالمة . ثم العجوز وما بقي من الامتعة الضرورية . ونزلوا جميعا من الحديقة والرياح تهب والرعود تقصف . وهم في شاغل من الخوف عن كل ذلك حتى نزلوا الى القارب .. وكانت فلوريدا تتوقع ان ترى الفونس فيه لانه هو الذي كتب اليها ان توافيه اليه . فلما رأته خاليا اشتغل بالها واستحيت ان تسأل عنه . فخاطبت خالتها في الامر فالتفتت العجوز الى الرجلين وقالت : « واين الامير الفونس ؟ » . فقال شانتيلا : « لم يأت معنا يا سيدتي » . قالت : « واين هو ؟ » . فخاف شانتيلا ان يكون في قوله ما يسيء فلوريدا لعلمه بما بينها وبين الفونس من الحب المتبادل، لان الرجلين كانا قد ادركا سر المهمة التي انتدبهما لها اوباس . فاشتغل بالحديث مع اجيلا لتحويل القارب الى جهة مجرى النهر . وكان المصباح قد انطفأ من شدة الرياح . على انه لم يجد مندوحة عن الجواب على سؤالها فقال لها : « نلقاه في منزل التروبوليت لانه هو الذي امرنا ان نذهب بك الى هناك » .

فسكن روعها ولكنها ما زالت مضطربة الخاطر اذ لم تكن تتوقع ان يكل الفونس امرها الى سواه .

سار بهم القارب وهم يطلبون جهة قريبة من بيت اوباس لانهم كانوا على موعد للذهاب اليه ومعهم فلوريدا . ولكن شق بهم المسير في النهر لهيجانه واضطرابه ومقاومة الرياح لهم فضلا عن شدة الظلام .. وكانت فلوريدا كلما خافت خطرا استجارت بالله واستخرجت الايقونة وقبلتها فيرتاح خاطرها ويطمئن بالها . وتلك ثمرة من ثمار الايمان . اذ ليس افضل منه وسيلة لتعزية الانسان

مضى هزيع من الليل قبل وصولهم الى البر . فلما نزلوه تشاوروا فيما يجب ان يفعلوه . فقال انجيلا وكان اسرع خاطرا واكثر اقداما من اخيه : « ارى ان تمكثوا هنا واذهب انا الى بيت اوباس . ثم اعود بمن يحمل هذه الاحمال » . فاستصوب الجميع رأيه فمضى حتى اشرف على المنزل فرأى حوله فرسانا من جند الملك فاجفل وتراجع وقد شغل باله بسبب وجود الجند هناك . ثم ما لبث ان رأى بعضهم يخاطب اوباس فربض في بعض المنحنيات ليسمع ما يدور بينهما ففهم من خلال الحديث ان الملك بعث بالجند للقبض عليه . فلم يخامره خوف على اوباس لفرط اعتقاده باقتداره ، ولكنه اوجس خيفة على فلوروندا لاعتقاده ان سبب ذلك القبض متصل بفرارها . فلما توارى الركب عنه تحول نحو القصر على امل ان يخاطب بعض الخدم فمشى وهو يسترق الخطى استراقا ويحسب الدخول سهلا بعد ذهاب الحرس . فاذا هو بكوكبة اخرى قد احدقوا بالقصر واستخدموا القوة لاخراج من فيه حتى علت الضوضاء ، وبالغوا في التخريب والتعذيب !

فلما رأى انجيلا ذلك ايقن بالخطر الذى اصبح هو معرضا له هناك ، وبما يهدد فلوروندا من الاخطار الجسيمة اذا اطلع الملك على مقرها . فهرول مسرعا ولم يعد له شاغل سوى بذل كل ما في وسعه ووسع اخيه في سبيل انقاذها وحمايتها !

▭

وكانت فلوروندا جالسة على الارض وفي حجرها صرة قد اتكأت عليها بكوعيها والتفت بطرفيها التفافا شديدا لشدة البرد والريح . وكان التعب قد غلب على قواها حتى مالت الى النعاس خصوصا بعد ان ظنت نفسها قد نجت من حبائل ذلك الرجل الشرير . فاسندت رأسها على كفها واغمضت جفنيها فنامت . ولما رأتها بربارة نائمة اجازت لنفسها الارتياح هنيهة . اما نثانييلا فانه ظل ساهرا قلقا وقد استبطأ اخاه وحسب لغيابه الف حساب . وربما لامه لابطائه ومغادرته اياهم عرضة للهواء والبرد . وتوهم انه لو ذهب هو في تلك المهمة لكان اقدر منه على انجازها وملاحظة ما قد ينجم عن الابطاء من الاضرار . على انه ما لبث ان رآه عائدا وحده فذعر لانفراده . ثم سمعه يقول : « هلم بنا سريعا حتى نخرج من هذه الضواحي البلدة . لاني لا احسب الملك الا وهو يبث علينا العيون والارصاد من صباح الغد ! »
فافاقت فلوروندا من رقادها مذعورة وصاحت : « ويلاه والى اين

تذهب ؟ نجني يا مخلصي ، اين الفونس ؟ »

فقال : « ليس في المنزل أحد يا سيدتي »

قالت : « ولا اوباس ؟ »

قال : « لقد رايته وهو يساق بين ايدي الجند الملوكي الى قصر الملك . ثم رايت الجند دخلوا بيته واخرجوا كل من كان فيه من الخدم ، ولم اسمع ذكرا لسيدي الفونس بينهم ، فلعله لايزال في منزله »

فقطع شانتبلا كلام اخيه وقال : « ان سيدي الفونس لم يرجع الى قصره قبل خروجنا منه »

قالت : « اين كان قبل خروجكم .. ؟ »

قال : « كان قد ذهب في مهمة خاصة بأمر الملك » . فتذكرت للحال ما سمعته من رودريك في تلك الليلة عن ابعاد الفونس ، وكانت تحسبه يقول ذلك على سبيل التهديد ، فايقنت عند ذلك صدق قوله ولكنها لم تدر هل ابعده او حبسه ، فاعادت السؤال قائلة : « هل انت واثق بذهابه ، وهل تعلم الى اين ؟ »

قال : « اني واثق بخروجه من قصره وحوله الحرس الملوكي ، واما الى اين ذهب فلا أعلم ، ولكن الغالب انه سار في مهمة الى بعض البلاد »

فعاد اجيلا وقطع كلام اخيه فقال : « اظنه ارسل في قيادة حملة الى بعض البلاد لاخماد ثورة او مخابرة بعض الكونتية مما يحدث كثيرا في هذه الايام . ولا بأس عليه باذن الله . ومتى استقر بنا المقام وامنا للعيون والارصاد بحثنا عن مكانه . وبذلنا كل ما يؤول الى راحتك وراحته فاننا صنيعته وارواحنا له . والآن لابد لنا من مغادرة هذه الجهات حالا . والفرار من الظلم فضيلة ، ولنترك البحث في مصيرنا الى وقت آخر . دعونا نرجع الى القارب ونسير مع مجرى النهر حتى نخرج من حدود هذه المدينة واهلها وحراسها في شاغل عنا بالامطار والزوابع . فاذا صرنا في مأمن نبحث في الذي نفعله » .

قال ذلك وتقدم الى فلورندا يريد مساعدتها في النهوض فنهضت وتحولت الى القارب وقد عادت اليها مخاوفها . وتبعتها خالتها وهي تحمل صرة الثياب وبقي هناك صندوق تعاون الرجلان على حمله ونزلا في القارب واخذا في التجديف . وكان النوء قد خف وساعدهم مجرى الماء حتى خرجوا من ضواحي المدينة واصبحوا في مكان لايرون فيه انسيا ولا يسمعون صوتا غير نقيق الضفادع . وكان قد مضى معظم الليل فآووا بالقارب الى منعطف وراء تلة تداروا بها من الرياح . وقال اجيلا عند ذلك لفلورندا : « نحن الآن في مأمن يا سيدتي فاذا

تستمت الرقاد الى الصباح لابأس عليك ، وكذلك الخالة . واما نحن فاننا نتناوب الحراسة ريثما يطلع النهار ونبحث في الجهة التي نسير اليها .

ونامت فلوريدا بقية ذلك الليل نوما مضطربا ، فلما اصبحت تناولت قطعة من نسيج كتبت عليها الكتاب الذي تقدم نصه ، واستدعت اجيلا ودفعت الكتاب اليه والدمع يترقرق في عينيها من شدة تأثرها وهي تكتبه وقالت : « لقد رأيت من مروءتك ومروءة اخيك هذا ما يوجب سروري وامتناني كثيرا ، وقد وعدتني بالبحث عن الفونس ، واطلب اليك فوق ذلك ان توصل هذا الكتاب الى ابي .. هل تعرف من هو ؟ »

قال : « نعم يا سيدتي انه الكونت يوليان صاحب سبتة . ولكنني ارى يا مولاتي قبل كل شيء ان ننزلك في مكان امين اعرف الطريق اليه ، اذا [illegible] عدت بالجواب اليك »

فالتفتت فلوريدا الى خالتها وقالت : « ما رأيك يا خالة ؟ . اين تظنين مقامنا اقرب الى الامن والسلامة ؟ »

قالت : « لايخفى عليكم ان في هذه البلاد اديارا ينقطع فيها الرهبان عن العالم تعبدا لله تعالى ، وتكون هذه الاديار غالبا في البراري او في الجبال ، ومنها ما لا يدخله الناس الا نادرا . فالرهبان منقطعون عن العالم برمته ، فاذا اقمنا في احدها كان ذلك أستر لحالنا ريثما يتيسر امرنا »

فتقدم اجيلا وكأنه تذكر امرا ذا بال وقال : « لقد اذكرني كلام حضرتها اديارا للعذارى . فالاقامة فيها اولى لمولاتي لانها تكون بين عذارى مثلها »

فقطعت العجوز كلامه وقالت : « صدقت يا اجيلا ، ولكننا لانستغني عن احدكما معنا . واني اعرف ديرا بين هذه الجبال [illegible] جبال منقطعة ، بعضه للرهبان والبعض الآخر للراهبات ، وكل طائفة منهما في قسم من الدير لاعلاقة لها بالطائفة الاخرى ولا بسائر العالم الا نادرا . ولا يلتقي الراهبات والرهبان معا في الكنيسة في اوقات الصلاة . وقد علمت من قواعد هذه الرهبنة ان الراهبة لايمكنها مخاطبة احد من الناس حتى رئيس الدير او وكيله الا بوجود راهبتين اخريين ، وهذا التدقيق نافع في منع المحظورات . فأرى اذا استحسنت فلوريدا ان نذهب الى ذلك الدير فنقيم انا وهي في قسم الراهبات ، وانت واخوك في قسم الرجال ، حتى نرى ما يكون .

فالتفتت فلورندا وقد اشرق وجهها وقالت : « بورك فيك ياخالة . لقد نطقت بالصواب . هلم بنا الى ذلك الدير . هل هو بعيد من هنا ؟ »

قالت : « لا اظنه يبعد الايوما وبعض اليوم . وطريقنا اليه غير مطروق فلا نخاف عينا ولا رصدا . واظنني اعرفه وقد مررت بذلك الدير منذ بضعة اعوام »

قالت فلورندا : « ارى ياخالة قبل كل شيء ان يذهب اجيلا بالكتاب الى ابي ، فاذا عاد منه بخبر جاءنا الى ذلك الدير » . ثم التفتت فلورندا الى اجيلا وقالت : « سر بحراسة المولى ، ومتى رجعت تعال الى دير الجبل الذي سمعت خبره . واذا استطعت معرفة خبر الامير الفونس فانك اعقل من ان اوصيك بالذي ينبغي أن تفعله »

فانشرح صدر اجيلا لهذا الاطراء وانحنى بين يديها وودعهم وانطلق . اما هم فخرجوا من القارب وحمل كل منهم ما يستطيع حمله ، واوغلوا بين التلال والجبال ودليلهم العجوز وهي تسير امامهم كانها تلتمس ممرا تذهب اليه كل يوم ، فقضوا في سيرهم عدة ساعات لم يلتقوا في اثنائها بعابر ولا قاعد ، واكثر التلال التي قطعوها جرداء الا ما كان على جوانب الاودية من شجر ملتف مهمل ، قلما امتدت اليه يد الانسان . وكانت الامطار قد اغرقتها في الليل الماضي وغمرتها السيول . فلما اشرقت الشمس في ذلك الصباح سرى في الجو بعض الدفء . على ان وعورة الطريق اتعبتهم خصوصا فلورندا لانها لم تعود هذه المشاق . ناهيك بما في نفسها من لواعج الحب وما يشابها من الهواجس والاشواق

قضوا معظم النهار في المسير ، وباتوا وشانتيلا حارسهم وعونهم في كل ما يحتاجون اليه من الطعام ونحوه ، ومشوا معظم اليوم التالي ولا حديث لهم الا تكرار ما فات . حتى اذا مالت الشمس نحو الاصيل وصلوا الى سفح جبل اطلوا منه على بناء شامخ اشبه بالحصون منه بالاديار ، وظهر لهم لاول وهلة انه على قمة ذلك الجبل . فلما شاهدته العجوز صاحت : « هذا هو . قد وصلنا . ولكن لابد لنا من الصعود »

قالت فلورندا : « فلنصعد » . ولملمت أطراف ثيابها وهرولت اليه مسرعة لشدة رغبتها في الوصول والاستراحة ، وارسال شانتيلا لاستطلاع الاخبار من طليطلة عن مسير الفونس ، وعن حال اوباس ورأي رودريك في فرارها . كذلك هرولت العجوز وشانتيلا بين يديهما حتى وصلوا الى الدير . فاذا هو في ساحة في سفح ذلك الجبل ، وهو بناء قديم العهد غريب الشكل ، حوله سور من الحجارة

الضخمة الكبيرة عظيم الارتفاع ، ليس فيه من النوافذ سوى شقوق مستطيلة في أعلاه وباب واحد في بعض جوانبه ، لا يتناسب صغره مع ضخامة ذلك السور . وفي أعلاه برج حصين كأنه قلعة ، وهو مرقب يقيم فيه حارس الباب

وقفت فلورندا وخالتها وشانتيلا وهم يلهثون من التعب ويعجبون من منظر ذلك الدير . فلما استراحوا قال شانتيلا : « هل تأذن مولاتي بأن اقرع الباب واستأذن في النزول ؟ » . قالت : « افعل »

فتقدم حتى وقف بالباب فاذا هو مصفح بحديد سميك استدل على سمكه من ضخامة قمم المسامير التي كانت بارزة فوق سطحه ولا يزيد علوه على قامة الانسان الا قليلا . فتفرس في جوانبه لعله يرى حلقة يدق بها فلم يجد شيئا . ثم وقع بصره على حبل مرسل من ثقب في أعلى الباب نحو الخارج فأمسكه وشده ، فسمع جرسا يدق في الداخل فعلم انه قد أصاب المحجع . وصبر بعد الدق هنيهة فرأى رأسا قد أطل من نافذة صغيرة في البرج المذكور وقد جلله شعر ناصع البياض حتى لم يظهر من وجهه الا أنف بارز وعينان تتلألآن في غورين ، وفوقهما حاجبان بارزان ، وفوق الحاجبين جبين أصبحت غضونه كالمزاريب او الاخاديد . واطل الشيخ برأسه ولبث برهة لا يتكلم فلم يصبر شانتيلا على سكوته لعلمه بما ألم بفلورندا من التعب فصاح فيه : « أما من مأوى عندكم للغرباء ولو الى حين ؟ »

وما اتم شانتيلا كلامه حتى تراجع الشيخ من النافذة واختفى ولم يبد جوابا . ولم تمض برهة حتى سمعوا قلقلة مفتاح وراء الباب توسموا منها قرب الفرج . وطال زمن القلقلة ثم سمعوا صريرا فتدانوا الى الباب يتوقعون فتحة فاذا هو لايزال مقفلا . فلبثوا ينتظرون ، فعادت القلقلة وعاد الصرير ولكن الباب لم ينفتح فملوا الانتظار ، وخافوا ان يكون وراء ذلك ما يوجب الخوف ، وخصوصا فلورندا فانها كانت واقفة وبصرها ثابت في ذلك الباب

وأما العجوز فقد كانت جالسة على حجر ، وقد ذبلت عيناها من أثر ما نالها من التعب حتى كادت تنام ، وإذا بصرير عنيف استلفت انتباهها فنظرت فرأت الباب ينفتح متثاقلا كأن فاتحه يجر ثقلا كبيرا ! فظلت فلورندا في مكانها ، وتقدم شانتيلا نحو الباب . فاستقبله ذلك الشيخ وعليه لباس الرهبان في ابسط احواله ، وهو رداء اشبه شيء بالعباءة يستر بدنه الى الركبة وساقاه عاريتان وقدماه حافيتان وقد أصبح اخمصاهما كالنعال لطول ما مر بهما من مصادمة الاحجار

والاحتكاك بجذوع الاشجار ! . خرج الشيخ الراهب وبيده عكاز اعقف الطرف ، قبض على عقفته بانامل كأنها عظام عارية قد تعطلت مفاصلها ، ونتأت من قفا الكف حتى اصبح بسطها مستحيلا ، وكأنها خلقت للقبض على ذلك العكاز وما زالت قابضة عليه حتى تصلبت وهي منقبضة !

وكانت تلك العباءة قصيرة الاكمام لا تكاد تصل الى كوع الراهب الذي تعظم جلده وخشن ، حتى تحسبه اذا نظرت اليه كأنه اخمص القدم — وكان الشيخ قضى عمره يدبدب على اخمصيه ومرفقيه

▭

ظل الشيخ واقفا بالباب فاسرع الجميع اليه واولهم شانتيلا ، فانه نزع قبعته عن رأسه وهم بتقبيل يد ذلك الشيخ ، وكذلك فعلت فلوروندا وخالتها ، فقال الراهب الشيخ وفي غنة صوته خشونة البرية : « ما الذي جاء بكم الى هذا المكان ؟ »

قال شانتيلا : « جئنا نلتمس البركة من صاحب هذا الدير ، فهل من مانع ! » . قال : « كلا ، ولكن هذا الدير قسمان : قسم للرهبان ، وقسم للراهبات . فايهما تريدان ! » . قال : « كما تستحسنون »

قال : « وعلى كل حال فان ذلك راجع الى رأي الرئيس العام » . ثم تحول نحو الداخل واشار اليهم ان يتبعوه فدخلوا في اثره . فاذا بالباب يستطرق الى ممر قصير فيه بابان آخران مصفحان بالحديد مثله ، ويفضي الى فناء واسع سقفه القبة الزرقاء ، ولم يطأوا الفناء حتى سمعوا الابواب تقفل ، ونظروا الى ما حولهم فرأوا جدران ذلك الدير هائلة الارتفاع ، ووجدوا انفسهم في باحة مرصعة بالحجارة الصلبة ، او لعلها من صخر الجبل نفسه ، واحست فلوروندا كأنها في سجن حصين !

وبعد ان مشى بهم الراهب بضع خطوات نحو اليسار انتهى الى باب يلي الجدار الذي دخلوا منه ففتحه وادخلهم فيه ، فاذا هي غرفة تستطرق الى عدة غرف ، فاشار اليها وقال : « هذه دار الاضياف ، اقيموا فيها ريثما اقابل حضرة الرئيس واخبره بأمركم ، فالذي يأمر به صائر » . قال ذلك وتحول يريد الخروج : فسمعوا جرسا يدق ورأوا الراهب حالما سمع دق الجرس القى العكاز من يده ورسم اشارة الصليب ثم صالب يديه على صدره ووقف وقوف الاحترام ، ففعل الجميع مثل فعله وهم لم يدركوا الغرض ، على ان الراهب ما لبث ان التفت اليهم وهو يقول : « لا سبيل لنا الى مخاطبة الرئيس

الآن لان الصلاة قد آن وقتها ونزل الجميع الى الكنيسة ، وانا ذاهب ايضا وبعد الصلاة نرى ما يكون »

فلما سمعت فلورندا ذكر الصلاة انشرح صدرها وتذكرت ما كان من صلاتها الحارة منذ بضعة ايام وكيف انقذها الله بها . فتقدمت الى الراهب وهي تخاطبه بلسانها العذب وصوتها الرخيم : « الا يسوغ لنا حضور القداس واستماع الصلاة يا سيدي ؟ » قال : « الصلاة لا تحتجب عن مسيحي ، والكنيسة لا تقفل ابوابها في وجه أحد »

ثم مشى الراهب امامهم وهم يتبعونه في وسط تلك الباحة حتى انتهوا في صدرها الى باب كبير اشتموا قبل الوصول اليه رائحة البخور ، فعلموا انه باب الكنيسة . فتادبوا ودخلوا منه في اثر الراهب ، فاطلوا على مذبح في صدره وقد قسم صحن الكنيسة الى شطرين : شطر للراهبات ، وشطر للرهبان . فهداهم الراهب الى مكان وقفوا فيه لاستماع القداس ، وكانت فلورندا اكثرهم تخشعا ، فكم فرعت صدرها وكم توسلت الى الله والى السيد المسيح أن ينجي خطيبها من المهالك ويعيده اليها سالما . فلما انقضت الصلاة ارفض الجمع فخرج الراهبات من باب ، والرهبان من باب آخر ، وعاد الراهب العجوز بفلورندا وصاحبيها نحو دار الاضياف ، ولحظ وهم خارجون ان فلورندا استخرجت من جيبها نقدا وضعته بين يدي الايقونة التي كانت تصلي امامها ، ورأى النقد أصفر لامعا فاستدل من ذلك على ان الاضياف من اهل الثروة وربما تبرعوا بمال كثير لصندوق الدير ، فرافقهم الى دار الاضياف وهرول راجعا وهو يتوكأ على عصاه حتى اتى الى الرئيس وقص عليه ما كان من قدوم هؤلاء الغرباء الى ان قال : « ويظهر من ثيابهم ولهجة لسانهم انهم من اهل طليطلة، ويؤيد ذلك ما رأيته من كرمهم، فهل تأذن لهم بالمجيء اليك ؟ »

قال الرئيس : « بل أرى ان اذهب انا اليهم »

قال ذلك ونهض وعليه رداء بسيط ايضا ولكنه ارقى حالا من رداء الراهب البواب ، وهو مؤلف من عباءة اطول قليلا من تلك وقد تمنطق عليها بحبل واحتذى نعلا من خشب ، وعلى رأسه شبه قبعة سوداء . وكان الرئيس كهلا بادنا ربع القامة ، حسن الطلعة ، صحيح الجسم ، نير البصيرة ، وكان كثير المطالعة والبحث فصيح اللسان ، وذلك ما رقاه الى درجة الرياسة وهو كهل وتحت حكمه عشرات من الرهبان معظمهم شيوخ مثل راهبنا العجوز . والارتقاء في رتب الكهنوت يطلب ان يكون عن أهلية ، خصوصا في الرهبنات اذ لا تأثير هناك لاداله

القرابة او نعود العصبية . والكل سواء في الاغتراب والاعتزال . لايتفاضلون بإرث ولا بصنيعة . بل لكل منهم نصيبه من اجتهاده وسعيه واقتداره . فاذا ارتقى راهب الى الرياسة او نحوها مع صغر سنه كان ذلك دليلا على امتيازه عن رفاقه بما يؤهله الى تلك الرتبة . ويغلب في هذه الاحوال ان يكون السابق محسودا او مكروها ، اما رئيس دير الجبل فقد كان على الضد من ذلك بالنظر الى ما فطر عليه من اللطف والدعة وكرم الخلق . بدليل انه لما سئل عن مجيء اولئك الضيوف اليه تبرع بأن يذهب هو اليهم بنفسه مجاملة وتلطفا !

وكانت فلورندا منذ عادت من الكنيسة جالسة على مقعد في احدى غرف الضيافة وقد هاجت اشجانها ، وتنبه ذهنها للتفكر في الفونس ، فاستغرقت في الهواجس والعجوز الى جانبها صامتة لا تتكلم وقد غلب عليها النعاس لفرط التعب . بينما ظل شانتيلا واقفا بالباب ينتظر رجوع الراهب . وكانت الشمس قد اشرفت على المغيب . ولمغيب الشمس في الجبال هيبة ورهبة ، خصوصا حيث يقل الناس

لم تمض برهة حتى اقبل الرئيس وبيده رق كان يطالع فيه لما كلمه الراهب . فلما رآه شانتيلا مقبلا تأدب في وقفته ولكن لم يكد يقع نظره عليه حتى توسم فيه رجلا يعرفه ، او انه يشبه رجلا يعرفه . ولو ان ذاكرته لم تسعفه في تلك الفرصة الضيقة . فلما دنا الرئيس من دار الاضياف اشار شانتيلا الى فلورندا بشبهها الى مقدمه ، وتقدم هو حتى جثا بين يديه وتناول انامله فقبلها . والرئيس يظهر عدم ارتياحه الى ذلك المجد الباطل . ولما دنا من الباب خرجت فلورندا لاستقباله وجثت وقبلت يده ، وكذلك فعلت خالتها . وكان الرئيس عندما استقبل الفتاة لم يمعن نظره فيها على جاري العادة ، على انه ما لبث حين جلست بين يديه حتى تذكر انه رآها قبل الآن فقال لها : « لعل هذه السيدة والدتك ؟ »

قالت : « كلا يا مولاي بل هي خالتي » . قالت ذلك واستعاذت بالله من تلك الاسئلة وخافت ان يسألها عن اسمها ونسبها ولامندوحة لها عن الجواب الصريح لانها تكره الكذب كرها شديدا . وودت لو وجه الرئيس اسئلته الى شانتيلا لانه اقدر منها على التخلص . على انها تذكرت ما للناس من الثقة في جماعة الكهنة حتى ليسلمون اليهم اسرارهم بالاعتراف ويقصون عليهم كل ما اقترفوه ولو كان عظيما .

فهان عليهـا الامر وعزمت ان تجعل حديثهـا مع الرئيـس من باب الاعتراف اذا رات ما يدعو الى ذلك

مرت كل هـذه الخواطر بذهنها في لحظة . فلما سـالها الرئيـس السـؤال الثاني كانت قد تهيأت للجواب

قال لها : « ومن اين انتم قادمون ؟ »

فالتفتت فلورندا اليه وقالت : « هل يأذن لي حضرة الاب المحترم في كلمة ارجو ان لا تثقل عليه ؟ » . قال : « كلا . قولي » . قالت : « اذا لم يكن لحضرتكم بد من الاستفهام عن كل ما يتعلق بنا فاني استميح الاذن في ان تجعل ذلك على سبيل الاعتراف . لان في حكايتنا سرا لايمكن ايداعه عند احد الا عن هذا السبيل »

فحني الرئيس راسه وقال : « لايهمني البحث عن احوالكم الا على امل ان استطيع خدمتكم في شيء ، فانتم مخيرون في الكلام اوالسكوت . وفي كل حال فانكم اضياف مكرمون »

فقالت فلورندا وقد اعجبت بلطف الرئيس : « نشكرك في كل حال ، ولا نقبل مع ذلك الا اطلاعك على سرنا لما توسمناه فيك من اللطف . ولان مكاشفة امثالك بالاسرار فرج ورحمة . فهل تقفل الباب ؟ »

ولما سمع شانتيلاكلام فلورندا بعد عن الباب فخف الرئيس بنفسه الى الباب كانه يهم باقفاله ، ولكنه اشار الى العجوز ولسان حاله يقول : « وهل تبقى هـذه المراة لسماع الاعتراف ؟ » . فادركت فلورندا قصده وقالت : « ان هذه الخالة مستودع اسراري فلا باس من بقائها »

واغلق الرئيس الباب فاظلم المكان فعاد وفتحه . وصفق فجاء راهب وبيده مصباح مضيء بالزيت فوضعه على مسرجة في الحائط وانصرف ، فاقفل الرئيس الباب ثانية وجلس . واصاخ بسمعه لما تريد فلورندا ان تقصه عليه . ولم تكد تبدا بالحديث حتى اهمه الوقوف على تمامه ، على انها لم تصرح له بكل شيء ، وانما قالت له : « نحن من طليطله ، وقد خرجنا للتخلص من اناس ارادوا اغتيالنا فلم نجد فرجا غير الفرار »

فقال الرئيس : « ولماذا لم تلجاوا الى الملك فانه الموكل بنصرة المظلومين » . فلم تدر فلورندا بماذا تجيب وادرك الرئيس اضطرابها تلوسـه تستا احب ان يقف على حقيقته فقـال : « يظهر ان الملك ايضا من جملة ما تخافونه ! » . فتصدت العجوز للجواب وقالت : « نعم . ولماذا الكتمان ! بل كل خوفنا من الملك نفسه ! »

فبغتت فلورندا لهذا التصريح . ولكنها اطمأنت لاعتمادها على سر الاعتراف وهو مقدس لايباح به . ولحظ الرئيس بغتتها فحول وجهه عنها وقال : « ومن هو الرجل الذي جاء معكما ؟ » .

قالت فلورندا : « هو من أتباع بعض أهلنا » .

فابتسم الرئيس وقال : « أليس هو من اتباع الامير الفونس ؟ ! » .

فلما سمعت فلورندا ذكر الفونس احمر وجهها حتى كادت تختنق . وتلعثم لسانها والتفتت الى خالتها كأنها تتوقع مخرجا من عندها . فاذا بالعجوز تقول : « نعم يا مولاي انه من خدم الامير الفونس بن غيطشة ملك الاسبان السابق . وهل تعرفه ؟ » .

فتحول الرئيس من الابتسام الى الانقباض حالا ولم يستطع التوقف عن الجواب فقال : « نعم اعرف غيطشة واعرف أولاده وكل اهله . ومن من كهنة اسبانيا لا يعرف اخاه الاسقف اوباس . ومن لم يستفد من عقائده أو قدوته أو حكمه او درايته ؟ ذلك الرجل الذي لا اظن الزمان يجود بمثله . ولكن ! » .

فلما سمعت فلورندا اطراءه اوباس اطمأن بالها الى ان الرجل ميال الى حزب الملك السابق فلا خوف منه على سرها . ولكنها لاحظت منه انه يحاذر أن يكاشفها [illegible] من مكاشفته لولا الاعتراف . فعزمت على استطلاع حقيقة رأى الرجل وهي تأمن على ما تقوله في ظل سر الاعتراف فقالت : « الا تدرى أين هو أوباس الآن ؟ » . قال : « كلا . وأين هو ؟ » . قالت : « انه سيق الى السجن منذ يومين » . قال : « ومن ساقه ؟ ومن يجرؤ ان يفعل به ذلك ؟ ! » . قالت : « ساقه الملك رودريك . بعث الى بيته بكوكبة من الفرسان اخرجوه من فراشه » .

فوقف الرئيس مذعورا وظهرت على وجهه امارات الغضب وقال : « ساقوه الى السجن ! امثل اوباس يسجن ؟ ! قبح الله الجهل . ! كيف تجرأوا على مس يده لغير التقبيل . وكيف خاطبوه بغير الاحترام والتبجيل ! ! » .

فتحققت فلورندا عند ذلك ان الرئيس من مريدي اوباس واهله . فتاقت نفسها الى استنجاده او مشورته في امر الفونس . ولكنها استحت فاطرقت . فتناولت خالتها الحديث بيانة عنها وقالت : « والفونس ؟ هل تعرفه ؟ » .

قال : « كيف لا وقد عرفته منذ طفولته . وكثيرا ما كنا نلتقي به في طليطلة ايام المواسم والاعياد على عهد المرحوم ابيه » .

فوقفت العجوز ونظرت الى الرئيس نظر المتفرس وقالت: «اما وقد برح الخفاء فأخبرك ان الفتاة التي تراها بين يديك هي خطيبة الفونس؛ فأراد ملك طليطلة ان يحرمه منها بالقوة فقدمه في مهمة الى اقصى بلاد الاسبان. فلما رأت عزمه وفهمت مراده خرجت من قصره فرارا. ثم علمنا ان رودريك ألقى القبض على اوباس لانه ساعد في انقاذها من بين مخالبه! هذه واقعة الحال كما هي. وانت وشأنك»

فتفرس الرئيس في فلورندا وقال: «اليست هذه بنت يوليان حاكم سبتة خطيبة الفونس؟ اني اول الشاهدين على خطبتها. وقد كان اهلها يتحدثون بخطبتها الى الفونس وهما طفلان. ثم خطبها اوباس بواسطة ذلك العقد. فكيف يتجرأ رودريك على حله؟!»

فلما سمعت العجوز كلامه تذكرت انها كانت تراه يتردد الى قصر طليطلة على عهد غيطشة بلباس غير هذا اللباس فقالت: «ألست الاب مرجيوس؟»

قال: «انا مرجيوس. وكنت كاهنا اتردد على طليطلة بالنيابة عن هذا الدير. فلما رأيت الدسائس تتعاقب بعد المرحوم غيطشة ولم اجد سبيلا الى تجنبه اقمت في هذا الدير حتى توليت رياسته. ولو اطاعني اوباس لاقمنا هنا معا في امن وسلام». ثم التفت الرئيس الى فلورندا وقال لها: «كوني مطمئنة البال. ان سرك محفوظ في حرز منيع. واعلمي اني نصيرك ونصير اوباس في كل شيء. سامحه الله كم طلبت اليه ان يدع طليطلة ويأتي الى هذا الدير نعبد الله فيه ونبعد عن دسائس العالم وشرور اهل المطامع. وعندنا من الثروة والاموال ما يكفينا طول العمر. ولكنه ابى الا البقاء هناك. والظاهر انه يرعى ابناء اخيه خصوصا الفونس». ثم اطرق وهز رأسه وقال: «اوباس في السجن الآن!»

قالت فلورندا: «علمنا انهم ساقوه الى السجن ولا ندري اسجنوه ام قتلوه؟ وكان في غرضنا بعد نزولنا في هذا الدير ان نبعث هذا الشاب الى طليطلة يتجسس الاحوال ويعود الينا».

فقطع الرئيس كلامها قائلا: «لا. لا يصلح هذا لذلك، لانهم يعرفونه ويعرفون انه من اتباع الامير الفونس او الاسقف اوباس، وربما قبضوا عليه وسجنوه او قتلوه. دعوا ذلك لي. فقد اصبح البحث في هذا الامر من واجباتي. كونوا براحة فأعين الاحراس ساهرة». قال ذلك ونهض وهو يقول: «وقد آن لكم ان تستريحوا من عناء السفر. واعلموا ان الدير ومن فيه تحت اشارتكم لانا جميعا

صنيعة الملك غيلنة . ونحن وقف على خدمة ابنه وكل من يلوذ به . فهل تقيمون في شطر الدير المخصص بالراهبات ويبقى خادمكم شانتبلا في هذا القسم . ام تفضلون البقاء معا في هذه الدار ولا ندخل اليها احدا سواكم ؟ »

فنهضت فلورندا وقد احست بحمل ثقيل نزل عن عاتقها وشكرت الله لانه استجاب صلواتها وعلقت آمالها بقرب الفرج . فانثنت على الرئيس مرجيوس وقبلت يده واستشارت خالتها في الاقامة فقالت : « ارى البقاء هنا بعيدين عن الناس وشانتبلا معنا حتى نرى مايكون»

فقال الرئيس : « ذلك لكم » . ثم خرج وكان الليل قد اسدل نقابه . واوقد الرهبان نيرانا في بعض جوانب تلك الساحة للاستدفاء والاستنارة . وكان شانتبلا قد اختلط بالرهبان وهم يسألونه عن احواله ولا يسمعون منه جوابا مفيدا . فلما خرج الرئيس من دار الاضياف سكتت الضوضاء وتشاغل الرهبان باعداد الطعام . وبعث الرئيس الى رب الدير وامره ان يعد للاضياف ما يحتاجون اليه من لوازم الراحة .

وعاد الرئيس الى غرفته وهو في هم من امر اوباس لانه كان يحترمه ويحبه ويغار عليه ككل معارفه لما علمت من تعقله ورزانته وإبائه . فاخذ يفكر في سبيل انقاذه . ثم تذكر انه ليس على يقين من حقيقة حاله فعول ان يتولى البحث عن ذلك بنفسه . وكان مرجيوس لم يذهب هذا العام الى طليطلة في عيد الميلاد لحضور العشاء الاعظم وتهنئة الملك لعوائق لم تكن لتقتضي تخلفه لو لم يكن هو ميالا الى الابتعاد عن الملك وحاشيته لما في نفسه من النقمة لعمله . فقد كان حاضرا في المجمع الذي دبر تنصيب رودريك بدله ; ولم يكن ذلك من رأيه ولكنهم غلبوه على امره بالاكثرية . ثم اصبح يخاف التظاهر بما يعتقده لئلا يناله غضب الملك . ولم يكن يحتمل مشاهدة ما يغاير اعتقاده فجعل قدومه الى طليطلة نادرا . فلما اقبل عيد الميلاد الاخير تعلل بما يمنعه عن القدوم . فلم ير شيئا مما حدث لاوباس . ولو كان هناك لشهد محاكمته وسمع حجته . وان كان حضوره لا ينفع اوباس شيئا لانه لا يستطيع التغلب على حزب الملك وهم الاكثرون

فخطر لمرجيوس ان يذهب الى طليطلة بنفسه فيعتذر للملك من تخلفه في العيد . ولكنه خاف ان يتهمه او يشك في سبب قدومه . وان لم يبد شكوكه الآن مرتين لانه لا يغفل عن مثل ذلك . ثم ارتأى

تأجيل الزيارة الى يوم راس السنة فيذهب لتهنئة الملك بالعيدين ، ولا يكون ثمة ما يدعوه الى الشك في سبب ذلك القدوم ، ولكنه لم يكن يصبر عن استطلاع حال اوباس طول هذه المدة فعول على ارسال راهب يستطلع ذلك من حاشية الملك من غير ان يشاهد اوباس أو يسمع كلامه

فقضى سرجيوس معظم الليل في امثال هذه الهواجس . فلما اصبح بعث الى فلورندا وكانت قد باتت تلك الليلة في راحة على اثر ما قاسته من تعب البدن واضطراب العواطف ، خصوصا بعد ما آنست من الرئيس سرجيوس مشاركته لها في شعورها وعزمه على مساعدتها — وافاقت في الصباح على صوت الناقوس فنهضت واخذت تتأهب للذهاب الى الكنيسة ، ولكنها لم تلبث ان سمعت وقع اقدام بجانب غرفتها تخالف وقع خطوات شانتيلا . ثم قرع الباب فنهضت خالتها وفتحته فرأت راهبا لم تعرفه فسألته عن غرضه فقال : « ان حضرة الرئيس يدعوكما اليه »

فمضتا والراهب يسير امامهما وفلورندا تقول في نفسها : « لم تنقض ايام شقائي بعد ، اظن الرئيس غير عزمه على مساعدتي »

ومشى بهما الراهب في تلك الباحة حتى دار من وراء الكنيسة الى درجات صعدوا عليها الى حجرة طرق الراهب بابها ، ودخل قبل ان يؤذن له بالدخول . ثم عاد ودعا فلورندا وخالتها فدخلتا فاذا هما في غرفة بسيطة الأثاث حسنة الترتيب ، في جدرانها اصناف من صور القديسين مختلفة الاشكال والاحجام ، وفيها صور كبيرة الحجم من صنع مصورين رومية تمثل اهم حوادث الانجيل مثل ولادة المسيح في بيت لحم ، وتعميده في النهر ، وصلبه وصعوده الى السماء . فلما اطلت فلورندا على الغرفة انشرح صدرها لتلك المناظر وتأثرت لها تأثرا عظيما لما نطرت عليه من التقوى والورع . وقد زادتها المصائب تمسكا بحبل الدين ، فتخشعت عند دخولها تلك الغرفة مثل تخشعها عند دخول الكنيسة ، فخف الرئيس لاستقبالها ودعاها الى الجلوس فلم تتمالك قبل الجلوس من تقبيل ايقونة للمسيح المصلوب كانت قريبة منها ، ثم جلست فابتدرها الرئيس قائلا : « لم يبق بيننا حجاب وقد اطلع كل منا على اسرار الآخر فلنبسط الكلام صريحا . وعدتك يا فلورندا ان استطلع لك حال اوباس ، وكنت عازما ان اتولى ذلك بنفسي ثم خطر لي ان ذهابي الى طليطلة اليوم بعد ان تخلفت عن حفلة العيد يدعو الى الشك . وربما آل الى عرقلة مساعينا

فرايت ان أؤجل ذهابي الى راس السنة وهو قريب . فما قولك ؟ ! »
فخفق قلب فلوروندا وعدت ذلك التأجيل فاتحة المراقيل وبدا اثر ذلك في وجهها ، ولم يخف اضطرابها على الرئيس فاستأنف الكلام قائلا : « ولكنني مرسل احد الرهبان اليوم ليتفقد الحالة من حاشية رودريك ، فاذا اطلعنا عليها ساعدنا ذلك على تدبير الوسائل قبل ذهابي الى طليطلة »

فاطمأن بال فلوروندا واكتفت بانتداب الراهب وارادت ان تبين له ما تود الاطلاع عليه من امر الفونس فضلا عن اوباس . وانها تريد ان تعرف راى رودريك في فرارها وهل هو جاد في البحث عنها . ولكن الحياء منعها من الكلام في هذا الشأن صراحة فقالت : « اذا كان الراهب الذي ستنتدبه نبيها واتانا بالتفصيل اللازم كان ذلك خيرا من ذهاب حضرتك قبل الاطلاع على شيء » . فقال الرئيس : « فلنبحث بما يطلب الاطلاع عليه »

فقالت العجوز : « لا اخفى على مولاى الرئيس المحترم ان اهم النقط التى يطلب البحث عنها انما هى اوباس وحاله . ثم يهمنا الاطلاع على راى رودريك في فرارنا لاننا فررنا من قصره رغم انفه . ثم نحب الاطلاع على المكان الذى بعث اليه الامير الفونس » . قال : « فهمت المطلوب وسأوصي الرسول به ونظنه يعود الينا بالخبر اليقين » . فنهضت فلوروندا وقبلت يد الرئيس وكذلك فعلت العجوز، واستأذنتا في الذهاب رغبة في تفرغ سرجيوس لقضاء تلك المهمة . فاذن لهما فانصرفتا . اما هو فانه صعق فجاءه الراهب الذى يتولى خدمته ، فامره ان يدعو راهبا سماه ، وكان له به ثقة كبرى وكثيرا ما كان يكاشفه بما في نفسه ضد رودريك فلما جاء أوصاه بما يطلب الاطلاع عليه واستحثه ان يسرع في الرجوع

وسافر الراهب على دابة من دواب الدير وعليها « الخرج » كانه منصرف الى المدينة على نية الاستبضاع مما يحتاج اليه اهل الدير من الادوات والامتعة . وكانت عادة ذلك الدير ان يرسل رسولا لمثل هذا الشأن مرتين او ثلاثا كل سنة . والغالب ان يكون ذلك في الصيف لانهم يفضلون السكن في الشتاء كما يفعل سائر اهل الجبال . على ان ذلك لا يمنع شخوصهم الى المدن في هذا الفصل

وقضى الراهب في مهمته خمسة ايام عاد في نهايتها. وكانت فلوروندا قد ملت الانتظار وحسبت تلك الايام اجيالا . وكانت في اثناء الانتظار تصعد مع خالتها وشانتيلا الى سطح الدير تشرف منه على الاودية

والبلاد لعلها تجد الرسول عائدا . واتفق صفاء الجو وامساك المطر كل تلك المدة فكانوا اذا جلسوا على السطح اطلوا على جبال اكثرها عار من النبات الاخضر ، وبعض رؤوسها وكهوفها مكسو بالثلج ، وكانوا يشاهدون الضباب في كل صباح يغشي الاودية بحسبه الناظر بحرا تتلاطم امواجه ، ويحسب ما يبرز في وسطه من قمم الجبال جزرا يفصل الماء بينها ، فاذا حمي الجو قبل الظهر عاد الضباب بخارا وعادت الجزر جبالا ! فكانت فلورندا تعلل نفسها في اثناء تسلط الضباب ان يكون الرسول على مقربة والضباب يحجبه عن بصرها . وكانت تستأنس بذلك الشيخ الهرم بواب الدير لان غرفته او برجه يستطرق الى السطح فكان يخرج في بعض الاحيان ليجالسها ويقص عليها ما مر به من الغرائب في اثناء عمره الطويل فتستريح الى سماع حديثه ، لانه على شيخوخته لم يكن يكثر الكلام الذي لا يلذ السامعين ولو كانوا شبانا

ففي اصيل اليوم الخامس رأت وهي على السطح راكبا اطل من بين الاكمتين لم يكد بصرها يقع عليه حتى علمت انه الراهب الرسول ، فخفق قلبها ونادت خالتها قائلة : « ها قد اتى فلنمض الى الرئيس لنسمع حديثه » . قالت : « هلم بنا اليه » . وتحولتا نحو غرفة الرئيس وكان جالسا بابها يطالع في درج باللاتينية . فلما راى فلورندا والعجوز قادمتين نهض لهما ورحب بهما فقرأ على محيا فلورندا امارات الدهشة والقلق . فادرك انها تكتم شيئا فقال لها : « خيرا يا بنية . ما الذي حدث ؟ » . قالت : « اري رسولك قادما فاستدعه لنسمع حديثه » . قال : « وهل اتى . . ؟ اني اشد قلقا منك في انتظاره . ولا اقلب هذه الكتب الا تعللا وتشاغلا » . ونهض لساعته واوصى خادمه ان يسرع في استقدام الرسول . فهرول الرجل وعاد بعد قليل والرسول في اثره وهو لا يزال يعلو وجهه وثيابه غبار السفر . فلما وصل سلم وبارك وجلس . فقال له الرئيس : « نحن عيننا منذ رايته على عجل ، وابدأ بأوباس »

فقال الراهب : « اما حضرة الاسقف فانه مسجون في حجرة على حدة » . قال : « وما سبب سجنه ؟ » . قال : « اتهموه بالتآمر على خلع الملك ، وحاكموه في مجمع الاساقفة » . فقطع الرئيس كلامه قائلا : « وكيف ذلك ولم نسمع بالتئام المجمع » . قال : « فعلوا ذلك الماضيا السرعة . فألف الملك مجمعا من الاساقفة كانوا في طليطلة يوم العيد »

قال : « وماذا كانت نتيجة المحاكمة ؟ » . قال : « لا أدرى ولكنى سمعت ان الاسقف ابدى من البسالة والحمية فى اثناء المحاكمة ما افحم به خصومه .

وكانت فلورندا تتطاول بعنقها لسماع اقوال الراهب وتود الوصول الى خبر الفونس

فقال الرئيس : « وهل تظن تلك التهمة فى محلها ؟ » . قال : « هل اقول كل ما سمعته ؟ » . قال : « نعم قل » . قال : « بلغنى من اهل القصر الملوكى ان لمحاكمة اوباس سببا سريا لم يطلع عليه الا نفر قليلون ! » . فقال : « وما ذلك ؟ » . قال : « بلغنى أن الامير الفونس كان خاطبا فتاة من اهل القصر الملوكى ، وان رودريك ارادها لنفسه . ووبخه أوباس على ذلك ، فغضب عليه وأراد الانتقام منه ! » . قال الرئيس : « وماذا تم فى أمر الفونس وخطيبته ؟ » . قال : « اما الفونس فقد ارسله الملك فى مهمة حربيه الى بلد بعيد ليخلو له الجو بعده . فكان ذلك سببا لتدخل اوباس . اما الخطيبة فقد بلغنى انها فرت من طليطلة والناس يستغربون فرارها من القصر الذى كانت فيه والحراس من حوله . واما الملك فقد اشتد غضبه على تلك الفتاة وعول على الانتقام منها حالما يظفر بها ! »

فقالت العجوز : « وكيف يظفر بها واين هى ؟ ! »

ولا نظن الراهب لم يلحظ من قرائن الاحوال ان فلورندا هى الخطيبة الفارة ولكنه تجاهل مجاراة لما اراده الرئيس فقال : « اكد لى العارفون ان الملك ربط عليها الطرق واقام الارصاد ، وبث العيون فى كل انحاء المملكة . ولا يكاد يمر يوم الا ويحملون الى قصره فتاة او فتيات ممن يعثرون عليهن فى اثناء التفتيش . فاذا وقع بصره عليهن اطلق سراحهن اذ لا يرى تلك الفتاة بينهن ! »

فلما سمعت فلورندا ذلك اضطرب قلبها لاول وهلة ، ثم شكرت الله لدخولها هذا الدير وتوفقها الى ذلك الرئيس المحب ، وعولت على البقاء هناك حتى يعود اجيلا من عند والدها . ولكنها احبت السؤال عن مقر الفونس فاومأت الى خالتها أن تسأل عنه فقالت : « وهل عرفت المكان الذى ذهب اليه الامير الفونس ؟ » . قال : « لم استطع الوقوف عليه صريحا ولكننى سمعت ان الملك انفذه مع فرقة من الجند الى استجة ، ولم اتحقق تماما لانى لم ادقق فى البحث عنه .

فاومأ الرئيس الى فلورندا ان تكتفى بما تقدم ريثما يوفق هو للذهاب الى طليطلة والبحث عن كل ذلك . فسكتت ثم وقف الرئيس

وصلى صلاة وجيزة . فلما فرغ انصرفت فلورندا وهي غارقة في لجج التأمل لما سمعته عن اوباس وسجنه . وعن تشديد رودريك في البحث عنها . فلم تر مندوحة عن البقاء مستترة في ذلك الدير لترى ماياتي به القدر . معللة نفسها بالاطلاع على تفاصيل اخرى بعد رجوع الرئيس من طليطلة

ولكن الطبيعة ابت الا معاكستها فتغير الطقس وتوالت الامطار وتكاثرت الثلوج حتى سدت طرق الجبال وانقطعت السابلة فمنعت الرئيس من السفر اياما عديدة وهو قاعد على مثل الجمر . فكيف بفلورندا والجمر يتقد في قلبها وفي راسها . خصوصا بعد ان مضى شهر وبعض الشهر ولم يرجع اجيلا من مهمته الى والدها

وكان الرئيس يتردد اليها فيطمئنها ويعدها خيرا ويريها ابواب الفرج لثقته الكبرى بتعقل اوباس وحسن درايته وعظم سطوته على العقول والقلوب . ولم تكن هي اقل اعجابا به لانها شبت لا تسمع اسمه الا مشفوعا بعبارات الاطراء والتبجيل حتى خيل لها انه قادر على كل شيء . ولم تصدق ان احدا يستطيع اذيته او التغلب على رايه ! وكان سرجيوس يعمل فكرته في طريقة لاخراج اوباس من السجن . فاذا خرج جاء الى الدير واقام فيه بسلام . ولكنه لم يهتد الى شيء . لما بلغه من تشديد الملك في الاحتفاظ به والسهر على حراسته

—

وافاقت فلورندا ذات صباح من اواخر فبراير على هبوب العواصف وانهمار المطر واكثره من الثلج او البرد . واشتدت الانواء والرعود والبروق نحو ساعتين . ثم انقطع حبل الغيث وسكنت الرياح بغتة — وتلك عادة هذا الشهر في البلاد المعتدلة فان الجو ينقلب في اليوم الواحد من ايامه تقلبات شتى . بين صحو ومطر ونوء وصفاء — فلما كف الامطار اطلت فلورندا من باب الغرفة فاذا فناء الدير قد غمرته الثلوج الى باب غرفتها ومع ذلك اشرقت الشمس على ذلك الثلج فتكسرت اشعتها عليه وانحل النور في بعض الاخاديد فبدا الطيف الشمسي بالوان قوس قزح . فوقفت فلورندا وهي تتأمل ذلك المنظر الجميل . ثم ما لبثت ان رات الرهبان يتقاطرون من كل جانب وفي ايديهم المجارف والمعاول واخذوا في جرف الثلج وحمله الى الخارج . وبينهم الراهب الشيخ صاحب الباب . وقد استعان بالعكاز مجرفة يجرف بها الثلج بنشاط الشباب . وكان فوق ذلك لا يزال عاري الساقين والزندين وقد اكتفى من وسائل الدفء بلف

شعله من الصوف حول صدغيه واذنيه . ورات سانتيلا كذلك يشتغل معهم . فلم تمض برهة حتى نظفت الباحة وكان بعضهم يجرف الثلج عن السطح ايضا . فلما فرغوا خرجت فلورندا وبربارة وصعدتا الى السطح واطلتا على الجبال على سبيل الفرجة . ولم تمض برهة حتى اثر الزمهرير في فلورندا ولم يغنها القباء ولا الكساء، ثم تغير وجه السماء بغتة وتكاثفت الغيوم وأوشكت السماء ان تمطر فهمت فلورندا بالرجوع . فرات الشيخ الراهب في باب حجرته على السطح وهو يشير اليها ان تاتي اليه . فتحولت وتبعتها خالتها حتى اقبلتا على الغرفة واذا هناك نار في اناء يشبه الموقدة في بعض جوانب الحجرة . فلما دخلت احست بالدفء وشعرت بلذة غريبة . فقال لها الراهب اجلسي يا سيدتي وتدفئي فان البرد شديد جدا اليوم . فجلست وخالتها الى جانبها . واتفق جلوسهما بجانب النافذة . فاخذ الراهب يقص على ضيفتيه احاديث شبابه وكهولته على سبيل التسلية . والخالة العجوز تشاركه في تحقيق بعض النقط وان كانت هي اصغر منه سنا

وكانت فلورندا في اثناء ذلك تنظر من تلك النافذة الى ضواحي الدير . فاذا هناك دابة تمشي صاعدة نحو الدير وعليها راكب ، فامعنت النظر فيه وصاحت قائلة : « اجيلا . اجيلا ! » فلما سمع الراهب قولها نظر الى القادم ولم يكن يعرفه فقال : « ومن هذا يا سيدة ؟ ! »

قالت : « هو رسول ارسلناه في مهمة وقد عاد الينا ، فهل تسرع في فتح الباب له حتى لا يضر به البرد ؟ »

فقال : « سمعا وطاعة » وتناول عكازه وتحول نازلا وظلت فلورندا وخالتها مطلتين من النافذة لتتحققا امره فاذا هو اجيلا بعينه على جواد . ولما دنا من الدير وقف الجواد واجيلا ينظر الى الدير ويضحك ضحكا شديدا . فلما راته فلورندا يضحك استبشرت وانبسطت نفسها ولم تتمالك ان نادته قائلة : « اجيلا » فلم تسمع منه جوابا ، فظنت هبوب الريح اضاع صوتها قبل وصوله اليه . ثم رات الراهب الشيخ قد خرج من الدير . حتى اذا اقبل عليه شهر عكازه واخذ في ضربه ضربا عنيفا واجيلا لا يتحرك . والراهب يزداد عنفا بالضرب ويصيح ويستغيث بالرهبان الآخرين . فخرج اثنان منهم وفي يد كل منهما عصا غليظة فامسك احدهما بزمام الفرس وعمل الآخر على ضرب الراكب حينما اتفق وهو ساكت . فاستغربت فلورندا ذلك

وتولتها الدهشة لما راته من خشونة ذلك الضرب لغير سبب يدعو اليه . فجعلت تصيح بالرهبان تستحلهم وتستفهم عن سبب اعتدائهم وهم لا يبالون بكلامها . فغضبت وتحولت من تلك الغرفة تريد غرفة الرئيس لتشكو اليه قسوة رهبانه . وسارت الخالة في اثرها حتى اذا وصلتا الى باحة الدير قالت فلورندا لخالتها : « اذهبي انت الى الرئيس واذا اخرج لمخاطبة اولئك الرهبان » . ثم نادت شانتيلا فلم تسمع جوابا فاسرعت الى باب الدير حتى خرجت منه فرات شانتيلا عاملا مع الرهبان على ضرب اخيه ايضا وقد انزلوه عن الفرس وامسك احدهم برجليه وآخر بيديه واخذ الباقون يضربونه على القدمين والكفين ضربا موجعا . فازدادت فلورندا دهشة واستغرابا وصاحت : « شانتيلا . ما هذا العمل ! » . ولكنه لم يرد عليها ؛ وبعد هنيهة رأتهم حملوا باخيلا محمولا واسرعوا به الى الدير لايبدي حراكا فظنته مات من شدة الضرب . فكادت تبكي لغيظها واسفها . ولكن الاستغراب ظل غالبا عليها فلما دخلوا به سارت هي في اثرهم فصعدوا الى غرفة صاحب الباب فتعقبتهم وهي لا تجسر على الكلام لئلا يصيبها حظ من ذلك الضرب . ولكنها كانت تتلفت يمينا وشمالا لعلها تجد الرئيس قادما لتستنجده او تستفهمه . واذا به مسرع على السطح من جهة اخرى والعجوز في اثره وهي تشير الى فلورندا ان تطمئن

فاسرعت فلورندا الى الرئيس وسالته عن سبب ذلك فقال : « لا تجزعي ؛ فانهم انما يفعلون ذلك لحفظ حياته ! »

قالت : « كيف يحفظون حياته وقد اماتوه من الضرب ! ! »

فضحك الرئيس وقال : « يظهر انك لم تسمعي بالدنق ! ! »

قالت : « وما الدنق يا مولاي ؟ »

قال : « هو الموت من البرد الشديد ! فالظاهر ان رسولك هذا اوشك أن يدنق من البرد . فعمدوا الى ضربه ليتحرك دمه وتعود اليه الحرارة فلا يموت »

قالت : « لم يكن يشكو من برد مطلقا بل رأيته يضحك سرورا »

فضحك الرئيس حتى قهقه وقال : « ان الضحك في البرد من علامات الدنق ! » قال ذلك ودخل الحجرة وهو يقول : « اسقوه قليلا من الخمر وادنوه من النار »

فاسرع الراهب صاحب الباب الى ابريق في بعض اركان الحجرة نسكب منه في كاس ودنا من الرجل ؛ وتقدمت فلورندا نحوه ايضا

وتفرست في وجهه فرأته قد فتح عينيه ولكنه لا يزال منحل القوى، فتحققت ما قاله الرئيس وشكرت الله على نجاته

□

قضوا ساعة في معالجة أجيلا بالدفء وشرب المنبهات حتى صحا وعاد الى رشده ، فاستأذنت فلورندا في نقله معها الى دار الاضياف فأذن لها ، فنزلت به ومعها شانتيلا والخالة . فلما استقروا في الغرفة سألته عن سبب غيابه فأخبرها انه قاسى في اثناء رجوعه عذابا اليما من مقاومة الطبيعة وارصاد رودريك حتى اضطر ان ينام في النهار ويسافر بالليل خوفا من ان يقع كتاب يوليان في ايديهم ، وهذا هو السبب في وصوله على هذه الحالة من البرد الشديد حتى كاد يموت

ثم سألته عن والدها فقص عليها ما كان من وصوله اليه وما اصابه من الغيظ واليأس لما قرأ كتابها الى ان قال : « وقد صمم على الانتقام من رودريك انتقاما لم يسبق له مثيل في تاريخ الاسبان » .

ثم أخبرها عن اتفاق والدها مع جند العرب على المسير معهم الى اسبانيا ليكون عونا لهم على فتحها كلها ، ومد يده الى جيبه واستخرج انبوبا مختوما سلمه اليها ففضته فرأت فيه لفافة من القباطي . وهو نسيج مصري قديم ، ففتحتها فاذا هي كتاب من والدها اليها . فحالما رأت خط يده خفق قلبها وتذكرت حنوه فدمعت عيناها . ولم تستطع قراءة ذلك الكتاب الا بعد ان سكن جأشها ومسحت دموعها ثم تناولت الكتاب وقرأته فاذا فيه :

« من الكونت يوليان الى ابنته الحبيبة فلورندا . باسم الآب والابن والروح القدس . قرأت كتابك ايها العزيزة فسبقتني الدموع الى تفهمه ، لما هاجه لي من المصائب الكامنة . وقد ساءني ما اقترفه ذلك الوحش الكافر من الاساءة الى الدين والى الفضيلة والى يوليان . اما الاولان فالله كفيل بالقصاص لهما . واما ما اراده من مس عرضي فانا اتولى الانتقام له بنفسي . وابشري فانني حامل عليه وعلى بلاده بجند من العرب لا شك ان الله ناصرهم على ذلك الخائن ، لما نعلمه من غضب الاسبان والقوط عليه . وان العمل الذي اشرت اليه في كتابك يكفي وحده لغضب السموات والارض على ذلك الدخيل في القوطية . ولا اطيل الشرح لان ناقل هذا الكتاب يوضح ما يشكل عليك ، وانما كتبت هذه الاسطر تثبيتا لاقواله ولكي ابشرك بالفرج القريب . وسوف ترين رودريك الخائن قتيلا مضرجا ، او اسيرا مكبلا ، فامكثي

حيث تسأمنين حتى آتي اليك . واذا اعوزك الوصول الى فانا مع كبير جند العرب حيثما يكون ، والسلام .. كتب فى سنة ؟

فلما وصلت الى آخره لم تتمالك ان نهضت تريد الرئيس وكان قد ذهب الى غرفته فسارت وحدها وهي لاتفقه ما تمر به لفرط ما بها من ذلك الخبر المفاجيء وقلبها يرقص طربا لما حواه ذلك الكتاب من بشائر الانتقام ؛ والانتقام من اقوى ملذات الانسان . فلما اقبلت على الرئيس انكر ما يبدو فى محياها من آثار البغتة مع شيء من الخفة فوقف لها فدخلت فحيته وقالت : « جئتك بأمر ذي بال وفيه القضاء المبرم على رودريك ! »

فانذهل لتلك المباغتة وقال : « وما ذلك ؟ » . قالت : « ان الشاب الذي وصل فى هذا الصباح وكاد يموت من البرد انما هو رسول الذي بعثت به الى والدى فى سبتة وبعثت معه كتابا مختصرا شكوت فيه ما اصابني من رودريك . فعاد الرسول اليوم بهذا الكتاب » . ومدت يدها ، واستخرجت الكتاب ودفعته الى الرئيس . فتناوله وقراه وهو لا يصدق انه فى اليقظة ، واعاد قراءته ثانية وثالثة وفلورندا صامتة تتوقع ما يبدو منه . فلما تفهمه جيدا رفع بصره اليها وقال : « ان والدك سيعمل عملا يغير به وجه هذه الجزيرة ؛ سيعمل عملا يقضي به على هذه الدولة . وسيعلم رودريك عاقبة ما كان من خرقه حرمة الدين ، نعوذ بالله من غضب الله ! » . وصمت برهة ثم قال : « وهل نقل الرسول اليك شيئا من التفاصيل ؟ »

قالت : « اخبرني ببعض الشيء ولم استطع صبرا على نقل هذا الخبر اليك ، فاذا اذنت بعثنا الى اجيلا يقص علينا ما شاهده بعينيه » .
قال : « احب سماع ذلك » ثم صفق فجاء خادمه فقال : « الي بالرجل الذي جاءنا هذا الصباح وهو فى دار الاضياف »

فمضى الرجل وعاد باجيلا فانحنى هذا امام الرئيس وقبل يده ثم جلس متأدبا فجعل الرئيس يسأله عما شاهده بعينه ؛ فقص عليه ما عاينه من شجاعة العرب واتحاد كلمتهم ، وصبرهم فى الحرب ، ومواظبتهم على الصلاة ، وطاعتهم لرؤسائهم ، الى ان قال : « ورد على ذلك أن مولاى الكونت يوليان عون لهم فى ارشادهم الى المسالك علاوة على ماسيلقونه من مساعدة اليهود المنتشرين باتواب النصرانية . وهؤلاء لا يدخرون وسعا فى نصرة اى داخل كان ، لانهم يكرهون هذا الملك ويكرهون حكومته لما يقاسونه فيها من الاحتقار والذل »

فلما سمع الرئيس ذلك هز راسه وقال فى نفسه : « قد انقضت

دولة هذا الباغي . وربما انقضت بانقضائها دولة القوط كلها ! » .
ثم التفت الى فلورندا وقال : « فاذا ذهبت الآن الى اوباس اخبرته بهذا الخبر الجديد . وأطلعته على هذا الكتاب . ولا اظن اهل البلاط قد علموا به بعد . ثم نحتال في اخراجه من سجنه ونأتي به الى هذا الدير يقيم فيه معنا . وطالما كان ابوك مع العرب فنحن في مأمن منهم اذا هم غلبوا . واذا غلبوا فلا يكون علينا بأس من رودريك لاننا لم نتعرض لحربه »

فتضاعف سرور فلورندا لما سمعت عزم الرئيس على استقدام اوباس اليه . وبعد بضعة ايام ذابت الثلوج وانكشفت الطرق . فركب سرجيوس بغلته ومشى خادمه في ركابه الى طليطلة

— ٩ —

اما رودريك فقد جاءه كتاب من صاحب بونيكة ينبئ بنزول العرب بلاده فاطلع الاب مرتين عليه قبل عرضه على رجال دولته . فأوهمه الاب المذكور ان العرب انما يريدون الغزو لا الفتح . فاذا اصابوا غنيمة عادوا على اعقابهم . وانهم لا يجسرون على مناوأة ملك القوط . وكثيرا ما كان العرب يسطون على ما يلي مملكتهم من الثغور فيغزون البلاد ويعودون بما يقع في ايديهم من ماشية او نحوها . فارتاح رودريك لذلك الراى لقربه من المعقول ولم يطلع رجال حكومته على الكتاب . ثم جاء من طليطلة بعض الذين شاهدوا العرب بخيلهم وابلهم وقد ملكوا الجبل « جبل طارق » ومعهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويسهل عليهم الفتح . واخبروا قائد الجند العام بذلك

وكان قائد جند رودريك رجلا باسلا دموي المزاج حاده ، اسمه الكونت كوميس له عند رودريك وجاهة وسطوة . وكان قد لحظ فيه ميلا الى فلورندا فنصح له ان يتركها ، فلم يكترث بقوله فتركه وشأنه وفي نفسه شيء عليه . فلما سمع بفرار الفتاة ومحاكمة أوباس نصح له سرا ان يعدل عن محاكمة هذا الرجل لئلا يفضحه . وكان من جملة نصائحه له الا يصغي كبير اصغاء الى مرتين وغيره من جماعة الاكليروس . فلما جاءه الخبر بنزول العرب اسبانيا ومعهم يوليان زاده ذلك جرأة على رودريك واستخفافا به ، واستغرب كتمانه نزول العرب عنه ، وكان يستبعد الا يكون عالما بنزولهم . فذهب اليه ذات

صباح وهو في مجلس حضره كبار الموظفين . وكان أصحاب مناصب الدولة الكبرى عند القوط لا يزيدون على عشرة ، منهم : الناظر الإداري الملوكية واسمه « كونت الوطن » ورئيس الاصطبلات ويسمى « كونت الاصطبل » وكاتب سر المملكة واسمه « كونت السجلات » ورئيس القضاة وهو « كونت النعم » وقائد الجند ، وصاحب الخزانة ، وقيم القصر الملوكي . ومن أصحاب رتبة الكونتية عندهم رئيس السقاة ونحو ذلك ممن يخدمون الملك

كان مجلس الملك حافلا بهؤلاء والأب مرتين بجانبه ، فدخل الكونت كوميس وعليه كالعادة أمارات الغضب بادية في وجهه ، وبعد أن استقر به الجلوس سأل الملك إذا كان قد بلغه شيء من أخبار بوتيكه . فقال الملك « لا أدري .. وهل سمعت شيئا مهما ؟ » . قال [illegible] .. سألت جلالة الملك هل جاءه خبر مهم من تلك المقاطعة ؟ »

فغضب رودريك لهذه المراجعة لما فيها من الجسارة والوقاحة فقال : « ما معنى هذه المراجعة بعد ما سمعته من جوابي ؟ » . واعتدل وتصدر وجعل يلاعب شعر رأسه المرسل على كتفيه ، وقد بدا الغضب في عينيه واستولى السكوت على الكونتية ينظر بعضهم إلى بعض ، وإلى كوميس ورودريك ، ويتساءلون عن سبب هذه الحدة

أما كوميس فلما رأى الحضور ينظرون ما يقوله وقد شخصت أبصارهم نحوه بعدما أبداه رودريك من الجفاء عظم الأمر عليه ، وقواد الجند من أعظم الناس أنفة وسطوة خصوصا في ذلك العصر الذي كانت الكلمة النافذة فيه لصاحب الجند القوي ، وكان كوميس فوق كل ذلك قد غضب من رأي الملك لما عنده من سورة في مسألة فلورندا وأبيها . فلما سمع كلامه بتلك اللهجة الشديدة قال : « أظن جلالة الملك لا يجهل معنى سؤالي ولو تجاهله لأن معنى سؤالي بها الملك أنه حدث في المملكة ما يدعو إلى الالتفات إليه وقد يكون وهو من الأهمية بحيث يجعل المملكة في خطر ! »

فشخص الحاضرون وتطاولوا إلى الاطلاع على جلية الخبر ، فلم يكن من الأب مرتين إلا أنه وقف بهيئته المعهودة وتولى الجواب عن الملك ووجه خطابه إلى كوميس قائلا وهو يتكلف التأني ويظهر الاستخفاف :

« الملك يعني ما جاء من أمر تلك العصابة الذين نزلوا سواحل بوتيكه ؟ هؤلاء إنما نزلوا للغزو والنهب ولا يلبثون أن يرجعوا من حيث أتوا . ولو كان هذا الخبر مهما لعرضه جلالته على مجلس الاستشارة . »

وكان كوميس يحتقر الاب مرتين ولا يعبا باقواله فوجه جوابه الى الملك وقال : « اما الاستخفاف باولئك العربان فمن الخطا الفادح ، خصوصا اذا عرف جلالته انهم قادمون ورائدهم الكونت يوليان صاحب سبتة . واما اطلاع المجمع المقدس على امثال هذه الاخبار قبلنا فللملك الراى فيه . ولكننى أظن قائد الجند اولى بالاطلاع على ذلك من سواه لان عليه حماية المملكة . واما السادة الاساقفة فما عليهم الا الصوم والصلاة ! » . وكان يتكلم والتهكم ظاهر فى كل عباراته ، فلم يشا احد من الحضور الدخول فى هذا البحث لدقته ، وفيهم من ادرك اشارة كوميس الى يوليان صاحب سبته وما وراء ذلك من التعريض والتلميح . ولكنهم ظلوا ساكتين

اما الملك فاشتد غضبه واحس بما رماه به كوميس من السهام الحادة ، وادرك خطورة المركز الذى وصل اليه وانه فى حاجة الى قائد الجند اكثر منه الى سائر رجال الدولة ، ولكن عظم عليه الاغضاء بعد مبادأته بالجفاء فقال له : « لم يكن يليق بك ياحضرة الكونت ان تخاطبنى بمثل هذا الكلام ، بل كان الاولى بك ان تاتينى من طريق اخر »

قال : « ان الملك لم يترك لنا سبيلا ناتيه منه . وقد جعل هذا القسيس لسان حاله والمتكلم عنه ، والكل يعلمون أن هذا وامثاله لا يصلحون لغير العبادة ، وقد جعلهم الملك شركاءه فى مهام المملكة ، ولو اخلصوا له النصيحة لما بلغت بنا الحال الى هذا الحد »

ولا يخفى ان مثل هذا التصريح فى ذلك العصر خصوصا فى طليطلة كان يعد ضربا من الكفر لما علمناه من سطوة الاكليروس هناك ، ولولا تغلب الحدة على ذلك القائد لم يصرح بما صرح به . ففتح بهذه الجسارة بابا لاستقواء رودريك عليه فاستحلى بحجته وحول وجهة الكلام الى الدفاع عن الاساقفة . وقد اراد بذلك أن يغطى خطاه فقال : « الم تكتف بالجسارة على مقام الملك حتى تجاسرت على مقام الاساقفة . ان ذلك خارج عن حدود منصبك »

وكان الاب مرتين يرتعد من شدة الغضب فلما راى الملك لا يزال على ثباته تعرض وخاطب كوميس قائلا : « ولا اظنك تجهل ياحضرة الكونت ان كلمة من جلالة الملك او من احد الاساقفة تكفى لتجريدك من هذا المنصب ! »

ولم يكن كوميس يتوقع هذا الاستخفاف من الملك نفسه فكيف من ذلك القسيس فوقف ويده على قبضة سيفه وقال : « لقد

خسرتم بهذا الكلام وهذه المعاملة سيف كومبس ، وانتم فى اشد الحاجة اليه » . وخرج وقد اخذ منه الغضب ماخذا عظيما !

اما رودريك فقد كان يجادل هذا القائد مدافعة ولم يكن يريد ان يغضبه فى هذا المقام ، ولذلك ساءته عبارة مرتين أكثر مما ساءت كومبس . ولم يجسر احد من الحضور على التوسط فى الامر لئلا يتعاظم الخصام وقد وقع ما تخوفوه . ثم وقف الملك فعلموا انه يريد فض الجلسة فخرجوا الا مرتين . فلما انفردا التفت الملك اليه وقال : « اهكذا اغضبت قائدنا وصاحب جندنا ، ونحن فى اشد الحاجة اليه ؟ » . قال : « اتلومنى ايها الملك على انتهاره بعد ان اهانك واهان السادة الاساقفة جميعا ؟ ان الصبر على ذلك ذل لا يطاق ! »

قال الملك : « انت تعلم ان كومبس اعظم قوادنا ، ولم تكن فى وقت من الاوقات اشد حاجة اليه مما نحن الآن . والعدو ببابنا وولاتنا يدلونه على عوراتنا . سامحك الله على هذا الخطأ : الا يكفى ارتكابنا الخطأ الاول باخفاء تلك الاخبار عنه وعن سائر رجال الدولة حتى ارتكبت خطأ آخر شرا منه ! »

فاستاء الاب مرتين من هذا التعريض وقال : « كانك تقول لى انى انا سبب ذلك الخطأ ! فاذا كنت اشرت عليك بمشورة فاسدة كان الاولى الا تقبلها » . قال ذلك ومشى وسط القاعة ويده اليسرى وراء ظهره ، والاخرى يمسح بها ما تناثر من ريقه على شفتيه ولحيته ، فشق ذلك على الملك وعدها اهانة اخرى وقال : «اتكون تخطئنا وتضيع منا احسن قوادنا ، ثم تنقم علينا وتستخف باقوالنا ويكون الذنب مع ذلك ذنبنا ! ! »

فاجابه مرتين وهو يهز راسه ويمشى ولا يلتفت اليه : « صدقت ايها الملك ، ان الذنب ذنبى والخطأ كله خطئى ، وكل هذه الشرور من نتائج اعمالى . لانى لو لم اسيء الى بنت صاحب سبتة لم يكن والدها عونا للعرب على فتح بلادى ! » . ثم وقف بغتة وحول وجهه اليه وقد اشتد غيظه وارتعدت اطرافه وزاد لسانه لعثمة وتمتمة وقال : « تخطىء يا رودريك ثم تلصق الخطأ بشيبتى ! ثم اذا اهين الاساقفة لايهمك الدفاع عنهم وهم الذين ولوك هذا المنصب ونصروك وعضدوك ! الم يكونوا هم الذين دافعوا عنك بالامس وسط المجمع واتهموا رجلا بريئا بتهمة لا اصل لها ! ثم تقول انى كنت سببا فى خسارة ذلك القائد ، وانت انما خسرته بسوء تدبيرك وانهماكك فيما لا ينفعك .

وبسوء تدبيرك خسرت ايضا الاب مرتين الذى لم يكن يبغى الا نفسى

تعبه في مصلحتك ودفاعه عنك ! » . قال ذلك والتف برادائه وخرج من القصر ، فلما خلا رودريك بنفسه ، وتصور عظم الخطر المحدق به جلس على كرسيه والقى راسه على كفيه . وراجع ما مر به من الحوادث في الاشهر الاخيرة ، وتذكر فلورندا ووالدها فتحقق لديه ان يوليان انما انحاز الى العرب غضبا لها . فاشتد حنقه وتراكمت عليه الهواجس ، وعظم عليه الامر خصوصا بعد ان فقد قائده واساء الى قسيسه

□

واتفق وصول الرئيس سرجيوس في اليوم الثاني من هذا الخصام ، فنزل في الكنيسة الكبرى على عادة الاساقفة ورؤساء الاديار اذا جاءوا طليطلة . فعجب لوجود الاب مرتين بها وعهده به في قصر الملك . فسلما وتخاطبا مليا في شؤون مختلفة والرئيس يستطلع ما في نفس مرتين . وكان الاب مرتين على كبر سنه حاد المزاج سريع التأثر ، متسرعا فيما يخطر له كما تبين لك من وصف اخلاقه ، فلم يخف على سرجيوس شيئا مما وقع بالامس له وللكونت كومبس . وحملته حدة مزاجه وتسرعه على الايقاع برودريك والتنديد بفساد رايه كانه من الد اعدائه . وهو انقلاب غريب لا يحدث الا في اصحاب المزاج العصبي او الدموي الحاد

اما سرجيوس فقد جاء طليطلة وهو لا يتوقع سبيلا الى مقابلة اوباس او انقاذه ، فلما لقي مرتين هان عليه ذلك فذكر اوباس بين يديه وزعم انه سمع بسجنه . فلما سمع مرتين اسم اوباس تذكر ما كان من اعتدائهم عليه وانه سجن ظلما او على الاقل اسيء اليه بتهمة لم تثبت عليه . ونظرا الى غضبه على رودريك راى في انتصاره لاوباس ما يشفي بعض غليله انتقاما من ذلك الملك ، فقال لسرجيوس : « ان اخانا اوباس سجن لتهمة اتهمه بها رودريك وقد حوكم فلم تثبت عليه التهمة ، فاجلت المحاكمة وسجن الى اجل غير مسمى ريثما تعاد محاكمته . ولكن يظهر ان الملك لن يطلب العودة اليها »

فقال سرجيوس : « وهل تظن انه يبرأ اذا استأنفوا محاكمته ؟ » . قال : « لا ريب عندي في ذلك » . قال : « ولماذا لم يطلب الاستئناف ؟ » . فابتسم مرتين وهز راسه وهو يقول : « وكيف يطلب ذلك وهو محجور عليه في غرفة لا يرى فيها احدا ، لان رودريك منع الناس من الدخول ؟ » الدخول ؟ »

فقال : « وهل من سبيل الى رؤيته بغير اذن الملك ؟ » . فقال

مرتين وهو يبتسم : « ان ذلك هين علي . فهل ترى ان نحرض الفتى المذكور على طلب الرجوع الى المحاكمة ؟ »

قال ذلك لارغبة في نصرة اوباس ولكنه كان يتوقع الا تغيب الشمس قبل ان يبعث اليه رودريك ليستشيره . فلما اصبح الصباح ولم يأته من قبله احد اشتد حنقه . فلما خاطبه سرجيوس في شأن اوباس اراد ان يستنهضه لاستئناف محاكمته لاعتقاده ان رودريك يخاف ذلك الطلب ، خصوصا بعد ما ظهر من غضب يوليان وكومس . فلا يرى له مندوحة عن استرضائه لانفاذ الامر

اما سرجيوس فاستبشر بما سمعه وقال : « اذا ادخلتني اليه نبهت ذهنه الى ذلك » . فنهض مرليق للحال واتى بدواة وقلم وكتب رقعة الى الضابط الموكل بحراسة اوباس ان يأذن للرئيس سرجيوس بمقابلته . فاخذ سرجيوس الرقعة وهو لا يصدق انه قبض عليها وسار مسرعا الى اوباس

واما اوباس فكان ما يزال في سجنه وقد قطعوا كل علاقة بينه وبين سائر العالم . وهو يتلقى ذلك بصدر رحب ويغالب المصائب بالصبر ، ولم يكن يشعر بوحشة الانفراد لما في ذهنه من الموضوعات التي لا يستطاع التأمل فيها الا باعتزال الناس . وكان اذا فكر فيما سجن من اجله اشفق على رودريك وامثاله لما هم فيه من الغرور ، ولما يرتكبونه من السيئات المهلكة التماسا للذة وقتية او سعيا وراء وهم زائل . فكانت هذه التأملات وامثالها في غرائب ماجريات الطبيعة تستغرق منه الساعات والايام ، وهو سابح في عالم الفلسفة يحسب نفسه في نعيم وسائر الناس في شقاء ، لولا ما كان يعترض تأملاته من امر فلورندا والفونس . وان كان قد وكل امرهما الى الله اذ لا حيلة له في مساعدتهما او في معرفة السبيل اليهما

فلما كان اليوم الذي جاءه فيه سرجيوس دخل عليه حارسه وقال له ان رئيس دير الجبل يريد مقابلته . فلما سمع اسم ذلك الرجل عرفه وخفق قلبه خفوق البغتة لطول عهده بالاعتزال ، واذن له وهو يستغرب مجيئه وحصوله على الاذن في الدخول عليه . وكان سرجيوس يتوقع ان يرى تغييرا في سحنة اوباس بعد ما سمعه من طول سجنه . فلما دخل عليه رآه مقبلا لاستقباله بثوبه الكهنوتي — لانه لم يبدله منذ اقام هناك الا قلنسوته فلم يكن يلبسها — فمشى الى سرجيوس وشعره مرسل على ظهره وكتفيه وقد زاده مقامه في تلك الخلوة هيبة وجلالا

فلما بلغت الاعتبار أسرع سرجيوس وأكب على يد أوباس كأنه يريد تقبيلها فمنعه من ذلك وعانقه وضمه إليه . ثم تصافحا وسرجيوس لا يستطيع إمساك دمعه ، وأوباس ينظر إليه ويده على كتفه لطول شوقه بالأنس إليه . ثم دعاه للجلوس فجلسا على مقعد متحاذيين وسرجيوس يتهيب الكلام فسبقه أوباس قائلاً : « أهلاً بصديقي وأخي سرجيوس ... من أين أنت آت الآن ، ولماذا ؟ »

قال : « أتيت من دير الجبل ولا غرض لي إلا رؤية الأسقف أوباس فأحمد الله على سلامته . ولا بأس مما قاسيته من البلاء ، فإن الله يجرب خائفيه »

قال : « أنت من أهل العلم والحكمة وتحسب انتقالي إلى هذه الغرفة بلاء ؟ أليس الناس جميعاً محبوسين على هذه الأرض ، وآجالهم قصيرة ، وقواهم محصورة ، وأعمالهم لا تملأ أفئدتهم ؟ وهل من فرج إلا في العالم الباقي لمن أحسن عملاً ؟ وأما أهل الظلم فإنهم يشقون في الدنيا والآخرة . فلا تشفق على سجين بريء الساحة نقي السريرة . فإن سجنه وإن طال قصير . ولكن ابكِ أناساً منحهم الله السلطة على إخوانهم من بني الإنسان ليحكموا بينهم بالعدل ، ويكونوا عوناً لهم على دنياهم . فظلموا وأساءوا إليهم ، واهرقوا دماء الألوف منهم في سبيل لقمة يلتهمونها أو لذة يتمتعون فيها ، وأولئك إنما يظلمون أنفسهم ولا يعلمون ... فإن ذلك سجن أبدي ، لا يتخلله انفراج ولا هدنة ، ولا شيء من عواقب الانغماس النفساني » . فأدرك سرجيوس ما سمعه من الحكمة والموعظة على أنه أراد أن يدخل في المهمة التي جاء من أجلها فقال : « لقد صدق مولاي ، ولكن الله ... ما يعانيه الظالمون ويحسب المحسنين في هذه الدنيا ليكونوا عبرة للسامعين . وقد انبثقت الآن أحوال جديدة لا ريب أنك مشتاق للاطلاع عليها ألا تريد الاطلاع على ما كان من أمر فلورندا بعد فرارها من بين يدي رودريك ! »

فلما سمع أوباس ذلك تحركت فيه عواطف الحب ، وبدا الاهتمام في وجهه ، ونسي ما كان من فلسفته واستخفافه بحوادث الطبيعة والإنسان مهما يكن من تعقله وزهده لا يلبث أن تحركت فيه عواطف الحب إلى ... الحياة وأهلها . فقال : « وهل تعلم شيئاً عنها ، وأين هي ؟ »

قال : « هي في دير الجبل » . ثم قص عليه ما علمه من خبر خروجها من قصر رودريك في طليطلة حتى أتت الدير ...

قال : « وهى مقيمة عندنا فى امان وسكينة . ولكنها فى قلق شديد عليك وعلى الفونس لانها لا تعرف مقره . ولو عرفته لا تستطيع الذهاب اليه . لما اقامه رودريك فى سبيلها من العيون والأرصاد » .
فاطمأن بال اوباس على فلورندا ولكن ساءه تضييق رودريك عليها فقال : « الا يزال هذا الرجل يتعقب هذه الفتاة ويضيق عليها ؟ » .
فابتسم سرجيوس وقال : « ولكنه لا يلبث ان يقع هو و الصبى ويعرج عن الناس كافة ، خصوصا انت » . ورأى اوباس فى عينى سرجيوس ما يدل على امور مهمة يريد التصريح بها فتدنى الاهتمام وقال : « وكيف ذلك ؟ » .
فمد سرجيوس يده الى جيبه واستخرج كتاب يوليان وهو لا يزال فى انبوبته وقال : « لما خرجت فلورندا من طليطلة كما قصصت لسيادتك لم يسعها الا ان تكتب الى ابيها كتابا تشكو فيه ماحل بها من الشقاء فى قصر رودريك وما أراده منها . وبعثت بالكتاب مع أجيلا فجاءها جواب حاسم لما نحن فيه . واليك هو » . ودفع الانبوبة اليه ، فتناولها اوباس واستخرج منها الكتاب ملفوفا وفضه وقرأه واعاد قراءته وسرجيوس ينظر الى ما يبدو من اثار ذلك فى سحنته فلم ير تغييرا يذكر . فلم يستغرب ذلك لانه من جملة ادلة رباطة الجأش وسعة الصدر . ولكنه توقع ان يسمع ما يدله على ذلك الاثر فاذا هو يقول : « هل زادكم اجيلا ايضاحا ؟ »
قال : « نعم . انه رأى جند العرب بنزول شواطىء اسبانيا و يوليان معهم يدلهم على عورات البلاد » .
قال : « وهل علم رودريك بذلك ؟ » . قال : « نعم جاءته الاخبار منذ ايام فلم يعبأ بها ولا اطلع اهل مجلسه عليها ، فآل ذلك الى زيادة الخرق اتساعا وبات رودريك فى اشد الضيق واصبح خروج الملك من يده امرا محتوما » .
فقال اوباس : « وما سبب هذا الانقلاب ؟ » . قال : « لان الكونت كوميس قائد الجند العام علم بنزول العرب شواطىء اسبانيا من اناس اتوا طليطلة من هناك ، وتحقق ان رودريك اخفى ذلك الخبر عنه فعاتبه فى مجلس حضره كبار الموظفين ، فآلت المعاتبة الى المنافرة . فخرج كوميس من الجلسة غاضبا من رودريك ومن قسيسه مرتين . وبعد انفضاض المجلس عاتب رودريك قسيسه ، فخرج هذا واقام فى الكنيسة الكبرى حيث لقيته وفهمت منه انه ناقم على رودريك . وساعدني من اجل ذلك فى الوصول اليك برقعة كتبها الى الحارس .

ويرى الأب مرتين انك لو طلبت استئناف النظر فى قضيتك لا ريب فى خروجك بريئا . وفى كل حال فان الله رد كيد الظالمين الى نحورهم . وهذا رودريك قد هجره قائد جنده واخص اخصائه وبات هزءا بين الناس . الا ترى ذلك من تدبير العزيز الحكيم ؟ ! »

وكان سرجيوس يتكلم ويتفرس فى وجه اوباس ليتبين ما يبدو فيه . واوباس مطرق يمشط لحيته بانامله وهو مستغرق فى الافكار وقد قطب حاجبيه وبان الاهتمام فى عينيه . فلما فرغ سرجيوس من الكلام رفع اوباس بصره اليه وهو لا يزال مستغرقا فى الافكار وجعل يحدق ببصره فى وجه سرجيوس كأنه يستطلع ضميره . فلم يستطع سرجيوس احتمال اشعة تينك العينين أو الصبر على التحديق فيهما وهما كأنهما منفذ للسيال الكهربائى المتولد فى الدماغ من اعمال الفكر . فكلما زاد الدماغ عملا زاد ذلك السيال غزارة . وظل كلاهما صامتا بضع دقائق ، ثم تكلم اوباس قائلا : « اتستحسن الانتقام من رودريك فى هذه الفرصة ؟ » . فقال سرجيوس : « وهل نتوقع فرصة اثمن منها وهو الآن متضعضع الاحوال . اعداؤه يهددونه واصدقاؤه يتوعدونه ؟ »

فنهض اوباس وجعل يخطر فى ارض الغرفة ذهابا وايابا واناملة فى لحيته يمشطها ، وشعر راسه يجلل كتفيه . وقد زاده السكوت وقارا وهيبة . وسرجيوس ينظر اليه ولا يتكلم . ثم وقف اوباس بغتة امام سرجيوس فنهض هذا واصغى استعدادا لما سيقوله ، فاذا هو يقول : « امن المروءة يا سرجيوس ان نغتنم ضعف عدونا ونحمل عليه وهو فى اشد الضنك ؟ وهل من الحكمة والتعقل ان نساعد الغريب على القريب ؟ ان رودريك مهما قيل فيه فهو منا ونحن منه ، نشرب من ماء واحد . ونقرأ فى كتاب واحد ، ونتكلم لسانا واحدا ، ونصلى صلاة واحدة . ونتناول القربان المقدس من كاس واحد ، ونجتمع فى كنيسة واحدة . فكيف نغتنم ساعة ضعفه ، ونعين عليه اناسا لا نحن منهم ولا هم منا ، ولا دينهم من ديننا ولا وطنهم وطننا ؟ زد على ذلك ان الانتقام من رودريك فى هذه الفرصة يجر البلاء على كل بلاد الاسبان اذ نخرجها من حضن دولة ربتها وعاشرتها ، الى دولة جديدة لا نعرف شيئا عنها . ولا ندرى ما يصير اليه امر هذه البلاد اذا فتحها العرب . الم يسفك اجدادنا دماءهم فى فتح هذه الجزيرة واستثمارها ، فكيف نسلم بذهابها هدرا ؟ !. اما ما فى انفسنا من انكار حق رودريك فى الملك فانما هو من قبيل ما يحدث من التنازع

بين الاب واخيه او الاب وابنه . فقد يجوز ان يستعين احدهما على الاخر بامة غريبة [illegible] وطمعا وخطاء وان ما ارتكبه رودريك من الخطف في [illegible] من [illegible] ما يطلبه . وانه يتولى امره . فصحي [illegible] في موقف يقتضي ان نسد فيه الشقاق . ونحتد على [illegible] وعلى سلامة المملكة . ويجب ان نغضي عما اساء به [illegible] انما نغضي [illegible] الى رودريك [illegible] [illegible] . قال ذلك ومشى الى [illegible] فقد [illegible] [illegible] وهم بالخروج وقد ظهر [illegible] في وجهه . [illegible] لا سبيل الى خروجه الا باذن الملك !

[illegible] ذلك الخطاب [illegible] [illegible] حتى راى [illegible] امامه [illegible] [illegible] من طينة [illegible] [illegible] [illegible] لحيته [illegible] وقال [illegible] [illegible] انما انت ملك [illegible] ! لقد [illegible] [illegible] لا [illegible] . فانا تابع لك فيما تستنبطه [illegible]

[illegible] ذلك [illegible] [illegible] حتى [illegible] انه لا [illegible] الخروج [illegible] [illegible] ذلك [illegible] [illegible] [illegible] عليه [illegible]

[illegible] رودريك ملك [illegible]

[illegible] لا [illegible] ولا [illegible] [illegible] المملكة [illegible] [illegible] الكلام [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] الى الملك [illegible] [illegible]

[illegible] رودريك [illegible] في ذلك اليوم [illegible] في امره [illegible] [illegible] ولا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] خادمه الخاص [illegible] [illegible] انه [illegible]

ولما فرغ من ذلك أمر ان يكتب باستقدام اوباس محفورا وخرج لانتظاره في قاعة المجلس

وبعد هنيهة دخل اوباس بقدم ثابتة وجاش رابط فلبث رودريك صامتا ساكنا ليرى ما يبدو منه . فبدا أوباس بالكلام قائلا : « انى لم آتك لعتاب او توبيخ . انما جئت لأمر يتعلق بمصلحة المملكة على اثر ما بلغني من نزول العرب في شواطئها وعزمهم على فتحها . وان قائد جندك اغضب نفسه واغضبك . واغتنم سانحة حاجتك اليه وهجرك ، وهو ضعف شبه ضعف يوليان صاحب سبتة فانهما غضبا من أحد رجال القوط فعمدا الى الانتقام من المملكة كلها ، ومن نفسيهما لأنهما من افرادها ! على ان خطأهما لايبرىء الملك من الخطأ الذى اقترفه مما لا نخوض فيه الآن » . قال ذلك بسكينة ورزانة والجد باد في وجهه . فاستغرب رودريك ما سمعه وارتاب في اخلاص اوباس . ولم يتصور مثل هذه المناقب لبعدها عن مناقبه — كما يستبعد الشهم الوفي وجود أناس يكافئون على الحسنة بالسيئة — فاراد ان يتبين حقيقة مراد اوباس فقال : « وما الذى تراه ؟ »

قال : « لقد احسنت في اقتصارك على الموضوع الذى نحن فيه . فالذى اراه ان تبعث الى الكونت كوميس والى الاب مرتين . فاذا حضرا اوبخهما واحرضهما على الرجوع اليك والعمل معك في انقاذ هذه المملكة من غارة المهاجمين ! » .

فامر رودريك بعض الحرس ببابه ان يذهب في استقدامهما حالا . فسار الرجل واشار رودريك الى اوباس بالجلوس وهو لايصدق انه يقول ما يقوله عن اخلاص وحمية . وظل صامتا يخاف ان تبدر منه بادرة يلام عليها لان اوباس بهره بمروءته وجسارته . واما اوباس فجلس ولم يعبأ بمن في حضرته . وبعد قليل عاد الرسول وآتيا الملك بقرب مجيئهما . ثم اقبل كوميس فحيى باحترام وجلس باشارة الملك وقد استغرب وجود اوباس هناك . ثم جاء مرتين وعجب حالما وقع نظره على اوباس . اما اوباس فالتفت الى رودريك واستأذنه في الكلام فاذن له فوجه كلامه الى كوميس قائلا : « قد بلغني يا حضرة الكونت انك خرجت بالامس من مجلس الملك غضبا ، فكيف انت الان ؟ »

فقال : « لم اغضب من جلالة الملك الا غيرة على المملكة . ولكني لم ابلغ منزلي واخل بنفسي حتى رايتني مخطئا في عملي لاننا في حالة تدعو الى الاتحاد لدفع الاعداء »

ولم يتم كلامه حتى ابتدره اوباس قائلا : « عوفيت من شهم صادق .

ذلك رجائي فيك لعلمي بحدة مزاجك ، وحاد المزاج سريع الرجوع الى الصواب » ثم التفت الى مرتين وكان جالسا مطرقا وقال : « ولا اظن الاب مرتين الا فاعلا مثل ذلك ايضا » . فظل مرتين مطرقا ولم يجب . فالتفت اوباس الى رودريك وقال : « لاريب عندي في رغبة قداسة الاب في الوفاق والوئام ونبذ البغضاء عملا بوصية السيد المسيح . ولذلك فاننا لا نطيل الكلام في هذا الشأن بل نبادر الى العمل . فيامر جلالة الملك بعقد المجلس من كبار الدولة للنظر في الوسائل اللازمة »

فرفع مرتين راسه عند ذلك ووجه خطابه الى الملك قائلا : « كيف تبرمون مثل هذا الامر قبل عرضه على مجمع الاساقفة ، وجلالة الملك يعلم ان قوانين المملكة تقضي بذلك ؟! »

□

ولم تكن تلك القوانين خافية على اوباس ولكنه اراد السرعة لأن جمع الاساقفة يستغرق بضعة اسابيع . على انه خاف اذا انكر جمعهم ان يفسد مرتين ما اصلحه فعذر الرجل على نصه فقال : « لم اطلب ابرام شيء دون راي المجمع . ولكنني اردت التئام مجلس الملك للبحث فيما يعرضونه على المجمع » . وقد فاته ان مرتين انما اراد عرض ذلك على المجمع ليشكو اليه خروج اوباس من السجن ، لانه اغتاظ من جلوسه في حضرة الملك ، وزاد غيظه لما رآه جالسا مجلس المسيح !

فاستحسن رودريك عقد مجلسه فبعث اليهم وهم الكونتيه الذين تقدم ذكرهم فحضروا . وقبل عقد الجلسة طلب الكونت كوميس الجري في عقدها على القوانين الرسمية وهي تقضي باخراج مرتين منها لانه ليس من رجال الدولة فخرج وهو يتميز غيظا !

فلما التأمت الجلسة وقف اوباس ورفع يده وبارك وصلى صلاة حارة شفعها بالتوسل الى الله تعالى ان يجمع قلوب القوط ليتحدوا على حماية بلادهم ، ثم خاطب الحضور قائلا : « انتم تعلمون الاساءة التي لحقت بي من جلالة الملك ومن مجلس الاساقفة حتى سجنوني سجن المجرمين شهرين كاملين لم ار في اثنائهما غير الموكل بحراستي . وقد حكموا علي بذلك لغير ذنب اقترفته ، ومع ذلك فحالما علمت بما يهدد المملكة من الاخطار استاذنت في مقابلة الملك ، وعرضت نفسي للعمل في جملة العاملين على انقاذها . فاحرى بكم ان تكون رغبتكم في ذلك وانتم رجال الدولة ومديرو شئونها ؟ ولست انبهكم الى امر

تعلمونه ، ولكنني ابث لكم عواطفي في هذا الشأن واني أصغر العاملين في هذا السبيل »

فقال الكونت كوميس : « ان شهامة اوباس ومروءته وتعقله اشهر من ان تذكر ، ولكننا لم نكن نحسب في البشر مثل هذه العواطف . فكيف نرى ما سبقنا به هو ولا نتفانى نحن في خدمة الملك ! ولكنني لا ارى تأجيل العمل الى اجتماع الاساقفة لئلا يضيع الوقت بلاطائل »

فقال اوباس : « ولكن لابد من استشارتهم في مثل هذا الامر وهم كما لايخفى اصحاب الفضل الاكبر في تنظيم هذه الحكومة ووضع قوانينها واحكامها وتدبير شئونها »

فقــال رودريك : « لايمكننا القطع في التجنيــد والمحاربة الا بعد مشورتهم »

فقال كوميس : « لاباس من استشارتهم . ولــكن الوقت قصير والفرصة ثمينة »

فخاف اوباس ان يحتد كوميس فيذهب سعيه سدى وتذكر ان مرتين خرج من الجلسة حاقدا ، وخاف اذا لم يسترضوه ان ينقلب عليهم ويهيج الاساقفة على الملك . فتنقسم المملكة على نفسها وتكون المصيبة الثانية شرا من الاولى ، فعمد الى ملافاة ذلك قائلا لكوميس : « اراك ضيقت الفرصة ودققت في الطلب . فالاساقفة كما قلت لاباس من استشارتهم بل ارى احترامهم واجبا لانهم واضعو اساس هذه النظم كما تعلم ، فضلا عما قد يترتب على نصائحهم من الفوائد . زد على ذلك ان الاتحاد يقضي علينا باستشارتهم لان غضبهم يفضي الى الشقاق لا محالة . ولا يخفى عليك ايضا ما يترتب على ذلك من ضياع النتيجة التي انما نسل سيفك ونشحذ قريحتك في سبيل الوصول اليها . فرجائي فيك ان تتلافى هذا الخطر ولا شك عندي انك متلافيه فالتمس ان تبدا بذلك من هنا ! واشار الى باب القاعة حيث خرج مرتين ، لان حضرة الاب اذا رضي هان الامر » . ثم وجه كلامه الى رودريك وقال : « هل ياذن مولاي في استقدام الاب مرتين ليحضر هذه الجلسة ونجعل له حظا من هذا البحث ؟ »

فكان كلام اوباس نافذا بلا مراجعة لانه بهرهم بما اتاه من الحمية والمروءة . فضلا عما فطر عليه من قوة العارضة . فامر رودريك باستقدام مرتين وكان منفردا في بعض غرف القصر . فلمــا دخل وقف اوباس وبش له وقال : « ليس فينا يا حضرة الاب من يجهل حق سيادة الاساقفة في شئون مملكة القوط ، ولكن ولدنا الكونت

لانه رجل حرب يحب المبادرة ، وغيرته على صيانة هذه الدولة هي التي حملته على التسرع . وهو مصيب بالنظر الى قوانين الحرب . ولكنني ارى راى حضرة الاب بالنظر الى وجوب استشارة الاساقفه على اني اخاف ان يدعو ذلك الى التأخير فتفوت الفرصة ويذهب سعينا ضياعا ، ولا اظن السادة الاساقفة اذا اجتمعوا واستشيروا يشيرون بغير المبادرة الى الحرب . بل احسبهم يلوموننا على تأخير التجنيد الى اجتماعهم . فالذي اراه — والامر لجلالة الملك — أن نبدأ بالتأهب للحرب ومخابرة الاطراف في حشد القوات والاموال . ونبعث الى الاساقفة فنجمعهم ونتلو عليهم قرار هذا المجلس . او نبعث اليهم بخلاصة اعمالنا وهم في ابرشياتهم لأننا احوج اليهم الآن هناك . واذا اذن لي الملك قلت كلمة في هذا الشأن ، والرأى راجع اليه في كل حال ، ذلك اني ارى أن ينتدب قداسة الاب مرتين لينوب عن جلالته في تبليغ الاساقفة قرار هذه الجلسة . واذا رأيتم اني اليق بهذه الخدمة قدمت نفسي لها ، او كما تشاءون ».

فلما فرغ اوباس من الكلام لم ير مرتين سبيلا للرد عليه لعلمه ان امر المجلس نافذ لا محالة . وقد اعجبه رأى اوباس بانتدابه لمخابرة الاساقفة ليتمكن من بث ما في نفسه اليهم . لكنه اساء الظن في ذلك الانتداب وظن اوباس انما يريد ابعاده عن مجلس الملك ، او أن يعد هو من محبيه لقربى له . وكلا الامرين لم يرضه . فلم ير خيرا من قبول قرار المجلس . وعمد الى المغالطة فقال وهو يحاول كظم غيظه من تغلب اوباس على رأيه : « لا اظن حضرة الملك يسيء الظن بقصدي اذا التمست جمع الاساقفة فانه طلب قانوني . واما الحرب فانها كما قال اخي اوباس تدعو الى العجلة ، وللملك أن يبلغ الاساقفة بالطريقة التي يختارها . واما انا فاني اعد تلك المهمة شرفا لي ولكنها تبعث الى التطويل لما يقتضيه ذلك من الانتقال من ابرشية الى اخرى . وكذلك انتداب حضرة الاسقف . فالانسب أن ينتدب جلالة الملك من يشاء من حاشيته ويبعثهم دفعة واحدة فيصل الخبر الى السادة الاساقفة في وقت معا ».

ولم يجهل اوباس ما ينطوي تحت تلك اللاينة من الكظم والحقد . ولكنه تجاهل رغبة في النتيجة ، واغضى عن كل سيئة في سبيل الوصول اليها ، فابدى استحسانه لموافقة مرتين والتفت الى رودريك وهو يبتسم وقال : « لقد تم الاتفاق بحول الله . فما على جلالة الملك الا

والناقم . لاختلاف الاحزاب وتضارب الاغراض

اما اهل دير الجبل فقد كانوا يسمعون الاخبار وهم يرون الخطر بعيداً عنهم لبعدهم عن ساحة الحرب . وفلوريندا قد تراكمت عليها الهواجس والخوف على ابيها وخطيبها . لا تدري هل تسير الى احدهما . او كليهما . او تبقى في ذلك الدير ؟ وكانت ترجح بقاءها هناك على رجاء ان يبعث والدها فيستقدمها كما قال . فلما اقبل الصيف اصبح دير الجبل عليل النسيم عذب الماء نشيط الهواء وقد اكتست اوديته حلة خضراء

ففي يوم من ايام يوليو استيقظت فلوريندا مبكرة وهمت بالخروج من الدير للتمشي في بساتينه على عادتها . ولكنها قبل ان تخرج جاءها اجلا يدعوها الى الرئيس . وكانت قد مضت مدة لم يدعها اليه فاختلج قلبها واسرعت حتى اقبلت على غرفته . فرأت عنده كهلا لاتدل سحنته على انه من القوط او من الرومان . ورأت عليه لباساً تذكرت انها كانت ترى مثله وهي عند والدها في سبتة . ولما دنت من الرجل رأت آثار السفر على وجهه بما غشي لحيته وشاربيه من الغبار . حتى حاجبيه واهدابه فان الغبار غلب على لونها جميعاً . فتوسمت فلوريندا من ذلك القادم خبراً جديداً فدخلت وحيت فرحب بها الرئيس وقال : « هذا رسول من ابيك »

فلما سمعت ذلك خفق قلبها وتوردت وجنتاها والتفتت الى الرجل وقالت : « ما وراءك ؟ » . قال : « اني من اصدقاء ابيك ومحبيه والمطلعين على اسراره . وقد علمت بكتابك اليه وما ترتب على ذلك كله من الانقلاب . الا تعرفيني يا فلوريندا ؟ »

فلما سمعت فلوريندا صوته وتأملت ملامحه تذكرت انها شاهدته غير مرة في صباها وانه كان كثير التردد على بيت والدها في سبتة . فاستعطاها الرجل وقال : « الا تعرفين سليمان الساحر ؟ »

فابتسمت سروراً وقالت : « انت سليمان ؟ . نعم اعرفك جيداً وكنت تتردد وتحمل الينا الهدايا والاحمال وتبتاع لنا الاقمشة والثياب . هل انت آت من عند والدي ؟ واين هو الآن ؟ »

قال : « هو مع جند العرب على مقربة من وادي لكه »

قال ذلك واستأذنها بعينيه هل يقول كل شيء في حضرة الرئيس فاجابته بالاشارة ان يفعل فقال : « وقد اوغلوا في بوتيكة ولم يلقوا معارضة الا قليلا . وقد عدهم اهل البلاد رحمة ولا يلبثون ان يملكوا البلاد كلها »

فغضب الرئيس وقال : « وماذا جرى لجند الاسبان ؟ »

قال : « لم يلتق العرب برودريك بعد . ولكننا سمعنا بخروجه من طليطلة بجند كثيف وسيعود خاسرا فاشلا » .

فظهرت البغتة على وجه الرئيس وقال : « هل تعتقد ذلك ؟ وكيف تكون حالنا اذا صح قولك ؟ »

قال : « تكون أحسن مما أنتم عليه الآن . لأن العرب اذا فتحوا بلدا قلما يتعرضون لأهله في شيء غير ما يفرضونه عليهم من الجزية أو الخراج . واما الرهبان وجماعة الاكليروس فانهم معفون من كل ضريبة يقيمون في اديارهم مستكنين امنين . ذلك ما شاهدناه بأعيننا في البلاد التي فتحوها في مصر والشام » .

فأطرق الرئيس وسكت . فقالت فلورندا : « وما الذي جئت به الآن ؟ »

قال : « كلفني مولاي الكونت والدك ان اتى لأتفقدك . واذا اردت الذهاب اليه سرت في خدمتك » .

فانبسطت نفس فلورندا لذلك وقالت : « الا تخاف علينا بأسا في اثناء الطريق ؟ » . قال : « لابأس علينا من أهل اسبانيا ونحن منهم . ولا من الملك وهو في شاغل من نفسه وجنده » . فالتفتت فلورندا الى الرئيس كأنها تستطلع رأيه فقال : « اذا لم يكن بد من ذهابك فهذه فرصة لاتضيعيها . ونحن ندعو لك بالوصول الى والدك سالمة » . فعادت فلورندا الى خالتها واستشارتها . فأشارت عليها بالذهاب . وتأهبوا في الغد وسافروا ودليلهم سليمان ومعه اجيلا وشانتيلا . واما فلورندا فطلبت الى سليمان ان يمروا في طريقهم باستجة . فساروا أياما لايمنع سيرهم نوء ولا مطر . والارض كلها مكسوة بالاشجار والاعشاب والطقس جميل حتى اطلوا على استجة . فخفق قلب فلورندا عند مشاهدة تلك المدينة وكانوا قد اشرفوا عليها من مرتفع فرأت كنيستها فتبركت بها عن بعد . وجعلت تناجي نفسها من مقر الفونس فلم تجد بدا من سؤال سليمان فقالت له : « اذا انفذ رودريك جندا الى مدينة مثل استجة فأين يقيم ؟ »

فقال لها : « أظنك تبحثين عن مقام الامير الفونس ؟ »

فبغتت فلورندا وقالت : « نعم . وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال : « عرفته منذ بضعة اشهر . اذ جئت هذه المدينة وبلغني قدوم الامير وجنده . وكانوا يقيمون في هذه القلعة قرب الجسر . هل أبحث عنه هناك ؟ »

فاستأنست به فلورندا وقالت : « افعل يرحمك الله ، وأتنا بالخبر »

فركب وتحول بأسرع من لمح البصر وترجلت فلورندا وخالتها ونزلوا جميعا ينتظرون الخبر وفلورندا تمني نفسها بملاقاة الفونس ، وكلما تصورت انها لقيته يختلج فؤادها وهي لا تزال تذكره كما شاهدته لآخر مرة في حديقة القصر في طليطلة وعليه لباس الشتاء والفرو والمنطقة . وقد خرج من الحديقة مسرعا مبهوتا عند سماعه الصفير . ولم يطل زمن اضطرابها وهواجسها لأن سليمان عاد مسرعا فلما رأته مقبلا شخصت اليه ببصرها وقد منعها الحياء من مبادرته بالسؤال قبل وصوله . فلما وصل ابتدرها قائلا : « لم اجد احدا في القلعة »

قالت : « ألعلهم لم ينزلوا فيها ؟ »

قال : « لاريب عندي انهم كانوا نازلين فيها وقد سألت بعض حراس القلعة فاخبرني ان رودريك بعث الى مولاي الامير الفونس ان يوافيه الى وادي لبته بمن معه من الجند لملاقاة العرب »

فبغتت فلورندا واطرقت وهي تتجلد وتمسك عواطفها بين يدي ذلك الرجل . ولكنها استحسنت قلقه الدال على الفونس لانه ذهب الى ساحة الحرب ، وهو في جانب وابوها في جانب ، واذا فاز الواحد غلب الآخر ، وكلاهما عزيزان عندها . وربما لم يفت سليمان ما مر بخاطرها من ذلك فقال لها : « اظننا نلاقي الامير الفونس في الطريق اذا اسرعنا . والا فاننا ملاقوه في وادي لبته . فاذا وصلنا الى هناك بحثت عنه واتيتك بما تريدينه »

فاطمأنت فلورندا بذلك الوعد واشارت الى الركب بالمسير فركبوا وساروا حتى تواروا عن استجة وقطعوا نهرها ، وما زالوا سائرين جنوبا وهم يمرون بالكروم والبساتين وكلما اقتربوا من وادي لبتة قل الناس العاملون في الحقول

وأقبلوا في صباح اليوم التالي على حرج رأوا فيها جماعة من اهل القرى يهرعون كأنهم يفرون من عدو لاحق بهم ، فقالت فلورندا في نفسها : « الظاهر اننا على مقربة من معسكر العرب او ان العرب قادمون » . فالتفتت الى سليمان واذا هو ينظر الى الافق ويتفرس كأنه يرى شيئا غريبا فنظرت فرأت غبارا يتصاعد فترجح عندها قدوم العرب فخفق قلبها وقالت لسليمان : « يظهر ان العرب قريبون منا . أليس ابي معهم ؟ »

فقال : « لا اظن القادمين عربا لانهم سائرون من الشمال الى

الحبوب » . ثم التفت الى احد المارة من الفلاحين وسأله عن سبب فرارهم فقال الرجل : « الا ترى جند الملك قادمين انهم اذا حلوا بمكان أوقعوا الاذى بالفقراء امثالنا . فلا يتركون ثمرا لا يقطفونه . ولا زرعا لا يدوسونه . ولو اكتفوا بذلك لهان علينا الامر ولكنهم يلحقون الاذى بالناس » . قال ذلك وسار مسرعا في طريقه لئلا يكون مخاطبه من حزب الملك فيقبض عليه !

وكانت فلورندا تسمع كلام الرجل وتأسف على تلك الحال . وارادت ان تعلم اذا كان الملك نفسه مع ذلك الجند فقالت لسليمان « وهل تظن رودريك مع هذا الجند ! » . قال : « اظنه معهم » . فلما سمعت ذلك تصورت قرب الخطر منها . وسليمان يراقب ملامحها فلما راى اضطرابها قال لها : « لا تخافي يامولاتي فانك في امان . تعالي نختبيء في مكان ريثما يمر هذا الجند »

قال ذلك ومشى فتبعه الجميع حتى دنوا من خربة مهجورة فوق تل بعيد عن الطريق فدخلوها فقالت فلورندا : « اري ان اتنكر بثوب الرجال » . فاعطوها ثوبا من اثوابهم واعطوا مثله للخالة العجوز حتى لايشك من يراهم عن بعد انهم رجال . ثم احتجبوا في تلك الخربه وفلورندا شديدة الميل الى مشاهدة تلك الحمله فاصعدت الى شق أرسلت بصرها خلاله الى جهة الغبار فاذا هي بالبنود قد ظهرت والفرسان بينها عليهم الالبسة الملونة والدروع والخوذات في اواسط الحملة بنودا كثيرة قد تجمعت تحملها فرسان بالبسة مرسمه . وفي وسطهم موكب يتلألأ كالشمس فعلمت انه موكب رودريك . فلم تتمالك عن الاضطراب ولم يقترب الموكب من موقفها حتى اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها . ثم سمعت اشارة القصب فتجمعت وثبتت قدميها . ثم شغلها ما سمعته من قرع الطبول وحفق البنود وصهيل الخيل وقرقعة العجلات وعليها المؤونة والذخيرة . وضوضاء الناس وهم يمرون بين يديها . ثم اقبل الموكب ورودريك فيه على سرير بين نابتين بما يشبه الهودج . وفوق راسه مظلة من الديباج المزركش مرصعة بالدر والجوهر وفي مقدمتها صليب مغروس في احد اعمدتها . ورودريك جالس وعلى راسه التاج يتلألأ بالحجارة الكريمة وقد ارتدى وشاحا مزركشا وردي اللون وجعل جبته الملونة على عرشه ويده في لحيته وهو يجيل نظره ذات اليمين وذات الشمال ينظر الى جنوده وكثرة ما معه من العدة والرجال . وقد جلس معه في ذلك السرير الاب مرتين وهو يخضبه ويسير بيده . ورودريك

تنظر الى الاعلام المحيطة بموكبه ودلائل الاعجاب بادية في وجهه فلا تسل عن حال فلورندا لما وقع نظرها على وجه رودريك .
وكان سليمان واقفا بجانبها فلمـا مر الموكب التفت فرأى لونها من الخوف قد تغير . فأراد ان يشغلها عما بها فقال : « ما ظنك بعدد هذا الجند يا مولاتي ؟ »
قالت : « لا ادري ولكني اراه كثيرا . هل تظن جند العرب اكثر منه ؟ »
قال : « ان العرب لايزيد عددهم على خمس هؤلاء . ناهيك بما سينضم الى جند رودريك من الرجال قبل التقائه بالعرب خصوصا جند مولاى الامير الفونس فانه سينضم اليه » . فقالت : « اذن فالعرب في خطر وضعف ؟ » . قال : « لو كانوا ضعفاء ما استطاعوا دخول هذه البلاد فان القوة ليست في الكثرة وانما هي في الشجاعة . ان العرب يا مولاتي لايزيد عددهم في هذه الجزيرة على ١٢ الفا ومع ذلك لم يقف في سبيلهم احد »
فقطعت كلامه قائلة : « ولكنهم لم يلاقوا مثل هذا الجند بعد » .
قال : « هذا صحيح ولكنني رأيت من شجاعتهم واتحادهم وصبرهم مالا اخاف معه عليهم شيئا . ومع ذلك فان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء »
وفي اثناء هذا الحديث مرت بقيه الحملة فمكثوا هناك الى آخر ذلك اليوم . وخرج سليمان وحده للبحث عن المكان الذي نزل العرب فيه ثم عاد فأخبر فلورندا ان العرب نزلوا في وادي لبتة قرب مدينه شريش ، فقالت له : « وهل علمت بمعسكر الفونس ؟ » . قال : « هو على مقربة من ذلك المكان ، واذا شئت الذهاب توا الى مولاى الكونت والدك اوصلتك اليه حالا » .. فأصبحت فلورندا في حيرة لا تدري كيف تسير الى معسكر العرب قبل ان ترى الفونس وتدبر طريقة للاجتماع به او انقاذه . فلبثت صامتة فادرك سليمان سبب صمتها فقال لها : « يظهر انك تريدين البحث عن الامير الفونس قبل ذلك ، فاذا شئت فاني اعرف كرما من كروم شريش لعائلة من اهل هـذه البلاد ، وفي الكرم بناء مرتفع يطل على سهول شريش كلها ، وحيثما عسكر القوم رأيناهم . فتقيمين هناك مع خالتك والخادمين ، وامضي انا للبحث عن الفونس وآتيك بالخبر اليقين . او استشير والدك » .
فاستحسنت فلورندا رأيه وشكرته ، وساروا حتى اطلوا على مدينة شريش وحولها الكروم وفي جملتها كرم صاحبنا الشيخ والد مطرس

وهو الذي عناه سليمان فصعدوا اليه واخترقوه يلتمسون العريش فلم يجدوا في الكرم احدا . وكان سليمان لايمر من هناك الا ويرى الشيخ واولاده واحفاده يسرحون في الكرم للعمل او اللعب . فقال سليمان في نفسه ان لهذا سببا ذا بال . ومشوا حتى اتوا العريش في بعض اطراف الكرم وقبل الوصول اليه سمعوا صوتا يناديهم تعودوا سماع مثله من نواطير الكروم فتقدم سليمان ولم يبال حتى دخلوا العريش فرأى هناك الشيخ وكل ذريته معا ، والقلق باد في وجوههم اجمعين . فلما رأوه مقبلا ذعروا ، ونهض له بطرس فقال : « ماذا تريد ؟ » . ثم ما لبث ان عرفه فقال : « سليمان ؟ . مرحبا بسليمان التاجر ! » . وكان لذكر اسمه تأثير في سائر اعضاء تلك العائلة لانهم كانوا يسمعون به وبعضهم كان يراه عند قدومه الى شريش لابتياع الخمر في المواسم . وذهب عنهم بعض الاضطراب عند رؤيته — واهل القرى مهما بلغ من ذكائهم واقتدارهم فانهم يعتقدون فضل اهل المدن عليهم — فلما رآهم سليمان احتفوا به هذا الاحتفاء بالغ في ملاطفتهم وتقدم الى الشيخ فسلم عليه وسأله عن سبب انزوائهم في ذلك العريش في اثناء النهار والكرم لا يستغنى عمن يتعهده فقال الشيخ : « يظهر انك لم تعلم بما طرأ علينا » . قال : « اظنك تعني قدوم العرب » . قال : « نعم ولا ندري ما يؤول اليه حالنا بعد هذه الحرب . ورأينا بالامس جند الملك قد عسكر مقابل جند العرب ولا تلبث الحرب ان تنشب . وعندنا اطفال لا نستطيع الفرار بهم ولا نحن قادرون على ترك مغارسنا » . قال ذلك وصوته يكاد يختنق حنوا على اهله وولده

فابتسم سليمان وقال : « لا بأس عليكم يا عماه اني كافل لكم كل ما يحميكم ويحمي اولادكم من كل شر . ومعي اناس من اهلي سيقيمون عندكم الليلة . فهل من مكان لهم ؟ »

قال : « على الرحب والسعة » واشار بيده الى جهة مستودع الخمر في قمة الجبل . ثم هرول مسرعا ومعه بعض اولاده حتى اقبلوا على فلورندا ورفاقها فتناولوا ازمة الخيل وقادوها الى ذلك المستودع ، وكان بعضهم قد سبق اليه فكنسه ونظفه فصعدت فلورندا وهي لا تزال بلباس الرجال وصعدت خالتها وخادماها ثم سليمان . وظل اولاد الشيخ اسفل المكان ينتظرون . فنزل سليمان فدفع اليهم قطعا من الذهب وطلب اليهم ان يأتوهم بالطعام . واظهر السخاء فازداد اولئك الغلمان رغبة في خدمته

اما فلورندا فلما صعدت الى ذلك المستودع اطلت من بعض نوافذه فرأت تحت ذلك الكرم والى شرقيه سهلا واسعا على مدى البصر . يخترقه نهر على ضفتيه الاشجار والاعشاب . وفي احد طرفي السهل الى يمينها خيام على نمط لم تتعود مثله . وفي وسطها خيمة كبيرة حمراء اللون امامها علم كبير . وامام الخيام الاخرى اعلام اصغر منه . ورأت وراء تلك المضارب خياما منفصلة عنها وفيها الدواب وبينها الجمال وهي لم ترها من زمن طويل . فعلمت انها ترى معسكر العرب فتنسمت ريح والدها من هناك . وكان سليمان قد فرغ من صرف اولاد الشيخ وجعد فلما رآها قالت : « اليس هذا معسكر العرب ! »

قال : « بلى يا مولاتي . والخيمة التي ترينها في وسط المعسكر هي خيمة الامير طارق بن زياد . ومولاي الكونت يوليان والدك مقيم معه »
قالت : « وما تلك المضارب البعيدة ؟ »

قال : « هي اخبية النساء ومراتع الماشية . لان العرب اذا ساروا الى الحرب اخذوا معهم نساءهم واولادهم ومواشيهم ويجعلونهم وراءهم . فاذا ضعفوا في الحرب وحدثتهم انفسهم بالرجوع لقيهم اهلهم فيعودون وقد تشددوا وتحمسوا ! »

تحولت بنظرها الى السهل من جهة اليسار فرأت هناك خياما اخرى عرفت انها مضارب الاسبان ، وفيها خيمة رودريك وخيمة القومس. اما فسطاط رودريك فعرفته من كبره ومما فوقه من الاعلام والبنود وما امامه من الخدم والاعوان ، وان كانوا لا يظهرون لبعد المسافة . واما خيمة القومس فلم تستطع معرفتها لتشابه خيام القواد وهم كثيرون فاشارت الى خيمة رودريك وقالت : « اليست هذه خيمة الملك ؟ »

قال : « بلى واظنك تريدين معرفة خيمة الامير القومس فهذا لا سبيل اليه الا بالبحث . وقد تعودت البحث على ان ابحث عن ذلك بنفسي لما لوالدك من الفضل علي »

فشكرت له فضله ثم قالت : « ومتى تذهب للبحث ؟ »

قال : « في هذه الساعة بعد ان اهيئ لك ما تحتاجين اليه من الطعام . ولا بأس عليك هنا ومعك خالتك والشابان وهما نشيطان »

قالت : « ومتى تعود الينا ؟ »

قال : « اما الرجوع فلا يمكن تحديد موعده . وسأبذل الجهد في الاسراع » . وبعد ان دبر كل شيء ودعهم وسار والشمس قد دنت من المغيب

□

وكان سليمان كثير الاختلاط بالاسبان يتكلم لسانهم مع لسان القوط . وكان يعرف العربية والبربرية ويحسن التكلم خصوصا بالاسبانية والقوطية فاذا كلم احدا باحداهما ظنه من اهلها . ولعل القارىء ادرك مما تقدم انه هو الرجل الذي جاء الجمعية السرية في استجه منذ اشهر والفونس فيها . وانبأهم بما عزم عليه يوليان

فلما فارق فلورندا عاد الى الطريق التي جاء منها ونزل الى معسكر الاسبان من ورائه . لئلا يشك احد في قدومه من بعض القرى او المدن . وما زال يتجسس وهو لا يتوقع ان يرى الفونس باقيا هناك فطال تجسسه دون ان يقف على اثره . فسأل بعض العارفين فدلوه عليه فاذا هو في الغرف وراء معسكر رودريك . فحول همه الى البحث عن يعقوب وعنده كل الاسرار . وكانت الشمس قد غابت قبل وصوله الى المعسكر . فجعل يمر بين الخيام حتى اذا ما دنا من خيمة الفونس وجد ببابها بعض الحراس وثمة يعقوب بينهم فمر من ورائها وتظاهر انه ضل طريقه وتنحنح نحنحة خاصة ما لبث ان سمع جوابا عليها من الداخل . فعلم ان يعقوب هناك . وانه علم بقدومه فظل ماشيا في طريقه . فلم يلبث حتى سمع نحنحة دلته على مكان يعقوب والتقيا سلما وتحدثا بلهجة خاصة فقال سليمان : « اراكم لا تزالون هنا الم تنجح في اقامته ! »

قال يعقوب : « كدت انجح لولا اوباس وكتابه »

قال : « أليس الاسقف اوباس الذي كان رجاؤنا في النجاة من هذه الدولة موقوفا عليه ؟ »

قال : « بلى . هو بعينه وقد اطلعتك على ما دبرناه منذ بضعة اشهر . ورأيت الفونس نفسه في تلك الجلسة يوم اريناه الدنانير في ذلك البيت . »

قال سليمان : « وقد رأيت من الفونس انحيازا معنا على هذا الامر . فما الذي حدث بعد ذلك ؟ » . قال يعقوب : « خرجنا من تلك الجلسة وكله اقتناع بنجاح مشروعنا . وقد افهمته ان العرب اذا اخذوا البلاد ابقوا له كل امواله واعادوا الحكم اليه . وان مساعدته في انتصارهم على رودريك . واخبرته ان سقوط رودريك يتوقف على امر واحد لا يقدر

فيه احد سواه وذلك ان ينضم هو ومن معه الى جانب العرب يوم المعركة الاولى ، فاقتنع وتوافقنا على ذلك .

فقال سليمان : « ثم ماذا ! » . فمد يعقوب يده الى جيبه واستخرج لوحا مشمعا من الواح الكتابة عندهم في ذلك العصر ودفعه الى سليمان وقال : « وفيما نحن مطمئنون بذلك جاءنا هذا الكتاب من عمه اوباس » . فتناول سليمان اللوح ونظر اليه فلم يستطع قراءته لشدة الظلام فابتدره يعقوب قائلا : « لا تتعب نفسك في قراءته فاني حفظته حرفا حرفا ، لكثرة ما اعدت قراءته من شدة غيظي من اوباس مع فرط اعجابي به . . ! انه يقول فيه :

« من المطران اوباس الى الابن المحبوب بالرب ولدنا الفونس

« بسم الآب والابن والروح القدس . سلام . اما بعد فقد بلغني ما ارتكبه ولدنا الكونت يوليان من الخطأ في حملته على رودريك بجند العرب ، ولا اظنه فعل ذلك الا انتقاما لابنته . وكأني بك لما بلغك الخبر سررت به لانه يشفي ما في نفسك من هذا القبيل . فأخاف ان يسوقك الضعف البشري الى ما ساق اليه ولدنا المذكور ، فتوافقه على ما يضيع هذه المملكة ، ويبيد هذه الدولة ، فتهدمون في يوم ما بناه اجدادكم في اجيال ، وتدور الدوائر علينا وعليكم جميعا . فاذا كان قد خطر ببالك شيء من ذلك فانزعه عنك فانه من حبائل الشيطان ، واتحد مع ملك القوط للدفاع عن مملكة القوط . واما ما بيننا وبين رودريك من التباغض فانا سنارع عليه بعد الفراغ من محاربة الغرباء . فرجائي ان تصغي الى نصحي ، ولا تقبل قول سواي والسلام »

فلما سمع ذلك سليمان قال : « والله انه لقول رجل عاقل . ولكنه اذا عمل به فلا شك ان الضربة تعود علينا نحن اليهود . خصوصا اذا فاز رودريك واستنطق بعض الاسرى وعلم بجمعياتنا ودسائسنا ومساعينا ضده . والذي اراه من قلة جند العرب مع بسالتهم وصبرهم ان الفونس اذا لم ينضم اليهم فالكفة راجحة في جانب رودريك . والعياذ بالله »

فقال يعقوب : ذلك هو اعتقادي ولكنني قد استنفدت الحيل في سبيل اقناعه . وانت تعلم يا سليمان كم بذلت من الوقت والسعي من ايام غيطشة لانقاذ شعب الله من هذا الجور ، فتركت منصبي ، وتحولت عن اموالي ، وتظاهرت بالنصرانية ، وجعلت نفسي خادما اهيء الاطعمة واخدم على المائدة ، وصبرت على ذلك اعواما حتى اذا حلت

حسب الفرج قد أقبل اعلقه اوباس ، بعد ان كان اكبر نصير لنا ، بل المحرك الاعظم لمشروعنا ؟ »

فقال سليمان : « اما أوباس فانه يحمد على هذا العمل بالنظر الى العدل والحق ، فهو لا يريد ان تخرج هذه المملكة من يد ابن وطنه ودينه ولغته ويسلمها الى اناس غرباء عنه دينا ووطنا ولغة . اما نحن فيهمنا اخراجها من هؤلاء القوط على الاجمال ، لان المسلمين خير لنا منهم نظرا الى ما عاينته من معاملتهم لليهود والنصارى في الشام ومصر ، فانهم يطلقون لهم الحرية فيمارس كل منهم طقوس ديانته كما يشاء ، على ان يدفع مالا قليلا يسمونه الجزية . زد على ذلك أن اليهود أقرب نسبا للعرب ، لاننا واياهم من جد واحد هو ابراهيم كما تعلم ، فهم يرفقون بنا بنوع خاص . فيجدر بنا والحالة هذه ان نكون عونا لهم في تملكهم هذه البلاد . نفعل ذلك حبا لمصلحتنا ، ولا يهمنا كلام اوباس ولا غيره »

فقال يعقوب : « هذا هو الامر الذي نتمناه ، ولا سبيل اليه الا بانحياز القونس الى العرب لان ذلك يقلل جند رودريك ويضعف عزيمته . ولا يخفى عليك ان معظم رجال هذه الحملة يحاربون مع رودريك رياء وهم لا يحبونه . فاذا رأوا ابن ملكهم ينحاز الى العدو يهون عليهم ان ينصروه ، او ان يتقاعدوا عن الدفاع على الاقل » . قال ذلك ويده في لحيته يلاعب طرفيها بانامله وشعرها لا يزال متلبدا بالأوساخ . وسكت هنيهة ثم عاد فقال : « فالخلاصة اننا ان لم نستطع اغراء القونس بالخروج الى معسكر العرب ، ذهبت مساعينا وأرواحنا واموالنا ادراج الرياح »

فقال سليمان : « هذا هو الصحيح ، ولو كان هذا الوطر يقضى بالمال لهان علينا امره ، ولكن الرشوة لا مدخل لها في هذا المشروع ، اذ لا نستطيع ان نرشو القونس ولا اوباس ، واذا رشونا احدا من رجاله لا يستطيع التغلب على رأيه ، وانت اقرب الناس اليه ولم تستطع شيئا مع كثرة دهائك ومكرك » . قال ذلك وابتسم

فاجابه يعقوب : « دعنا من المجون فاننا في معرض جد وخطر والوقت قد داهمنا » . قال سليمان : « ومتى ينوي رودريك القتال ؟ » . قال : « سمعت انه ينوي مهاجمة العرب غدا »

فبغت سليمان وقال : « غدا ! ! لقد داهمنا الوقت وفاتتنا الفرصة ، الا نستطيع تأجيل الهجوم يوما او يومين ؟ » . قال : « لا اظنني

استطيع ذلك . وما الفائدة من التأجيل ؟ » . قال : « سأسعى في طريق اظنني ابلغ منه المراد »

قال : « وما هو ؟ » . قال : « لا اقول لك الا بعد قليل . فاسعفني بتأخير المعركة يوما او يومين »

قال : « لا اظنني قادرا على ذلك يا سليمان . لان رودريك يرى العجلة في مهاجمة العرب قبل ان تاتيهم نجدة فيقوى ساعدهم . وقد اشار عليه بذلك اوباس »

فقطع سليمان كلامه وقال : « سبحان الله . ما اوباس هذا ؟ كيف انقلب هذا الرجل من الشيء الى ضده . . ؟ »

فقال يعقوب : « اذا كانت عندك حيلة فهاتها قبل فوات الوقت » .

قال : « اني ذاهب الساعة وسأعود غدا صباحا بالامر الذي دبرته فاذا استطعت سبيلا لتأخير المعركة فافعل استودعك الله » . قال ذلك وتحول راجعا الى حيث اتى . ويعقوب واقف حتى توارى سليمان عن نظره . فتحول الى خيمة القوس وقد مضى هزيع من الليل

☐

اما سليمان فانه سار توا الى معسكر العرب والليل حالك حتى اتى خيمة يوليان . فلم يعترضه احد لانه كان عارفا شعار الليل عندهم . وكان يوليان قد اوى الى خيمته للرقاد . فلم يكن يستطيعه لما تراكم في مخيلته من الشواغل القديمة والحديثة . فلما وصل سليمان كان يوليان جالسا في الفراش وقد زاده الارق انقباضا . ولو رآه سليمان على نور المصباح لرأى السوداء مرسومة في وجهه بخطوط واضحة خصوصا بعد ان رأى جنود رودريك بالامس . وهاله ما رآه من كثرتهم واستعدادهم لمهاجمة العرب لا يزيدون على خمسهم . فخاف ان يغلبهم القوط وتعود العاقبة عليه وعلى ابنته وسائر اهله . وبينما هو في ذلك اذ قيل له : « سليمان بالباب » . فاذن في دخوله ثم ابتدره بالسؤال : « اين فلورندا ؟ » . قال : « هي في خير . وستاتي في صباح الغد او بعد الفراغ من المعركة » . واخبره بمقامها وطمأنه

فقال : « وما الذي حملك على المجيء الآن ؟ » . قال : « حملني عليه امر ذو بال لا اظنه غاب عن بصيرة مولاي »

قال : « ما في بصيرتي شيء الآن غير جنود رودريك فاني استكثرتهم وخفت على جند العرب منهم . واذا غلب العرب عادوا ولا يهمهم شيء وتقع المصيبة على رؤوسنا ورؤوس اهلنا وكل من قال بقولنا ! »

قال : « ذلك ما خشيتك من اجله . ولكن اعلم يا مولاي ان الامر على

وعورته يتوقف حله على امر هين » . ثم قص عليه حال الفونس وما دار بينه وبين يعقوب بشأنه الى ان قال : « وقد جئت الآن التمس منك كتابا الى الفونس تدعوه فيه الى التسليم وتضمن له امواله واملاكه واملاك اهله اجمعين ، وتوغر صدره على رودريك بما لا يخفى عليك . ثم تعطيني الكتاب فابعثه بطريقة اختارها »

فاطرق يوليان هنيهة ثم قال : « عد الى في الصباح فاعطيك ذلك الكتاب »

قال : « سمعا وطاعة » . وخرج يلتمس مستودع الخمر وكانت فلورندا في انتظاره على مثل الجمر تتقاذفها الهواجس وتترامى بها الاوهام لم يغمض جفنها الا قليلا . وكيف يزورها النوم وحبيبها على قيد خطوة منها ولا تستطيع الوصول اليه

وامر ما لاقيت من الم الجوى قرب الحبيب وما اليه وصول

مضى معظم الليل وهى في هذه الهواجس . وبينما عند السحر سمعت حفيف الورق فوهمت سليمان قادما . وكان شوقها يحدثها انه سياتي بالفونس معه . وبينما هي تفكر في نحو ذلك اذ سمعت وقع الخطى وخشخشة الاعشاب اليابسة قرب المستودع . فاصاخت بسمعها وقد اسرعت دقات قلبها وتعاظمت حتى كادت تسمعها باذنها فاذا هي بالخطوات تقترب ، ثم سمعت همسا فلم تتمالك عن الوقوف ودنت من النافذة واطلت فرأت سليمان يخاطب احيلا . ثم صعد سليمان السلم ففتحت له فلورندا واستقبلته وهي تقول : « ما وراءك يا سليمان ؟ »

قال : « ما ورائي الا الخير » ولكن غنة صوته كانت تدل على شيء في نفسه فاضطربت فلورندا وابتدرته قائلة : « يظهر انك تضمر شيئا . قل لي ما الخبر ؟ » . فاستيقظت خالتها على هذا الصوت فقعدت وهى تمسح عينيها باطراف انامله‍ا وقالت : « ما الخبر يا سليمان . هل رأيت الامير الفونس ؟ »

قال : « كلا يا مولاتي »

فلما سمعت فلورندا ذلك اشتغل خاطرها وقالت : « واين هو اذن ؟ » . قال : « هو في هذا المعسكر » . قالت : « وكيف عدت من هناك ولم تره ؟ » . قال : « لان رؤيتي اياه لا تفيدني ولا تفيدك شيئا ، لانه في حال لا تساعده على سماع كلام احد غير عمه اوباس وهو يأمره ان يتفانى في سبيل رودريك »

فلما سمعت ذلك تصاعد الدم الى وجهها ، واقشعر بدنها وسمعت

برهة ثم قالت وهي تبتسم استخفافا بما قاله سليمان ، ووثوقا بانصياع الفونس لقولها دون سائر العالمين : « اظنه يسمع قولي . لكن ما علاقة ذلك بتوقفك عن مقابلته ! »

قال : « ان لذلك علاقة كبرى بحياتك وحياتي وحياة مولاى الكونت يوليان ، وحياة كل قوطي ينتمي الى غيطشة : وكل من لا يرضى ان يعيش ذليلا بين يدي رودريك ، لان بقاءنا جميعا يتوقف على انتصار العرب ، وذلك لا يكون الا اذا انضم اليهم الفونس هو ومن معه ، فينخذل رودريك لا محالة وتخلص البلاد من شره »

فاعظمت فلورندا امر الفونس ولكنها ما زالت ترجو ان ينصاع لقولها فعزمت ان تكتب اليه كتابا شديد اللهجة تجمع فيه كل عبارات التحريض والتوبيخ والاستعطاف فقالت لسليمان : «ساكتب اليه كتابا هل تأخذه اليه ؟ »

قال : « نعم يا مولاتي اني رهين هذه الخدمة » . قالت : « اذا اصبحت تعال فادفع اليك الكتاب فتحمله اليه وارجو ان يكون نافذا بعون الله »

فاستبشر سليمان بذلك ومضى وكان الفجر قد دنا فتوسد حصيرا في عريش صاحب الكرم التماسا للراحة فغمضت عيناه ، ولم يستيقظ الا على صوت الطبول والابواق ، فنهض وقد اجفل واطل على المعسكرين فراى معسكر القوط يتماوج بالرجال وقد اخذوا في الاصطفاف للقتال وامامهم الرايات والاعلام ، وفي وسطهم موكب الملك رودريك بمظلته وسريره وفرسانه واعوانه . والتفت الى معسكر العرب فاذا هم في حركة كانهم يهمون بالدفاع فاسقط في يده وتشاءم من ذلك اليوم وقال في نفسه : « فاتت الفرصة » . وقد زاد في تشاؤمه ما شاهده من الفرق العظيم بين عدد جند القوط وجند العرب ، ومقدار ما عند القوط من العدة والخيل والمؤونة . فوثب من مكانه وثوب النمر واسرع منحدرا نحو معسكر العرب ليأخذ كتاب يوليان الى الفونس فوصل الى المعسكر وهو يلهث من التعب . فراى المسلمين واكثرهم من البربر قد اصطفوا للحرب وعلى رؤوسهم العمائم البيض تقيهم حر الشمس وتتلقى عن رؤوسهم مواضي السيوف وحداد السهام كانها دروع للراس ، وفيهم حملة الرماح وحملة الحراب ونقلة القسي العربية . واما الفرسان فقد كانت عليهم دروع من الزرد وعلى رؤوسهم الخوذ لا يظهر من وجوههم غير الحدق . وفي مقدمتهم فرسان يحملون الرايات وعليها الآيات القرآنية . ولم يصل الى الخيام حتى سمع

اصوات التكبير والتهليل وما فيهم الا من قرأ الفاتحة والتفت سليمان في وجوه الناس فلم ير بينهم من يبالي بما سيلاقي في تلك المعركة من خير او شر ، فاشتغل بذلك المنظر مدة عن يوليان ، ثم تذكر ما جاء به فانخرط في صفوف الاجناد وهو يتطلع ويتشوف فلم يجد يوليان فسال عنه بعض الوقوف فقالوا له انه ركب في اثر طارق يستحثان الجند على الثبات . ولم يكد يتدبر ما سمعه حتى راى فرسانا قادمين من بعض اطراف المعسكر يتقدمهم فارس عليه درع سليمانية ، وعلى راسه عمامة كبيرة ولبس على وجهه درع فظهرت سحنته وبانت ملامحه

▭

نظر الي هذا الفارس فاذا هو طارق بن زياد قائد ذلك الجند وكان سليمان قد رآه غير مرة ولكنه لم يره عمره مثل ما رآه في تلك الساعة ، فخيل له وهو ينظر اليه انه جبل على فرس وقد ازاح عمامته الي ما وراء جبينه فبان من تحتها جبين عريض تحته حاجبان غليظان ، تحتهما عينان احمر بياضهما من الجهد في الذهاب والاياب . وله شفتان غليظتان ولحية شعرها شديد السواد الا شعرات قد وخطها الشيب . وكان العرق يتصبب من جبينه الي لحيته وهو لا يبالي بمسحه ، ولا يلتفت الي شيء او يتفرس في رجل ، ولكنه كان ينظر الى الجند اجمالا كأنهم رجل واحد . وقد امسك عنان جواده بيساره ، واستل حسامه بيمينه ، وحسر عنها كمه ، فبان زنده الشديد السمرة ، ولم يكن جواده اقل حماسة منه بل كان يستوقفه طارق فلا يقف الا وهو يتحفز للجري وقد بلل العرق صدره وراسه

فتهيب سليمان من منظره ، ثم راى بجانبه فارسا يختلف عنه لونا وسحنة ويشبهه حماسة واقداما وبسالة ولكنه اصغر منه سنا واقل جسما . فتنحى سليمان جانبا ريثما يمر طارق ورفاقه لعله يرى يوليان بينهم فينفرد به ويطلب منه الكتاب . فاذا بطارق قد وقف وتحول بوجهه نحو الصفوف الواقفة بين يديه ، ورفع يمناه والسيف مشرع في قبضته ، فادرك الناس انه يهم بالكلام فاصغوا اليه فاذا هو يقول بعد حمد الله والثناء عليه ، وحث المسلمين على الجهاد

« ايها الناس ، اين المفر ؟ ان العدو امامكم ، والبحر وراءكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه واسلحته ، واقواته موفورة ، وانتم لاوزر لكم الا سيوفكم ، ولا اقوات لكم الا

ما استخلصوته من ايدى عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم امرا ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية . فقد القت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت . وانى لم احذركم امرا انا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة ارخص متاع فيها النفوس الا ابدا بنفسى . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه باوفى من حظى . وقد بلغكم ما انشات هذه الجزيرة من الحور الحسان ؛ من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا . ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته ، واظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين . واعلموا انى اول مجيب الى ما دعوتكم اليه . وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق، فقاتله ان شاء الله تعالى . فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتكم امره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون اموركم اليه . وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بانفسكم عليه . واكتفوا اليوم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون »

وما فرغ طارق حتى تعالت اصوات الناس بالتهليل وقد تشددت عزائمهم . وشعر سليمان عند سماعه ذلك الكلام بما فيه من بواعث التحميس ولكنه قلق لضياع الوقت واوغل فى الناس يسأل عن يوليان فرآه فى جملة الراكبين مع طارق فاسرع اليه . فحالما رآه يوليان استدناه منه فجاءه فقال يوليان : « استبطأناك فبعثنا الكتاب مع رسول آخر »

فانشرح صدر سليمان لعدم ضياع الفرصة ، وتحول راجعا الى الكرم لياخذ كتاب فلورندا اذ كان اكبر تعويلا عليه لما سيحويه من مثيرات العواطف . فوصل الى المستودع فرأى فلورندا واقفة على السلم والكتاب فى يدها فتناوله ولم يفه بكلمة محافظة على الوقت وهرول لا يلوى على شىء ، وهو فى قيافة لا يشك من يراه فيها انه من

رجال رودريك ،وكانت الشمس قد اطلت على معسكر القوط . فانعكست أشعتها على البستهم وبنودهم وخودهم خصوصا موكب رودريك . فجعل سليمان طريقه من وراء الجند والناس في شاغل لما هم فيه من التأهب ، فراى جند القوط قد ترتب على هيئة كراديس مثل نظام جند الروم ، وكان العرب الى ذلك العهد لا يزالون ينظمون جيوشهم صفوفا متراصة ، فكان جند رودريك مؤلفا من ميمنة وميسرة يقود الاخيرة الفونس . واما القلب فكان قائده رودريك نفسه ومعه الكونت كومبس . وقد جلس رودريك على سريره وفوق راسه رواق من ديباج يظلله ، وهو في غابة من البنود والاعلام وبين يديه المقاتلة بالسلاح وفيهم الفرسان بالثياب المزركشة . واما ثياب رودريك فقد كانت مرصعة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، حتى خفه فانه كان من الذهب المرصع ! فاعجب سليمان بالفرق بين بساطة العرب وبذخ هؤلاء القوط ، واين قعود رودريك على ذلك السرير من ركوب طارق على ذلك الجواد ! على انه راى في موكب رودريك رجلا طويلا واقفا على دكة مرتفعة عليه لباس الكهنوت وقد رفع يديه نحو السماء وفي احداهما صليب مرصع ، ورفع صوته في الصلاة ليتضرع الى الله لينصر جند القوط . فعرف سليمان من طول قامته وقوة عارضته انه اوباس . فوقف بالرغم عنه فراه لما فرغ من الصلاة والتضرع اخذ في حث الناس على الصبر والاتحاد ، وذكرهم بمجد ابائهم وشدة بطشهم وكيف فتحوا هذه البلاد بدمائهم

ولم يقدر سليمان على الصبر هناك فسار مسرعا حتى اتى ميسرة الجند وكانت غياه شاغلهتبن للبحث عن يعقوب ليدفع الكتاب اليه فلم يجده في مصاف الجند فتحول للتفتيش عنه في الخيمة . فلما وصل اليها راى ببابها رجلا في مثل زي الجند لكنه لم يكد يتفرس فيه حتى عرف انه من رجال يوليان . فعلم انه هو الذي نقل رسالة يوليان الى الفونس فلما وصل اليه كلمه بحيث لا يسمعه احد فعلم منه ان الفونس داخل الخيمة يتلو الرسالة وعنده يعقوب

— ١٠ —

وكان الفونس منذ اتاه كتاب اوباس يغالب عواطفه ويقدر عواقب تلك الحرب فلا يرى في الثبات خيرا ، ناهيك بما فيه من الخطر على فلورندا وابيها . وكان منذ قرا كتابها الى والدها في تلك الغرفة المظلمة

ما يزال يبحث عنها فلا يقف على خبرها ، ولم يكن يستطيع التدقيق في البحث خوفا من رودريك . ثم سمع بقدوم العرب وايغالهم في بونيكه ويوليان رائدهم ، وكان في عزمه ان ينضم اليهم اذا لم يكن انتقاما من رودريك فاكراما لفلورندا ، ولكن جاءه كتاب اوباس فاثر في عقله تاثيرا عظيما كانه استهواه بالتنويم المغناطيسي . فاصبح كانه في بحر لا قرار له . يشعر من جهة انه يجب ان يفعل بمشورة عمه ، ويرى ذلك من الجهة الاخرى مخالفا لعواطفه ومناقضا لمصلحته . حتى اذا اتاه الامر من رودريك ان يوافيه الى شريش رجح عنده راى عمه . واشتغل بالحرب والاستعداد لها وصورة فلورندا مع ذلك لا تبرح مخيلته ، ولكن عواطفه كانت مقيدة بسلطان عمه فاصبح بسبب ذلك منقبض النفس ضيق الصدر ، وقد نسي الابتسام واغفل الاجتهاد وسلم امره الى الاقدار !

ولما جاء رودريك بالامس وعسكر هناك . سلم الى الفونس قيادة ميسرة الجند وامره ان يكون على استعداد للهجوم في صباح ذلك اليوم . فبكر الفونس في الفجر وامر قواده فرتب كل منهم موقفه في موضعها . ودخل خيمته ليلبس درعه وكان يعقوب يرافقه وعيناه تترقبان مجيء سليمان او خبرا من عنده حتى خاف ضياع الفرصة ، واذا هو برجل لا يعرفه يطلب مقابلة الفونس ويبدو من عينيه انه يحمل خبرا سريا فسأله : « هل معك كتاب اليه ؟ وممن ؟ »

قال : « معي رسالة من الكونت يوليان » . ومد يده ودفع اليه لفافة من جلد . فتناولها يعقوب ودخل وحده ، ولم يكن في الخيمة غير الفونس فلم ينتبه له . فاقبل يعقوب حتى دنا منه وتنحنح نحنحة تعود الفونس ان يكون وراءها خبر مهم . وكان قد خلع قباءه ونزع قميصه واخذ في لبس الدرع . فبدأ بالجزء الذي يكسو الصدر والظهر وهم بلبسه . وقد علقت حواشيه باطراف غفائر شعره المسترسل على كتفيه فأخذ في تخليصها . فلما سمع نحنحة يعقوب التفت اليه فاذا هو يحمل بيمناه لفافة مختومة وقد جعل يسراه على صدره ، فتناول الفونس اللفافة وفضها فاستخرج منها ورقا مكتوبا ، فما قرأ اسم يوليان حتى خفق قلبه واستيقظت عواطفه ، وتصاعد الدم الى وجهه وظهرت عليه البغتة خصوصا بعد ان اتم تلاوته . وكان يعقوب واقفا امامه وقد اسند يديه متصالبتين على صدره فدفع الفونس اليه الكتاب كانه يستشيره في امره . فتناوله يعقوب وقرأه فاذا فيه :

« من يوليان كونت سبتة الى الامير الفونس

« بسم الآب والابن والروح القدس . لا حاجة بي ايها العزيز الى اطالة الشرح في المصائب التي توالت على هذه الجزيرة منذ تولاها هذا الباغي . الى ما تعلمه من تعديه على الملك واخراجه من ايدي اهله بقتل والدكم المرحوم . فكرسي الملك لبيت غيطشة وانت ارشدهم جميعا . ولم يكتف بتعديه على الحقوق حتى تجاوزها الى الاعراض ، فمن كان هذا شأنه فكيف يطاع امره ؟ والعرب يا الفونس دولة جديدة ملكت الخافقين بالعدل والرفق . وهي منتصرة على رودريك لا محالة ، لان اهل مملكته كلهم عليه حتى اقرب اقربائه . والذي ينصره انما ينصر الظلم والغدر . وانت تعلم اني ضنين بك شفيق عليك ، لما بيننا من رابطة النسب الصحيح . فاذا اطعتني وانضممت الى جند العرب فاني ضامن لك كل ضياع المرحوم والدك في الاندلس وهي ثلاثة آلاف ضيعة سلبكم رودريك اياها . وترجع انت وسائر آل غيطشة الى ما كنتم عليه قبل استبداد هذا الطاغية . وانما كتبت هذا اليك رفقا بك وشفقة عليك . والسلام »

وكان يعقوب يتلو الكتاب والفونس مطرق ، وشعره لايزال مسترسلا على كتفيه وقد علق بعضه بهداب الدرع . فلما فرغ يعقوب من قراءته نظر الى الفونس وقال : « وما الرأي يا مولاي ؟ » . قال : « الرأي ! . . انت ادرى مني بما كتب به الينا عمي اوباس . فهل اعصي عمي واطيع يوليان ؟ » . فقال يعقوب وهو يحك قفاه : « لا اشير عليك بشيء فانك ادرى بالصواب ، وانا معك الى الممات . ولكنني استغرب ذلك الرأي من اوباس وهو اعلم الناس بما اصابك واصاب سائر القوط من هذا الطاغية ، ولولا اعتقادي بقوة عقل اوباس وصحة بدنه لقلت انه يتكلم عن خرف . على اني لا احسبه الا كتب ذلك الكتاب ثم ندم عليه . وفي كل حال فالرأي لك » .

فقال الفونس : « كيف تقول انه ندم . وانا لا اجتمع به الا حرضني على الثبات . ولايزال صوت خطابه يرن في آذاننا وهو يحرضنا على الاتحاد والصبر في ساحة الحرب . وهو لايتكلم جزافا اذ لولا اعتقاده بحسن عاقبة هذا الاتحاد لم يدعني اليه ؟ ! »

قال يعقوب : « عمك اوباس يا مولاي حكيم وفيلسوف ، وواعظ ولاهوتي ، ولكنه لا يعرف امور السياسة . ولعلك اذا سمعت مني ذلك نقمت علي وظننت اني اخدعك . ولكن دع ذلك عنك وانظر الى الكونت يوليان فانه والد فلورندا ، وهو انما ركب هذا المركب الخشن في سبيل الدفاع عن . . . . . »

فمد ألفونس يده وصافح بها ثم يعقوب بلطف وهو يقول : لا تبكِ يا يعقوب فإني عامل برأي عمي لأنه لا يجهل شيئاً نحن نعلمه . وهو أدرى مني ومنك بالأسباب التي حملت يوليان على ذلك . وقد آن لي أن أخرج لمبارزة الخصم . . وعاد إلى لبس الدرع فنهض يعقوب منه ولبث واقفاً يحك عثنونه بطرف سبابته . فسمع جمجمة سليمان خارج الخيمة فاستأذن وخرج . فدفع إليه سليمان كتاباً قال له إنه من فلورندا . فدخل به على ألفونس فتناوله وفضه . وحالما وقع نظره على الخط علم أنه من فلورندا فاختلج قلبه وتزايدت ضرباته . وظهرت البغتة على وجهه ، وارتعشت أنامله حتى ظهر ذلك في اهتزاز الكتاب . ثم امتد الارتعاش إلى كل أطرافه وهو يتجلد ويتظاهر بعدم التأثر . ويعقوب يرى كل ذلك ويتجاهل . أما ألفونس فقرأ الكتاب فإذا فيه :

« أكتب إليك على قطعة من رداء سعدان من ذهب ، وهو الرداء الذي قابلتك به في حديقة القصر ، وقد سرقت تلك الليلة من لدى رودريك ذخائر من جوهرة هي لألفونس أكثر مما هي لي ، وقد أرسلت إليك مع خادمي هذا بعض شعيرات من شعري في أثناء ذلك الدفاع . إذا لم تعرف منه شيئاً ، فتلك الشعرة الباقية تحادثك بأمدة صدري وأنا عارية من الوجد الخالص . هذا هو رودريك الذي أراك اليوم تحارب بسيفه ، وتدافع عن عرشه ، ليحفظ له ملكاً اختلسه من أبيك ، وستسعى أنه بدا يستعبدنا بنسبه إلى خطيبك . إلى متى تريد أن تنتظر ، وقد فاتك أنك ذاهب بها وبأبيها وسائر أهلك وأهلها إلى الدمار ! وإني لا أعلم هل ارتكبه رودريك أو عزم على ارتكابه ، فاعلم أنه أراد اغتيال عمي وعلك ببشري ، فهددني وخوفني ، وأغلق [illegible] وأرى السعادة في طاعته والشقاء في عصيانه ، ولم يسمع إلى بكائي ولم يرق لتضرعي ، فغصبني وأزرى بالشقاء حياتك وخلافته على وذلك . ولعل نور العهد أنساك عهودك على شفة نهر التاج ، يوم قصصت شعر رأسك فتأملتك وتمنى أن بقاء هذا الشعر حرام عليك إلى أن تفي بعهودك ! أهذا هو الوفاء ؟ أكانت تهديدات عمي وأبي والذي وسائر أهلك وأهلي ، وكأنك اقتنعت أن تؤيد سلطان هذا الباغي ! فإذا نسيت ما ذكرته لك وتذكرت ماضي عهودك ورأيت البقاء عليهم ، فدع رودريك وجنده وتعال إلى فوق هضبة الزاوية في مستوى الحجر بين المعسكرين ، أو إلى والدي في معسكر العرب ، وأما إذا كنت لا تزال على حب ذلك الظالم وكان

لحب فلورندا بقية في قلبك . فلا تتركني اموت قبل ان اراك واشكو اليك جفاك ، واخاطبك واعاتبك ، واتزود منك بنظرة أنسى بها ذلك الشقاء . واذا ضننت حتى بهذا فاستودعك الله الى ان نلتقي بين يدى الديان العظيم ، ومعنا رودريك يشهد على نفسه وعليك ، والسلام .
« فلورندا »

وما فرغ الفونس من تلاوة ذلك الكتاب ، وشاهد شعر فلورندا حتى احس كأنه استيقظ من رقاد ، او هي عواطفه تنبهت من غفلتها ، وانحلت من قيود الاستهواء ، فاستولى عليه سلطان الغرام فانساه اوباس وكتابه وحكمه وآدابه . والحب سلطان نافذ الكلمة ماضي القضاء غالب على كل سلطان ، يستذل الملوك ويحطم سيوف القواد

ظل الفونس بضع دقائق مطرقا كأنه غائب الرشد ، ولم يبق في مخيلته الا صورة فلورندا بثوبها الارجواني الذى رآها فيه آخر مرة ، وبشعرها الذهبي ضمن تلك الشبكة ، وفي يده بضعة من كليهما ، وتذكر ما دار بينهما من التشاكي والعتاب ، وما تعهد لها به من اسباب السعادة بانتزاع الملك من رودريك . وتعاظم خجله واضطرابه حتى توهم انه يسمع صوت توبيخها وتعنيفها ويرى دموعها . وكان يعقوب واقفا بين يديه فلما راى اضطرابه وتأثره خرج من الخيمة تأدبا ليخلو الفونس الى نفسه . فلما خرج لقيه سليمان وكان واقفا هناك على احر من الجمر . فلما راى يعقوب استفهمه بالاشارة فاجابه باطباق عينيه ان الطبخة قاربت النضج . وفيما هما واقفان رأيا فارسا مسرعا نحوهما وفي يده شيء فتقدم يعقوب نحوه للسؤال عن غرضه فاذا هو من اتباع اوباس . فلما تلاقيا تعارفا فسأله يعقوب عن غرضه فقال انه قادم بكتاب من اوباس الى الفونس . فاستعاذ يعقوب بالله من ذلك الكتاب مخافة ان يكون فيه ما يفسد تلك الطبخة فعمد الى الاحتيال فقال : « ان مولاى الامير يغير ثيابه ولا يستطيع احد الدخول عليه » .

قال : « اني مأمور بايصال هذا الكتاب اليه حالا » .

قال : « هاته وانا ادخله عليه بعد قليل » . فدفعه اليه وانصرف وهو لا يشك انه اتم مهمته . اما يعقوب فانه تظاهر بدخوله الخيمة ودار من ورائها وفض الكتاب فاذا هو بخط اوباس ونصه :

« لا يخدعنك اليهود بدسائسهم ، فانهم انما يريدون مصلحتهم وليست هي في بقاء المملكة للقوط . اثبت في الدفاع عن الوطن كما

حوطني فيك ، واصغ الى قولي فاني بمنزلة ابيك » . فلما قرأ يعقوب الكتاب انقلب الضياء في عينيه ظلاما ، وعجب لتيقظ اوباس وانتباهه ، وادرك انه اذا لم تنفذ حيلته في تلك الساعة ذهبت مساعيه ومساعي سائر اليهود هباء منثورا . فاستقدم سليمان واطلعه على ذلك الكتاب وتفاوضا فقررا كتمانه عن الفونس . وان يعجلا العمل قبل ان ينشب القتال . فدخل يعقوب فرأى الفونس جالسا على وسادة هناك وهو لايزال مطرقا ولم يتم لبس الدرع وشعره لايزال مسترسلا على كتفيه . ولما رآه انتبه لنفسه . فوقف وفي خاطره ان يطلع يعقوب على كتاب فلورندا ولكن الحياء منعه . فابتدره يعقوب قائلا ان الرسول لايزال واقفا في انتظار الجواب وقد امره صاحب الكتاب ان يعود سريعا .

فخطر لالفونس ان يرى الرسول ويسأله شيئا لعله يتخلص من ذلك التردد فقال : « ادخله علي » .

فخرج واستقدمه فدخل سليمان وسلم متأدبا فسأله الفونس قائلا : « هل رأيت كاتب هذا الكتاب ؟ »

قال : « نعم يا مولاي »

قال : « ومن هو وماذا تعرف عنه ؟ »

فأشار سليمان بعينيه نحو يعقوب كأنه يخفي امرا لايريد التصريح به بحضوره ، فأشار الفونس الى يعقوب فخرج . فتقدم سليمان الى الفونس وقال : « اتسمح لي يامولاي ان اصرح بما اعلمه ؟ » . قال : « قل » . قال : « اني من اصدقاء الكونت يوليان صاحب سبتة وقد كلفني ان استقدم ابنته فلورندا من دير كانت فيه قرب طليطلة فوصلنا بالامس » . قال : « واين هي الآن ؟ » . قال : « هي على مقربة من هذا المعسكر » . قال : « ولماذا لم تذهب الى والدها ؟ » . فاطرق سليمان وتظاهر بشيء يمنعه الحياء من ذكره ، فازداد الفونس رغبة في الاطلاع عليه فقال : « قل كل ما تعرفه ولا تخف شيئا » .

فرفع سليمان نظره الى الفونس وقد تباكى حتى ظهر الدمع في عينيه وقال : « ماذا اقول يا مولاي ؟ ان فلورندا اصبحت في حال يرثى لها من الضعف . ولم ارها يوما واحدا في اثناء رجوعها غير مبللة العينين . وكنت اظنها تفعل ذلك شوقا الى والدها فجعلت امنيها بقرب لقائه فلا تزداد الا بكاء . ولما صرنا على مقربة من معسكر العرب حيث يقيم والدها ابت الذهاب اليه حتى كاد يغمى عليها . ثم فهمت من خالتها العجوز ومن قرائن اخرى انها مخطوبة لك ، وسمعتها تقول

انها تريد المجيء اليك ولو كنت في ساحة الحرب . لم ار في حياتي مثل هذا الحب فانها لم تبال بابيها في سبيل لقاك . ولا اخفى على مولاي انني عرفت ذلك رغم كتمانها اياه عن كل البشر . وهي التي سلمتني هذا الكتاب واوصتني ان اعود اليها بالجواب حالا وهي تبكي ! »

قال ذلك وتساقطت عبراته كأنه يبكي بكاء صادقا . فلم يتمالك الفونس عن ارسال الدمع . ثم سمع دق الطبول ونفخ الابواق في المعسكر فعلم انهم شرعوا في القتال . فدق قلبه وراى انه لابد له من القطع في احد الامرين . فتشاغل بلبس دروعه واصلاح ثيابه وقد ترجح له ان يتبع هوى قلبه ويطيع فلورندا ولكن الحياء كان يمسكه

◻

وبينما الفونس في تلك الحيرة اذ دخل الخيمة رجل بلباس الكهنوت وهو يهرول ويتمتم . فنظر الفونس اليه فاذا هو الاب مرتين بلباسه الرسمي الموشى وعلى صدره صليب مرصع . والغضب باد في وجهه . ولم يكن الفونس يحبه . فلما رآه داخلا على تلك الصورة تلقاه بالسؤال قائلا : « كيف تدخل خيمتي قبل ان تنبهني الى ذلك مع خادمي ؟ »

فقال مرتين وهو يتمتم كالعادة : « اي خادم تعني ؟ ومتى كان الاب مرتين يستأذن قبل الدخول ؟ اين الكتاب الذي جاءك من عمك الآن ؟ ولماذا تخلفت عن القتال وانت قائد ميسرة الجند ! » . فاكبر الفونس اسئلته على تلك الصورة ، وكبر عليه ان يعتذر عن سبب تخلفه او ان يصرح بعدم وصول الكتاب اليه فقال : « وما شأنك وحضوري القتال . او مايرد على من الكتب من عمي او من غيره ؟ » . فحمى غضب مرتين ولم يعد يعي ما يقوله وقال : « ان لي فيه شأنا تعلمه . واذا كنت لا ترى ذلك من شأني فلا أظنك تنكره على جلالة الملك ، صاحب هذا الجند وقائده الاكبر » . وكان سليمان واقفا في بعض اطراف الخيمة بحيث تقع عينه على عين الفونس . وكلما قال مرتين قولا اشار سليمان بشفتيه وحاجبيه اشارة الاستخفاف والاستياء ، واذا رد عليه الفونس ابدى سليمان استحسانه واعجابه فازداد الفونس استمساكا بحميته . فلما عرض مرتين بذكر رودريك وسلطانه زال حياء الفونس مما كانت نفسه تحدثه به ، ولم يكن جوابه الا الخروج من الخيمة مسرعا الى جواده فامتطاه ، وحول شكيمته نحو ميسرة الجند وهو يقول : « سوف ترون من هو صاحب

هذا الجند وما هو مصير أهل البغى ! وقد كنت اتردد في الذهاب وحدى فها انذا ذاهب مع جندى ! !

وكان القتال قد بدأ وتطايرت السهام وتلالات السيوف . وعلا ضجيج الرجال وصهيل الخيول وصلصلة اللجم . والملك في قلب الجيش وحوله فرسانه واعلامه وبنوده ، واوباس يطوف الجيش على جواده وقد نزع قلنسوته فاسترسل شعره على كتفيه وظهره ، وامسك زمام الجواد بيسراه ورفع يمناه يحمل بها صليبا مرصعا . وهو يستحث الجند على الثبات والصبر

ولما ركب الفونس جواده وقعت عينه على اوباس عن بعد ، فخاف ان يدركه قبل الفرار فيثنيه عن عزمه . فساق جواده ولم يلتفت يمنة ولا يسرة حتى اتى فرقته . فلاقاه وبا وزميله قائدا الفرقة بعده ، فحدثهما ووعدهما خيرا . وقد علمت انهما كانا يحبانه ويكرهان رودريك فاطاعاه وامرا الجند بالخروج من المعركة فتحولت ميسرة القوط كلها نحو معسكر العرب ، فتضعضع جند القوط واضطربت جوانبه !

اما مرتين فانه ما انفك منذ خروج الجند من طليطلة وهو يراقب حركات اوباس ويلقى الشكوك لدى رودريك في اخلاصه وصدق نيته ؛ فلما نزلوا سهل شريش واطلق الجند للقتال راى الفونس قد تاخر عن الخروج للحملة ، ثم راى اوباس دفع الى بعض حاشيته كتابا سار به الى خيمة الفونس ؛ فظن سوءا واسرع الى الملك فاراه الرسول راكبا الى تلك الخيمة وهرع هو اليها كما تقدم . فلما خرج الفونس وسليمان وبقى هو في الخيمة وحده عظم عليه ما كان من استخفاف الفونس به . فالتفت الى ما حوله فوقع نظره على رق ملفوف فتناوله وهو يحسبه كتاب اوباس ، فاذا هو كتاب فلورندا وقد نسيه الفونس هناك لغضبه وتسرعه ؛ ففرح مرتين بذلك الكتاب فرحا شديدا وفهم منه مقام فلورندا . ولكنه ما زال يعتقد (او يريد ان يعتقد) ان اوباس كتب اليه بالانضمام الى العرب !

وخرج مرتين من الخيمة ونظر الى الجند فراى الفونس وفرقته يسيرون نحو معسكر العرب . فركض الى رودريك وكان لايزال على سريره في وسط موكبه ، فنظر الى مرتين فاذا هو يشير باصبعه الى الفونس ورجاله ، فلما رآهم رودريك يسوقون خيولهم الى معسكر العرب استشاط غضبا وقال : « ما الذى غيرهم ؟ »

قال : « غيرهم كتاب حضرة الاسقف ، وقد قلت لك انى لم

الى اضعني بجواهره فمر بالقبض عليه الآن واسحبه . فمن ترى يغز هو او يحرس ثاني الجسد بعد الوزراء . فأمر رودريك رئيس حرسه ان يقبض على أوباس حالا فأسرع رئيس الحرس ومعه كوكبة لانفاذ أمر الملك .

أما مرتين فلم يسعه عندما سمع القبض على أوباس فأراد أن يفلت من القصر ، فلم يفلح ، فغضب رودريك ودفع اليه كتاب فلوريندا فتلاه وهو يرتعش من شدة الغيظ ، لما حواه من الفضيحة والتحريض على أبيه . فلما فرغ من تلاوته أسودت لحيته ترقص على صدره وأنامله ترتجف ، وصاح في مرتين : « أين هو المستودع الذي تقيم فيه هذه الفاجرة ! »

فأشار مرتين الى المستودع وهو يقول : « أظنه هذا » .

فأمر رودريك كوكبة من فرسانه أن يلقوا القبض على من فيه ، ويسوقوهم اليه أحياء أو أمواتا .

□

ظلت فلوريندا بعد ذهاب سليمان من عندها في ذلك الصباح جالسة الى النافذة تراقب حركات الجند وسكناته ، وكان أكبر اهتمامها بالميسرة لعلمها أن القوط هناك ، ولا تسل عن اضطرابها وقلقها ، فلما رأت الميسرة تفر الى معسكر العرب اطمأنت وابتهجت بالفرج ، ورقص قلبها طربا . وكانت الخالة واقفة الى جانبها وهي لا تكاد تعي ما يجري لقصر نظرها ، فلما أخبرتها فلوريندا بما رأته شاركتها الفرح . وكان اجيلا وشنتيلا واقفين على مرتفع عند المستودع يراقبان حركات الجند ، فلما رأيا ميسرة القوط انقلبت الى العرب أسرعا الى فلوريندا فأخبراها وفرحوا جميعا ، وجعلوا يتحادثون بما شاهدوه بأعينهم في أثناء المعركة [illegible]

وفيما هم في ذلك اذا بالشيخ صاحب الكرم قد أسرع ومعه بعض غلمانه وأطفاله يركضون حتى صعد المستودع وهو يصيح : « اين سليمان التاجر ، فانه وعدنا بالحماية ! »

فأطلت فلوريندا من النافذة فرأت كوكبة من فرسان القوط يسوقون خيولهم بين الدالية لا يبالون بتكسيرها ، حتى وصلوا الى المستودع وفي أيديهم السيوف مسلولة . فحالما رأتهم فلوريندا علمت أنهم من رجال رودريك فاصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها وصاحت : « اجيلا ! شنتيلا ! »

وكانا قد جاءا للدفاع قبل سماع صوتها ولم يباليا بكثرة الفرسان

القادمين . وساعدهما على ذلك اولاد الشيخ ونساؤه . وعلت ضوضاء السماء والاطفال وفلوروندا واقفة في النافذة مع خالتها تقرع صدرها وتصلي الى الله ان ينجيها ، وتتوسل الى السيد المسيح والى العذراء مريم ان يدفعا عنها ذلك الشر . ثم نظرت الى اسفل المستودع فرأت احيلا وشانتيلا قد وقعا قتيلين بعد ان قتلا مضمة من رجال رودريك فحزنت عليهما حزنا شديدا . ولكنها اصبحت في شاغل من نفسها ولم تجد من تستغيث به غير الله . فجثت في وسط المستودع وكشفت صدرها وحلت شعرها ونظرت الى السماء ، وجعلت تقول وهي تلطم وجهها وتقرع صدرها وصوتها يختنق من شدة البكاء « الهي انت نصير الضعفاء . الهي انت منقذ المظلومين . اللهم اشفق على صباي . احمني من هؤلاء الظالمين اكراما لدم ابنك المسفوك على الصليب» . ثم اختنق صوتها فبلعت ريقها وعادت الى الصلاة وهي لا تبالي بوقع الاقدام على السلم الخشبي المؤدي اليها ولم تلتفت الى شيء مما حولها . وانما صوبت حواسها وعواطفها وافكارها كلها الى السماء وهي على ثقة تامة ان الله لا يتخلى عنها . وكانت خالتها جاثية بجانبها تعيد دعاءها وتؤمن لها

اما الفرسان فانهم قتلوا ذينك الشابين وبضعة من اولاد الشيخ ، وصعدوا الى المستودع صعود الذئاب الخاطفة يتقدمهم رئيسهم وهو من اهل بلاط رودريك . وكان قد شاهد فلوروندا في طليطلة غير مرة فلما رآها في المستودع لم يعرفها لما طرأ عليها من التغير بالاسفار . ثم ما كان من تغيير حالها في تلك الساعة وهي محلولة الشعر مكشوفة الصدر حاسرة الزندين ، وقد توردت وجنتاها من اللطم والصفع ، واحمرت عيناها وتكسرت اهدابها من البكاء . وبلل الدمع وجهها وامتزج بالعرق المتساقط على صدرها فتبلل شعرها وقميصها . فلما رآها الفارس على تلك الحال وقد دخل ولم تنتبه له ناداها فلم تجبه . فتقدم اليها وامسكها بزندها وجذبها نحوه فالتفتت اليه فرأت بيده الاخرى سيفا لا يزال يقطر دما وقد تلطخت انامله الاخرى بالدم . فلما شاهدت ذلك ازدادت رعبا ولكنها تجلدت وقالت : « ماذا تريدون ؟ »

قالوا : « نريد ان نمضي بك وبمن معك الى الملك رودريك »

فلما سمعت اسم رودريك صاحت : « لا . لا . لا اذهب اليه »

فقال لها الفارس : « سيري برضاك والا اخذناك قهرا . ولا اظنك تستطيعين النجاة من ايدينا ونحن جماعة ؟ » . قال ذلك وصاح في



ونظرت بطرفها إلى السماء وجعلت تقول : « إلهي
أنت مجير الضعفاء !. إلهي أنت منقذ المظلومين ! »

رجاله فقبضوا عليها وجروها والعجوز تصيح فيهم وتستعطفهم وما من مجيب ، حتى نزلوا من الصومعة فأركبوها فرسا وأركبوا خالتها فرسا آخر وساقوهما . وفلورندا لا تزال محلولة الشعر مكشوفة الصدر ، محمرة الوجه ، دامعة الطرف ، وهي تستغيث بالله وتستمد منه القوة القلبية ، والفرسان لا يبالون بصياحها وبكائها حتى انحدروا من تلك الاكمة وانتهوا الى ساحة الحرب . فوقع نظر فلورندا على رودريك في مركبته وقد حمي وطيس الحرب والتحم الجدال بين الفريقين [illegible] المسلمون بالقوة . وقد تضعضع هؤلاء حتى اسقط [?] رودريك [illegible] والدفاع بنفسه

وكانت فلورندا قد يئست من النجاة فودت لو ان نبلا من النبال المتساقطة [illegible] من رؤية رودريك . ثم التفت فرأت فارسا من جند المسلمين يخترق الجمعة على مقربة منها وهو [illegible] الوجه [illegible] ولا عمامته [illegible] العربي [illegible] واخذ [illegible] الى فلورندا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

المعروفين . وكانت فلوريندا على جوادها وعيناها شاخصتان الى الرجلين تراقب كل حركة من حركاتهما ، وقد حبست انفاسها لئلا يشغلها التنفس عن مراقبة تلك المبارزة لعلاقة ذلك بحياتها او مماتها . فاذا هجم رودريك اشارت بيدها كانها تشارك بدرا في تلقي ضربته . واذا هجم بدر احست كانها تهجم معه وهي بالحقيقة واقفة مكانها ولكن جوارحها كانت تشارك نصيرها بكل حركة . ثم ما لبثت ان رات رودريك يستمهل بدرا بالاشارة . وكان بدر يود ان يقبض عليه ويسوقه الى طارق اسيرا لينال بأسره فخرا ، فلما رآه يستمهله اجابه بالاشارة ايضا ان يمضي معه الى معسكر المسلمين ، فعاد الى استمهاله فامهله دون ان يفكر في انه انما يخدعه وينوي الفرار . فقد كان بدر مستخفا بالرجل ولكن رودريك حول شكيمة جواده نحو خيامه واطلق له العنان . فالتفت بدر الى رفاقه وكلمهم بالبربرية ان « خذوا هذه الفتاة الى خيمتي » واقتفى اثر رودريك

وكان القوط قد ضعفت عزائمهم فلما راوا ملكهم فارا اركنوا الى الفرار . اما بدر فما زال يتعقب رودريك ورودريك يجول في معسكره كانه يفتش عن ضائع ، وبدر يتبعه ويعجب من صبره على الملك الصورة . حتى انتهيا الى خيمة خرج منها كاهن اسقف مرسيا وهم بالفرار ، فصاح رودريك به - مرتين ! - فالتفت مرتين واقترب من رودريك فابتدره رودريك بسيفه وهو يقول « كل هذا البلاء من فساد سريرتك وضعف رأيك » فاصابت الضربة عنقه فوقع مضرجا بدمه ، فتركه سريعا وساق جواده نحو الوادي وبدر يتبعه ، حتى وصل ضفة النهر . والظاهر انه لم يعد يقوى على ردجماح جواده فارسله في الماء فغرقا معا . ويقال انه فعل ذلك عمدا وفضل الموت غرقا على ان يقتله احد من اعدائه . فرجع بدر وهو يصيح : « قتل الطاغية ! قتل الطاغية ! » فازداد المسلمون جراة واوغلوا في معسكر اعدائهم . ولم تمل شمس ذلك اليوم الى الاصيل حتى خلا المعسكر من القوط الا من وقع قتيلا او اخذ أسيرا . واستولى المسلمون على ما فيه من العدة والذخيرة والزاد والامتعة والخيول والماشية وغير ذلك

وكان طارق بن زياد في اثناء المعركة يجول على جواده ويحرض المسلمين على الثبات . ويكافح ويجالد ويقاتل لا يبالي بقلة رجاله بالنسبة الى رجال القوط ، ولم يكن يعلم بما كتبه يوليان الى الفونس؛ ولكنه صمم على التفاني في سبيل الفتح منذ وطىء الاندلس كما رايت من خطابه الذي ذكرناه ، فاحرق سفائنه حتى يياس رجاله من التعلق

بها او الالتجاء اليها اذا غلبهم القوط . ولذلك لم يكن يبالى بكثرة عدوه او قلته وانما كان همه وهم من معه الصبر والثبات

فلما راى الفونس ورجاله ينضمون اليه شكر الله على ذلك وازداد ثقة بالنجاح . وحرض المسلمين على الثبات حتى قضى على القوط بالفرار كما رايت ، وكانت تلك الواقعة الضربة القاضية على مملكة القوط قتل فيها ملكهم ونخبة قوادهم

☐

فلما فرغ الجند من الحرب وتراجعوا الى خيامهم امر طارق بان يحملوا اليه الغنائم والسبايا والاسرى على العادة بعد كل قتال ، فحملوا كل ما غنموه من العدة والسلاح والآنية والذخيرة والجواهر والتحف . واكثرها من الصلبان والخواتم وفيها الفضة والذهب بين مرصع وغير مرصع . وجاءوا بالاسرى وفيهم المقيد والموثق والسليم والجريح . فتجمع من ذلك كله شيء كثير حتى اصبحت الاسلاب ركاما امام الفسطاط . والاسرى جماعات مشدود بعضهم الى بعض باعناقهم او ايديهم او ارجلهم والرجال لا يزالون يأتون بهم زرافات ووحدانا

واجتمع قواد الجند امام فسطاط طارق على بساط كبير من جملة الغنائم افترشوه هناك . فجلس طارق في صدر المكان والى يمينه الكونت يوليان والى يساره الامير الفونس وبين يديه كبار القواد وفي جملتهم بدر . وكان الفونس قد لقي يوليان ساعة انضمامه الى جند العرب وتحادثا مليا في شأن المملكة وما كان من امر اوباس وذكرا فلورندا وانها مقيمة في المستودع حتى يرسلوا في طلبها . وصمما على ان يستقدماها في صباح الغد بعد الفراغ من قسمة الغنائم والاسلاب. وكان الفونس منذ انقضاء المعركة يتفرس في الاسرى لعله يرى اوباس بينهم وهو لا يتوقع ان يراه اسيرا لعلمه انه يفضل الموت على الاسر

فلما تكامل اجتماع القواد وكل طارق الى كبير منهم ان يخرج خمس الغنائم حسب العادة لبيت المال ويقسم الباقي بين القبائل على مقتضى تعدادها وكان يتولى ذلك وامارات الاعتزاز والافتخار بادية في وجهه . والفونس ويوليان يتساءلان في امر اوباس هل قتل او فر او اسر ؟ وكلاهما يستبعد وقوعه في الاسر . واذا هم بجماعة من جند العرب يسوقون رجلا طويلا شعره مسترسل على ظهره وكتفيه ولما دنوا من الفسطاط تقدم احدهم وهو يقول لطارق : « وجدنا هذا الاسير مغلولا في مضارب القوط فحللنا وثاقه وجئنا به »

فقال : « الي به »

فاقبل اوباس وهو لا يزال كما كان في اثناء القتال محلول الشعر وفي صدره صليب وبيده صليب . فلما وقع نظر الفونس عليه لم يتمالك ان نهض حتى وصل اليه فجثا امامه واكب على يده وجعل يقبلهما ودموعه تتساقط بلا بكاء . وفعل نحو ذلك يوليان وقد امتزجت في وجهه امارات السرور بالنصر بامارات الخجل من الخيانة . فانحنى على يد اوباس فقبلها وامسك به ودعاه للجلوس في صدر المكان . وكان طارق وبدر وسائر القواد قد تحولت انظارهم الى ذلك القادم وقد زاد هيبة وجلالا باسترسال شعره . فاخذ ينظر الى الذين حوله بلا اكتراث . ولما دعاه يوليان للجلوس امسك عن مجاراته وظل واقفا في مكانه يتفرس في وجوه الناس . ولو استطاع الفونس التفرس في عيني اوباس لراهما تتلألآن بالدمع رغم اعتقاده ان الطبيعة لا تستطيع قهره . وهي لا تستطيع قهر العاقل اذا استذل عواطفه واخضعها لعقله . فانه لا يرى في حوادث الطبيعة ما يدعو الى الحزن او الى الفرح . والحياة بجملتها في نظره نسمة من نسمات الوجود ، فما قولك باعراضها ! ولكن المرء لا يخلو من العواطف فهو عرضة للحزن والفرح . فلا نلومن اوباس على البكاء وقد راى ذهاب دولة القوط من اسبانيا بسوء تدبير رجل واحد رغم ما كان يؤمله هو من ملافاة ذلك ، حتى اذا كاد يدرك مراده ذهبت مساعيه ادراج الرياح وجورى جزاء سنمار ! . على ان اسفه ما لبث ان تحول الى الاعتبار . فلما دعاه يوليان للجلوس توقف هنيهة ثم قال بصوت جهوري فيه خشونة من عظم التاثر : « تدعوني يا يوليان للجلوس في مكان تحسبه بيتك وانت قد خسرت اليوم هذا البيت ! بعته يا يوليان بارخص الاثمان ، وانت تزعم انك فعلت ذلك انتقاما من رجل ساقه ضعفه الى مس كرامتك . فسقت نفسك واهلك وسائر رجال القوط والاسبان الى ضياع انفسهم واموالهم واعراضهم . حتى ابنتك التي ارتكبت هذه الخيانة غيرة على عرضها قد ذهبت سبية في يد رجل لا هو من دينك ولا امتك ولا لغتك ! »

وكان اوباس يتكلم والحضور مطرقون حتى العرب . مع انهم لم يكونوا يفهمون ما يقول ولكنهم هابوا صوته ومنظره . اما يوليان فانه كان يذوب خجلا فلما سمع ما يقوله عن فلورندا وسبيها انتبه واجفل ، وكذلك الفونس ، ولم يتمالكا ان قالا بصوت واحد : « اين هي ! » ولم يستغربا اطلاعه على ذلك ولا استخفا بقوله لانه لا يقول عبثا .

فلما سألاه عنها وجه خطابه الى الفونس وقال : « ضاعت خطيئتك منك ، وما انت لها وقد ارتكبت ما لم يرتكبه وودريك ، لانك خنت بلدك واهلك واضعتهم جميعا ! . فاذا كنت فعلت ذلك عقابا لرجل اراد ان يمس عرضك . فما هو مقدار العقاب الذي تستحقه انت وقد جعلت اعراض القوط واموالهم وارواحهم عرضة للسلب والقتل ؟ »

فلم يكن جواب الفونس غير البكاء . واما يوليان فانه احس بتبكيت الضمير خصوصا لما سمع بضياع ابنته ، واراد ان يستفهم عنها فهيب وظل مطرقا

وكان طارق وبدر يسمعان كلام اوباس ويعجبان به وهما لا يفهمان ما يقوله . فالتفت طارق الى ما حوله يبحث عمن يترجم له اقواله . فرأى سليمان التاجر فادرك سليمان غرض طارق قبل ان يسأله ، فتقدم وفسر له كلام اوباس وهو يتوقع ان يستاء منه فاذا هو قد زاد اعجابا وخاطب اوباس بواسطة سليمان قائلا : « بورك فيك من رجل عاقل وشهم كامل ! اني لاعجب من فشل جند القوط وفيهم رجل حكيم مثلك . مع كثرتهم واستعدادهم »

فقال اوباس : « لا تعجب يا ولدي ان للدول آجالا كما للناس . فاذا جاء اجلها خابت الحيل في استبقائها . على اني كنت احسب اجل هذه الدولة اطول من ذلك . فعجله ضعف رأي الملك وفساد نيات اهل شوراه . وهكذا اراد الله »

قال طارق : « فاذا كانت هذه ارادة المولى فلا يسوءك خروج هذه الدولة من ايدي القوط . فان دخولها في حوزة المسلمين من اسباب سعادتها . لأن اهلها يعيشون في ظلنا ندفع عنهم الاعداء ونضمن لهم الامن ، ولا نكلفهم عن ذلك الا جعلا قليلا هو الجزية . فاذا ادوها بات كل منهم آمنا على عرضه وروحه وماله » . قال ذلك وامسك بيد اوباس ومشى به وهو يقول : « هلم بنا الى الفسطاط ريثما يفرغ القواد من قسمة الغنائم »

فمشى اوباس ويوليان والفونس وبدر ومعهم سليمان ويعقوب حتى دخلوا الخيمة وكانت كبيرة . فقعد طارق في صدرها واقعد اوباس الى يمينه ويوليان والفونس الى يساره . وقعد بدر في جانب من جوانب الخيمة وهو لا يزال لابسا الثوب الذي حارب به وعليه السيف والدرع . ولم يكد يوليان يراهم استقروا هناك حتى ذهب تهيبه من اوباس فعاد الى الاستفهام عن فلورندا فقال : « سمعتك يا مولاي تقول ان فلورندا ذهبت سبية فهل تعني ذلك حقيقة ؟ »

قال : « ومتى كان أوباس يتكلم جزافا ؟ »

فزاد اهتمام يوليان واستغرابه وأراد الاستيضاح فسبقه [illegible] وقال : « وكيف ذلك ؟ ومن سباها ؟ »

فقال أوباس : « لا أعرف اسم الرجل ولكني رأيتها وأنا [illegible] في الخيمة محلولة الشعر تستنجد السماء لتنقذها من رودريك وكان قد بعث يستقدمها اليه . فجاءها فارس عربي لكنه غير بربري [illegible] عمامة بيضاء فأنقذها وتعقب رودريك لا أدري الى أين . ولكنه أمر رجاله ان يحملوها فحملوها نحو هذا المعسكر [illegible] وهي ملك للذي سباها ! »

فقال يوليان : « هل تعرف ذلك الرجل اذا رأيته [illegible] أنه [illegible] اليه وأخذها من الأمير طارق لأني لم [illegible] »

قال أوباس : « أظنني أعرفه اذ انه يمتاز عن كل الجند [illegible] لونه وشقرة شعره »

فلما سمع يوليان ذلك اتجه نظره الى طارق فالتفت اليه وكان جالسا على بعد خطوات منه [illegible] كلامه ولا يفهمه لأنه لا يعرف القوطية . على أنه لو فهمه [illegible] يوليان [illegible] لأنه ما زال حانقا عليه [illegible]

[illegible]

[illegible] فلما نظر [illegible] بين أنامله ويفكر بعد فلورندا لأنه [illegible] يوليان مشتغلا عنه الالتفات الى طارق [illegible]

[illegible]

[illegible] لابنه أو الأخ الأكبر لأخيه . فلما رآه [illegible] وقال : « أراك لا تزال [illegible] . ألم تسمع [illegible] ؟ »

فقال : « سمعت [illegible] »

فقال طارق : « [illegible] سؤالا »

فوقف وقال : « وما سؤالك ؟ [illegible] »

الا سبيتي نانها لى ولا حاجة الى كثرة الكلام » . قال ذلك وهو يصلح عمامته كأنه يستعد للنزال ، فضحك طارق حتى بانت نواجذه وقال : « لا ادرى ما سبب غضبك ونحن لم نخاطبك فى شىء بعد . الا سمعت قولنا ثم قلت ما تقوله ؟ »

قال بدر : « قل فانى سامع »

قال : « احك لنا كيف عثرت على هذه السبية »

▭

فقص عليهم بدر الحكاية باختصار حتى انتهى الى فرار رودريك وكيف انه قتل الاب مرتين ثم غرق فى النهر . وكان القونس واوباس لا يفهمان ما يقول فتقاربا واستدنيا سليمان ليترجم لهما . فلما وصل الى مقتل مرتين بيد رودريك قال اوباس فى نفسه : « لم يكن يليق قتله بغير تلك اليد ! » فلما فرغ بدر من حكايته قال له طارق : « لا شك انك استأثرت بهذه السبية وانت لا تعلم أنها ابنة الكونت يوليان ! »

قال : « نعم انى لم اكن اعلم ذلك ، ولكن علمى لا يغير شيئا من عزمى ! »

قال ذلك وتحول يريد الرجوع الى مقعده فناداه طارق بلهجة الجد وقال له : « كيف لا يغير عزمك والكونت يوليان هو الذى اكسبنا هذا النصر ، ولولاه لم ندخل هذه البلاد ؟ أيليق بنا ان نسبى ابنته ووحيدته ؟ . ارجعها اليه ولك ما شئت من سبايا هذه الجزيرة وغنائمها »

فقال : « لا اريد شيئا غير هذه ، وهى غنيمتى فى الحرب . وهو الذى متعنى بالامس من غنيمتى الاولى لانها لم تؤخذ فى اثناء القتال ، وهذه ؟ الم اغنمها فى ساحة الوغى ؟ الم احارب ملك القوط من اجلها ؟ وقد قتلته وكان قتله سببا فى فشل جنده . اتستكثرون على فتاة سبيتها ، وقد تركت لكم نصيبى من سائر الغنيمة ؟ »

فقال طارق وهو لا يزال يرجو اقناعه : « اذا كنت تفعل ذلك نكاية فى الكونت يوليان وانتقاما منه فانتقم من غير هذا السبيل ، وانت تعلم يا اخى ان عملك هذا يخالف حق الجوار ومعرفة الجميل . ماذا يقول المسلمون اذا علموا فضل الكونت فى هذا الفتح ثم قيل لهم اننا اخذنا ابنته سبية ؟ فارجع الى ما هو اجدر بك من كرم الخلق ، افعل ذلك اكراما لى وعملا بحقوق الاخوة »

وكان بدر شهما لايرضى ارتكاب هذا العار، ولكنه احب الفتاة منذ

رآها ، وزاد تعلقا بها لانه تعب فى انقاذها فشق عليه التخلي عنها فاطرق هنيهة ثم رفع راسه وعلى وجهه دلائل البشر وقال : « صدقت ايها الامير ان اتخاذ هذه الفتاة سبية بعد غدرا وخيانة ، ولكنني احببتها . ولا يمكنني التنازل عنها فليزوجني الكونت اباها بشرع الله . فهل له بعد ذلك عذر ! »

فالتفت طارق الى يوليان كانه يستطلع رايه فقال يوليان : « ان الفتاة مخطوبه وهذا خطيبها » واشار الى الفونس

فقال بدر : « لايهمني . فان الخطبة يسهل حلها »

فحمى غضب يوليان لهذا الجدال وضاق صدره فقال : « لقد اطلت الكلام بلا طائل ! ان ابنتي مخطوبة وهذا خطيبها . وهب انها غير مخطوبة فلا نصيب لك فيها »

فوثب بدر ويده على قبضة حسامه وقال : « انها سبيتي فى ساحة الوغى ، اخذتها بحد هذا السيف ، فلا اتخلى عنها لاحد ولو كان امير المؤمنين . الا ان يأخذها مني بالسيف كما اخذتها »

وكان سليمان يترجم لالفونس واوباس كل ما يدور من الجدال ، فلما بلغ الى طلب المبارزة وقف الفونس ويده على قبضة سيفه وقال : « انا اولى الناس بمنازلة هذا الشاب ، وكلانا طالب . فايّنا غلب فهي له ! »

فوقف يوليان وامسك الفونس وهو يقول : « بل انا اولى بذلك منك فاذا قتلت هذا الغلام فقد نالته الجزاء الذى يستحقه ، وان قتلني فموتي خير من وقوعي فى مصيبه ثانيـة شر من مصيبتي الاولى ، ولا طاقة لى على احتمال الاثنتين معا » . قال ذلك وتقدم ويده على قبضه حسامه ، فسبقه بدر واستل الحسام فناداه طارق فلم يصغ ، ونادى اوباس يوليان فلم يطعه لانهما خرجا من طور التعقل لشدة الغضب . واقسم كل منهما انه لا يرجع حتى يقتل صاحبه او يقتل هو . فعلا الضجيج فى الخيمة ويعقوب وسليمان فى ناحية منها ينظران !

وبدا بدر فاطلق حسامه على يوليان بعزم شديد ولولا عمود الخيمة لقتله لا محالة ولكن السيف غاص فى العمود ووقف فيه وتصدعت يد بدر لشدة الصدمة ولم يعد يستطيع اخراج السيف من العمود فاغتنم يوليان انشغاله بذلك وانقض عليه انقضاض الصاعقة ، فخاف طارق على بدر فصاح فى يوليان فلم يصغ له ، وفعل ذلك ايضا اوباس ويوليان لا يبالي . فوثب طارق للفصل بينهما بالقوة ، فرأى سليمان

التاجر قد سبقه وتوسط بينهما وامسك زند يوليان وهو يقول : «مهل يا كونت بحياة طوماس ! »

ولم يكد سليمان يتلفظ بذلك الاسم حتى رمى يوليان السيف من يده واستلقى على الارض واخذ في البكاء ، فبغت الجميع حتى يلرى ، والتفتوا الى سليمان كأنهم يستفهمون عن السبب ، فأشار اليهم ان يصبروا فوقفوا جميعا . وتقدم سليمان الى يوليان وامسكه بيده ، وجعل يخفف عنه وهو مستغرق في البكاء . ثم التفت هذا الى سليمان وقال : « لماذا اذكرتني بهذه المصيبة يا سليمان ؟ »

فقال : « وهل كنت ناسيا اياها ؟ »

قال : « كلا ولكنني لم اسمع هذا اللفظ منذ اعوام . ولو لم تلحقني به لكنت قضيت على هذا الغلام وتخلصت من وقاحته وحماقته ! »

قال : « لا تبالغ في شتمه وانظر الى وجهه وتفرس فيه ، فانك تذكر به حبيبا تحبه وتتوهم انك فقدته وهو حي بين يديك ! »

□

فلم يفهم يوليان مغزى تلك الاشارة ، وكان قد جلس وتحول غضبه الى حزن . وظل اوباس وطارق والفونس وافعين وقد علتهم البغتة مما شاهدوه ، وهم ينتظرون ما يقوله سليمان . فلما سمع يوليان اشارته تنبه وتفرس في سليمان ليرى هل هو يقول الجد او يهزل ، فرأى الجد باديا في كل جارحة من جوارحه . وقبل ان يقول كلمة نهض سليمان والتفت الى الحضور واشار اليهم ان يقعدوا ليسمعوا حديثا يريد ان يقصه عليهم فقعدوا الا يدرا . فانه اغتنم فرصة اشتغالهم وخرج لاستبدال سيفه استعدادا لمنازلة يوليان ثانية . اما سليمان فقعد وقال : « اسمعوا اقص عليكم سرا حققته منذ اعوام وفيه موعظة وحكمة » . واخذ يقص حكايته بالقوطية ويترجمها الى العربية . قال ووجه خطابه اولا الى اوباس :

« لا يخفى على مولاي الاسقف ما قاساه اليهود في اسبانيا من ظلم حكامهم القوط من صنوف الاضطهاد والجور حتى اجبروهم اخيرا على النصرانية او يرحلوا من بلادهم . فكان منهم من رحل ومنهم من تظاهر بالنصرانية وبقي في البلاد يسعى الى افساد امرها على الحكومة . ولا اخفي عليكم اني احد هؤلاء المتنصرين وقد قضيت مع الكونت يوليان اعواما وهو يحسبني نصرانيا ، والحقيقة اني لا ازال على دين آبائي واجدادي . واظن مولاي الاسقف يعلم ان يعقوب (واشار اليه) حبر من احبار اليهود وغني من كبار اغنيائهم . قد تظاهر

بالنصرانية وادخل نفسه فى خدمة البلاط الملوكى من ايام غيطشة المرحوم ، وسعى لديه فى رفع الضغط عن اليهود ، وكاد ينجح لو لم يحل دون ذلك اجل غيطشة . فلما تولى رودريك عاد الضغط الى ما كان عليه ونحن نعقد الجمعيات السرية ونبذل الاموال فى مقاومة هذه الحكومة الظالمة وهدم اركانها . ولم نكن ندخر وسعا فى معاكستها ومعاكسة رجالها من الكونتية او القواد او غيرهم ، ولكنا لم نكن نستطيع ذلك جهارا فكنا نفعله سرا . واتيح لى بعد تظاهرى بالنصرانية الرحلة الى الآفاق فنزلت سبتة منذ بضعة عشر عاما وتقربت من حضرة الكونت وبذلت ماقى وسعى لاكتساب ثقته ، ففزت بذلك وصرت اتردد على منزله كواحد من اهله . وكان له ولدان احدهما انثى وهى فلورندا ، والثانى ذكر اسمه طوماس . واتفق فى اثناء ذلك ان الحكومة جددت اضطهاد اليهود ، واتتنا التعليمات السرية ان ننتقم لهم باى وسيلة كانت . فتهيا لى ان احرم الكونت اعز ولديه وهو الصبى ، ولم تسمح نفسى بقتله فاحتلت فى سرقته وحمله معى فى اثناء اسفارى الى بعض قبائل البربر وبعته لاحد كهنتها الوثنيين بيعا رخيصا ، ولم اقل له من اين اتيت به . فاشتراه ثم سلمه الى زياد والد الامير طارق فرباه مع اولاده . فشب الغلام لا يعرف والده ولا احد يعرفه سواى ، وسموه بدرا لبياضه وهو هذا الشاب الذى بين يديكم . وبما ان الكونت يوليان قد انقلب على حكومة القوط الآن ونصر اعداءهم حتى اصبح من انصارنا ، فلذلك وجب علينا اطلاعه على هذا السر ! »

وكان سليمان يتكلم وهم يتطاولون باعناقهم خصوصا يوليان فقد حسب نفسه فى حلم . وكان وهو يسمع الحديث يبحث ببصره عن بدر فى جوانب الخيمة وقلبه يخفق . وكانت الشمس قد غابت واظلمت الخيمة واحس طارق من تلك الساعة كان غشاوة قد أزيحت عن عينيه اذ عرف أصل هذا الغلام والتفت ونادى « بدر ! » فلم يجبه احد ثم انشق باب الخيمة ودخل بدر وقد بدل سيفه

فلما رآه يوليان وثب وهو لا يدرى ماذا يقول ونادى : « طوماس ! طوماس ! » . وهرع نحوه . فلما رآه بدر مسرعا اليه تراجع ويده على قراب سيفه كأنه يهم ان يضربه به ، فوقف سليمان وقال : « تعال يا بدر وقبل يد الكونت ودعه يقبلك فانه ابوك ! »

فبغت بدر وحسبه يهزل حتى تقدم اليه طارق وقال له : « احمد الله انك وجدت اباك ، وقد كنا منذ عرفناك ونحن نتساءل عنه » .

فنظر بدر الى طارق وهو يقول : «الكونت يوليان ابي وفلورندا اختي ؟ من اين اتت هذه القرابة ؟ »

وكان يوليان في اثناء ذلك واقفا امام بدر وهو يتفرس فيه على نور الشفق ، ثم جاءوا بمصباح تناوله يوليان بيده وجعل يتفرس ببدر ويتأمل ملامحه ومعاني وجهه فتذكر بعد قليل ان لتلك الصورة شبها في ذهنه ، فثار الحنو في قلبه فاكب على بدر وضمه الى صدره وجعل يقبله ويتنشق ريحه ويبكي بكاء الفرح ، والناس وقوف وما فيهم الا من تحركت عواطفه لذلك المنظر الغريب ، ولم يتحقق بدر انه في يقظة الا بعد قليل فقبل يد والده ووقف كأنه اصيب بالجمود !

مضت دقائق قليلة واهل الخيمة يتبادلون عبارات الاستغراب ويحمدون الله على نجاة بدر من سيف والده بفضل سليمان . ثم التفت اوباس وهو لا يزال الى ذلك الحين مكشوف الراس محلول الشعر كما جاء وقال لطارق : « يامر الامير طارق حفظه الله ان تأتي ابنتنا فلورندا الى هنا ليتم التعارف »

فقال طارق : « واين هي فلورندا يا بدر ؟ » . قال : « هي في خيمتي » فامر سليمان ان يأتي بها

وكانت فلورندا بعد ان جاءت تلك الخيمة قد اصلحت من نفسها وهي تتوقع ان يأخذوها الى ابيها فلما ابطأوا طلبت من الحراس ذلك فلم يفهموا مرادها على انهم افهموها بالاشارات انها لن تبرح الخيمة، فمكثت ومعها خالتها الى العشاء اذ جاءها سليمان فلما رأته استأنست به وهشت له وقالت : « اين والدي ؟ . اين الفونس ؟ »

فضحك وقال : « ان والدك مشتاق الى رؤيتك وسترينه قريبا ، واما الفونس فلا ارب لك فيه بعد الآن لان الفارس العربي الذي انقذك من يدي رودريك لم يقبل الا ان تكوني له عروسا ! » . فبغتت وقالت : « وهل قبل والدي ذلك ؟ » . قال : « وماذا يفعل ؟ » . قالت : « والفونس كيف فعل . ؟ لا اقبل احدا غيره يظهر يا سليمان انك تمزح »

قال : « تعالي وانظري مجلس ذلك الشاب من ابيك »

فخرجت فلورندا وخالتها بجانبها ومعهما سليمان حتى اقبلوا على خيمة طارق ، فدخل سليمان واشار اليهم الا يتكلموا فدخلت فلورندا والبغتة غالبة على فرحها بلقيا والدها . فسبقها سليمان الى بدر واخذه بيده وجاء به اليها وقال له : « قبل فلورندا يا بدر ! »

فاجفلت هي وتراجعت فصاح بها ابوها : « قبليه يا فلورندا ! »
فلما سمعت ذلك وتحققت ان اباها اراده لها زوجا حولت وجهها عنه واخذت في البكاء وهي تقول : « لا . لا حاجة لي بذلك »
فوقف عند ذلك يوليان وضم ابنته بيمينه فقبلت يده وقبلها ، ثم ضم بدرا بيساره وقبله وقال : « قبليه يا فلورندا . انه اخوك طوماس الذي فقدناه منذ بضعة عشر عاما »
وكانت فلورندا تسمع وهي طفلة انه كان لها اخ وضاع وقطعوا الامل من حياته . فلما قال لها ابوها ذلك تفرست في بدر وهي لاتعرف صورته وما زال الخجل يمنعها من تقبيله ، حتى نهض اوباس وناداها فاجفلت لانها لم تكن تتوقع أن تسمع صوته هناك والتفتت فلما رأته هرولت اليه وأكبت على يده فقبلتها والعبرات تتسابق الى عينيها وهي لاتعلم ماذا تقول
اما هو فباركها وقال : « نحمد الله على سلامتك وعلى وجود اخيك بعد ان قطع الامل من لقائه . ونحمده على التقائك بالفونس ونجاتك من الشراك »
فتصدى الفونس وقال : « ان نجاتها يا عماه يرجع الفضل فيها اليك وحدك . فانك بركتنا ونعمة من الله لنا » . واختنق صوته ، فتنهد اوباس وقال : « ياليتني استطعت ما اتمناه . ولكنني لو استطعته ما التقى بدر بابيه واخته ، ولا التقيت انت بخطيبتك . المرء يسعى في سبيل . والله يدبر من سبيل اخرى . هذه ارادة المولى فما علينا الا ان نشكر الله على ما وقع »
وكانت الخالة العجوز واقفة فلما قيل لها انهم وجدوا طوماس ودلوها عليه ضمته الى صدرها وقبلته وسلمت على يوليان والفونس ، ثم تناولت يد اوباس فقبلتها وقالت له : « بقي امر لا يتم سرورنا الا به ، ولا يقدر عليه سواك »
قال : « اظنك تعنين زفاف فلورندا الى الفونس ! وهذا واجب على لأبي واضع عربون الخطبة فامهلني الى مساء الغد » فلم تستطع الاعتراض
ثم وقف طارق وقال : « يسرني ان يتم لكم هذا الاجتماع في يوم نصرنا الله فيه : وانتم منذ الآن في ذمتي فتقيمون حيثما تشاءون آمنين مطمئنين مكرمين ، انتم ومن يلوذ بكم »
وقضوا برهة يتحادثون في شؤون مختلفة وعينا فلورندا لم تنتقلا عن عيني الفونس . ناهيك بما دار بين العيون من الحديث الخفي ،

حتى اذا انقضى هزيع من الليل قال يوليان : « هلم بنا ننصرف الى مراقدنا فاننا نحتاج الى الراحة بعد ما قاسيناه من العناء في اثناء النهار » . قال ذلك وخرج فتبعه اوباس والفونس وفلورندا وبدر . ودلهم يوليان كلا منهم على مكان ينام فيه . وتذكر الفونس يعقوب فبحث عنه فلم يره بينهم فعلم انه ذهب ليمضي ليلته في بعض الخيام

—

باتوا تلك الليلة ولا تسل عما قاسوه من الارق وما اعتراهم من تأثرهم من ذلك المنظر الرهيب . ولما اصبحوا احب اوباس ان يشرف على تلك الموقعة ويتعرف من المعسكريين من قتل من كبار الدولة ومن هرب ، فمشى ورافقه يوليان وبدر والفونس . فرأوا الجثث مبعثرة هنا وهناك . ورأوا من القتلى جماعة من القواد في جملتهم كومبس فأسفوا عليه أسفا شديدا . ثم مروا بخيمة الملك ورأوا بالقرب منها الاب مرتين مجدلا فلم يستطع اوباس ان يتفرس فيه . ولما عادوا من ذلك التطواف طلب اوباس من طارق ان يأذن لهم بنقل بعض الجثث للصلاة عليها ودفنها . فأجابه الى طلبه فنقل جثث القواد وجثة مرتين وصلوا عليها ودفنوها . فلما رأتهم فلورندا يدفنون الموتى ذهبت الى اوباس واخبرته بمقتل اجيلا وشانتيلا وطلبت اليه ان يصلي عليهما ويدفنهما فأجابها الى ما طلبت وقد اسف لقتلهما . فدفنهما ودفن معهما من قتل من اولاد الشيخ صاحب الكرم . ولما اخبرته بما كان من دفاع الشيخ واولاده عنها اوصى طارقا به وباهله خيرا

ولما غربت الشمس تهيأ الفونس لعقد الاكليل على فلورندا في خيمة يوليان فاحتفلوا بذلك على ابسط الطقوس وقلوب الجميع تطفح سرورا لذلك اللقاء ووجوههم تبتسم ، الا اوباس فانه ما زال ساكنا كعادته لا يغلب عليه فرح ولا حزن . وبعد تمام الاكليل سألهم اوباس عن المكان الذي يفضلون الاقامة فيه فقالوا : « حيثما تريد انت » . فقال : « اما انا فاتركوني وشأني » .

فقالوا : « كيف نتركك وانت حكيمنا ومرشدنا ؟ »

قال : « لو كنت كذلك لنفعتك . انني سأقضي بقية هذه الحياة في العبادة والصلاة منقطعا عن هذا العالم فقد رأيت من شروره ما كفاني . وهل اتوقع ان ارى بعد هذه الواقعة غير ما يزيد اسفي ويضاعف حزني . وانا لا استطيع العمل بما يدعوني اليه ضميري ويستحثني عليه الواجب ؟ فالاولى بي ان اقضي بقية هذه الحياة في

مكان لا أرى فيه شراً . ولا يراجعني أحد منكم في ذلك .

فلم يستطع أحد أن يراجعه إلا رجل تصدى له من جملة الحضور وقال : « وأنا أين أذهب أنا ؟ »

فتوهم ألفونس أنه يسمع صوت يعقوب ولكن القيافة غير قيافته . أما أوباس فعرفه فقال : « هذا يعقوب قد وفى نذره وأطلق لحيته واغتسل ؟ »

وتذكر ألفونس شيئاً من ذلك منذ اجتمع معه في طليطلة . ونظر إلى يعقوب فإذا هو حسن الهندام وقد أصلح لحيته وتزيا بزي حاخامي اليهود تماماً فقال له : « ما ذلك يا يعقوب ؟ »

قال : « قد آن لي وفاء النذر والتخلص من ربقة الذل . إذ أصبح الناس بعد هذا الفتح أحراراً يتبع كل رجل دينه . وأنا يهودي جنساً وديناً . فأحب الرجوع إلى مذهبي . فأصلي في كنيستي وأقرأ في كتابي . »

وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا لم يجدوا أوباس في خيمته ولا في سائر المعسكر ولا عثروا عليه من ذلك الحي . فعلموا أنه ذهب للتنسك كما قال

وأما ألفونس ويوليان فظلا عوناً لطارق وجنده حتى أتم فتح الأندلس . ولما لم يلاق مقاومة بعد تلك الواقعة إلا في استجة وأهلها ساروا إليها تواً بعد واقعة شريش وحاربوها حرباً شديدة . فلما فتحوها وقع الرعب في قلوب الناس وهربوا إلى طليطلة فأشار يوليان على طارق أن يفرق جيوشه في مدائن الأندلس لأن الناس أخلوها وساروا إلى العاصمة . فبعث جيشاً إلى قرطبة . وجيشاً إلى غرناطة . وجيشاً إلى مالقة . وجيشاً إلى تدمير . وسار هو ومعظم الجيش إلى طليطلة فوجدها خالية لأن أهلها لحقوا بمدينة خلف الجبل . أما الجيش الذي سار إلى قرطبة فقد دله راع على ثغر دخلوا منه البلد وملكوه . والذين قصدوا تدمير فتحوها بالسيف وفتحوا غيرها من المدائن . أما طارق فلما رأى طليطلة فارغة ضم إليها اليهود وترك معهم رجالاً من أصحابه وسار في إتمام الفتح كما هو مفصل في كتب التاريخ

السنة ١ — العدد ١

روايات الهلال

صاحباها ورئيسا تحريرها : إميل زيدان وشكري زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحي

يناير ١٩٤٩ • ربيع الأول ١٣٦٨

بيانات إدارية

ثمن العدد : في مصر والسودان ٦٠ مليما – في الأقطار العربية عن الكميات المرسلة بالطائرة : في سورية ٨٠ قرشاً سورياً – في لبنان ٨٠ قرشاً لبنانياً – في فلسطين ٧٥ ملاً – في شرق الأردن ٨٥ ملاً – في العراق ٩٠ فلساً

قيمة الاشتراك عن سنة (١٢ عدداً) : في القطر المصري والسودان ٦٠ قرشاً – في سورية ولبنان ٨٠٠ قرش سوري لبناني – في فلسطين وشرق الأردن ٨٠٠ مل – في العراق ٨٠٠ فلس – في المملكة العربية السعودية ٨٠ قرشاً صاغاً أو ١٧ شلناً – في الولايات المتحدة وكندا وكولمبيا وتشيكوسلوفاكيا والأرجنتين ٦ دولارات – في سائر أنحاء العالم ١٠٠ قرش صاغ أو ٢٠ شلناً

طريقة الدفع

في مصر والسودان : نقداً أو بموجب أذونات أو حوالات بريدية أو شيكات – **في خارج القطر المصري** : بموجب شيك على أحد بنوك القاهرة أو حوالة بريدية « Money Order » أو إلى أحد وكلائنا إذا كان هناك وكيل . ولا يمكن قبول أذونات البريد أو العملة الأجنبية

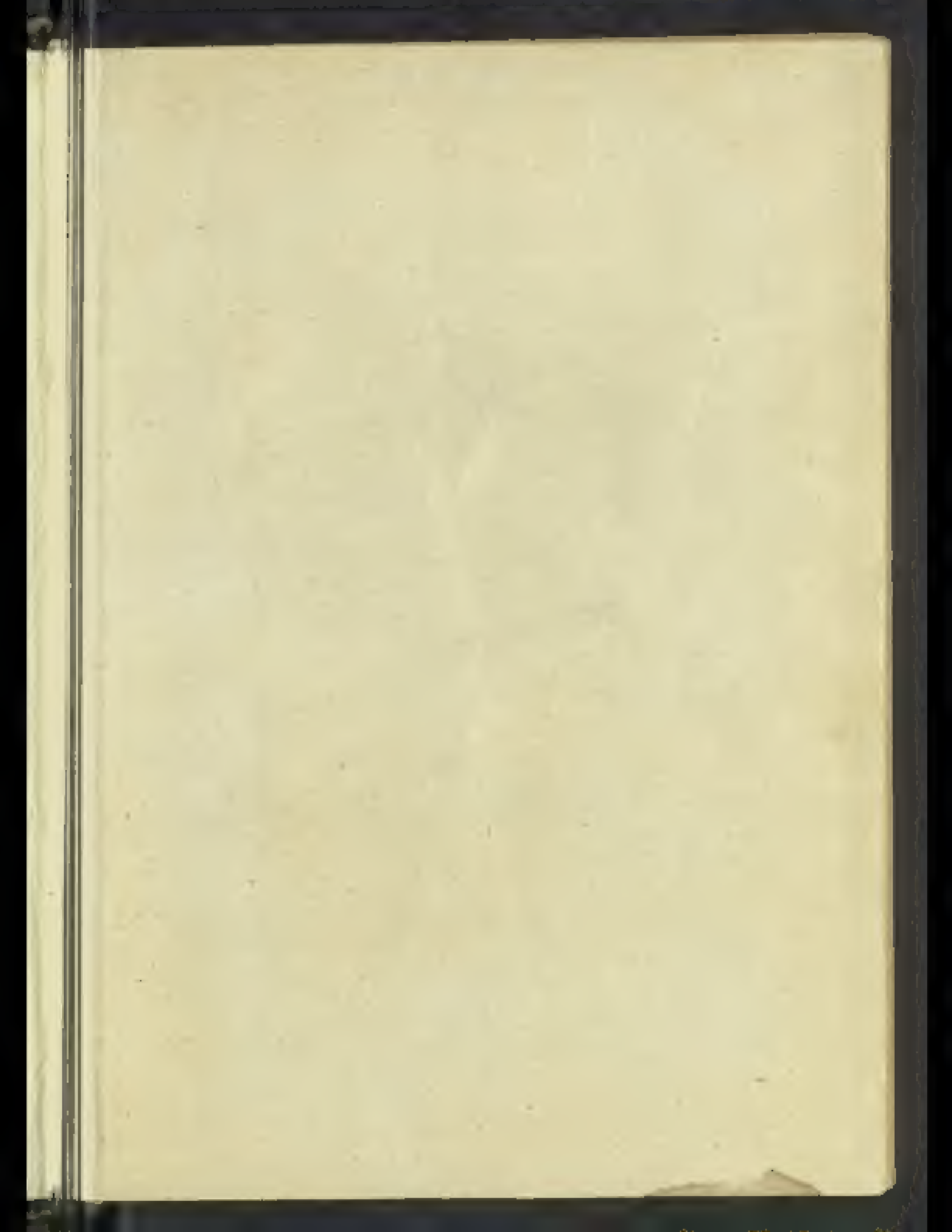
ملاحظة هامة : وكلاء روايات الهلال هم وكلاء الهلال

مركز الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع المبتديان ، القاهرة – مصر

المكاتبات : روايات الهلال – بوستة مصر عمومية – مصر

التليفون : ٤٦٠٦٤ (ثلاثة خطوط)

الإعلانات : يخاطب بشأنها قسم الإعلانات بدار الهلال




UNIVERSITY
LIBRARY